كنز الرغائب
في
منتخبات الجوائب

﴿ في التمدن ﴾

لا يخفى ان لفظة التمدن مأخوذة من المدينة والمدينة مشتقة من مدن بمعنى اقام على القول الاصح وان كان صاحب القاموس قد اضطرب فيها فجعلها مرة من دان ومرة من مدن وكيف كان فان مرادف التمدن في اللغات الافرنجية من معنى المدينة وهو عندهم في الاظهر عبارة عن استجماع كل ما يلزم لاهل المدينة من اللوازم البدنية والعقلية فقولهم مثلا هذا رجل متمدن بمنزلة قولنا متأدب كيس خبير وما اشبه ذلك ومع بلوغ هذه اللفظة عندهم الى اقصى مدى الشهرة وجريها على الالسنة والاقلام لم يزل عليها ظلام الالتباس والابهام فان كل صاحب صنعة يظن ان وجود صنعته بخصوصها هو المراد من التمدن فاذا كان احد المصورين مثلا يذهب الى بلاد ولا يجد فيها من اهل حرفته يحكم بان تلك البلاد غير متمدنة وكذا المغني والرقاص ونحوهما وضد التمدن عندهم هو الحالة الهمجية وهي الخالية عن الترتيب والانتظام فالحالة الاولى عندهم هي التي اتصف بها اهل اوربا جمعا والحالة الثانية هي التي يجودون بها على غيرهم الا اني اعجب كيف يكون اجبار الناس مثلا على نوع معلوم من اللباس او الاكل من التمدن وكيف يكون منه ايضا قهرهم على ان يفعلوا ما لا تطاوعهم نيتهم عليه فسيمر بك من غرائب هذه الجوائب ما كلف به المسلون واليهود في الجزائر وما اجبر عليه اهل وارسو من اللباس فالامر الاول ينكره كل من الفرنسيس والانكليز ويحكمون بانه خارج عن التمدن والامر الثاني ينكره الانكليز ويجعلونه من قبيل التسلط المخالف للتمدن وفي الجملة فانا نرى في وجه هذا

القرن الذى تزين بكثير من العلوم والاختراعات ماينسف عن الحالة الخلقية اعنى الهمجية فى تلك البلاد المتمدنة ولاسيما مايحدث فيها من القتل والاغتيال والسلب والاختطاف والفتن والتعاوى واعجب من ذلك خلو هذه البلاد بحمده تعالى عن مثل هذه المعايب والمنكرات مع كونها محلاة عن مورد التمدن فى زعمهم فاما ان يقال ان التمدن صار سببا لهذه الشرور والتعدى او ان هذه الشرور مغايرة للتمدن فمن القول الاول الذى يطلقونه علينا اعنى عدم التمدن ينتج انا خالون عن الشرور ومن القول الثانى ينتج انا متصفون بالتمدن ومع ان علينا رقباء يتربصون بنا سوءا حتى يشيعوه عنا ومع كون هذه المدينة المحروسة قد جمعت فاوعت من جمع اجبال الارض فليس يشيع عنا شئ يوجب اللوم على انه حدث من سوء التدبير او التفريط فى الامور ولا ادرى كيف صح لكاتب جرنال الاخبار مع كونه جرنالا للدولة فى الجزائر ان يشيع ما اشاعه من اكراه اليهود على السجود مع ان ذلك مغاير للمحامد التى تحرص عليها الدولة فاذا كان مثل هذا الامر يحدث فى ايام دولة الامبراطور فما ظنك بغيرها *

فى الهواء

قال بعض العلماء لايخفى ان للشمس والهواء تأثيرا فى كل المخلوقات من الانسان الى الفقع قال وزعم العلامة فونتانل ان سكان البلاد الزائدة الحر والبرد لايكونون اهلا للعلوم فان العلوم الى هذا الان لم تتعد مصر ومورتانيا من البلاد الحرة وبلاد السويد من الاقاليم الباردة ولعل بقاها فى جبل الاطلس (فى افريقية) وفى بحر البلطق ليس عن مجرد عرض واتفاق ولاندرى ان كانت هذه الجهات ليست حدودا لها او انه يصح لنا ان نترجى انه ينبغ مؤلفون ماهرون من اهل ليلاند او من بلاد السودان وقال المولف شردان فيما وصف به بلاد الفرس ان حرارة القطر توهن كلا من البدن والعقل وتخمد نار المخيلة التى لابد منها فى

اختراع المعانى فاهل هذه البلاد لايمكن لهم المداومة على الدرس والاجتهاد فى المطالعة بما هو لازم لتأليف الكتب العلمية اولانشآء الصناعات الجليلة قال فكان هذا القائل لم يفكر فى ان الشيخ سعدى ولقمان كانا من الفرس او ان ارشيميديس كان من صقلية حيث الحر يزيد على حر بلاد الفرس بثلثة ارباع وقد نسى ايضا ان فيثاغوروس هو الذى علم البراهمة علم المساحة وقال بودان ان تأثير الهواء اصل لكل من الدولة والديانة وكذا قال ديدوروس الصقلى من قبله ولكن لنا ان نسال هولاء الذين يظنون ان تأثير الهواء هو اصل كل شئ ما بال القيصر يوليانوس كان يقول انما يعجبنى من اهل باريس رزانة اخلاقهم وشدة طباعهم والحال انهم مع عدم تغير هوائهم بشئ صاروا كالاطفال اللاعبين فى كون الدولة ترزأ منهم وتضحك اليهم فى وقت واحد فيطفقون هم ايضا بعدها يضحكون ويغنون متهكمين على ساداتهم ثم ما بال المصريين الذين قيل فيهم انهم اشد رزانة من الباريسيين صاروا الان الى ما نراه فيهم من التوانى والاحجام بعد ان تغلبوا على الدنيا تحت ملكهم سيستريس على ما فى التواريخ ولاى سبب لا نجد الان فى اثينا مثل ارسطو و اناكريئوس وغيرهما وكيف طرأ على رومية بدل فلاسفتها نحو شيشرو وكاطو ولاوى ان صار اهلها يخافون من ان يفصحوا عما فى خواطرهم وصارت سعاداتهم انما هى التحديق فى زفاف الصور وفى رخص سعر الزيت وبعكس هذه الحال من الترقى الى التدلى حال الانكليز فان سيشرو المشار اليه كان يتهكم عليهم وكثيرا ما كان يسأل اخاه كوينتوس عن وجود فلاسفة بينهم اذ كان يظن ذلك محالا فلم يكن يخطر بباله انه ينبغ من هذه البلاد مهندسون يفوت كلامهم فهمه مع ان هواها لم يحل عن حالته وجو لندرة الان ادكن مما كان سابقا نعم ان للهواء تأثيرا الا ان تأثير الحكومة اشد واكثر من ذلك تأثير الحكومة والديانة معا وكل شئ يتغير مع تمادى الزمان فلعل اهل اميركا

يأتون حينا من الاحيان الى اوربا ليعلموا الافرنج العلوم والصنائع *

﴿ فى التأثير والتأثر ﴾

قال بعض الفلاسفة قال الطبائعيون ان لكل شئ فى هذا الكون بعض تأثير فينا اما فى حواسنا الظاهرة او الباطنة وقد تسرى قوة التأثير من المؤثر فيه من دون لمسه وتحريكه وقد يكون فكر مؤثرا فى فكر اخر وبعبارة اخرى قد يكون بعض التصورات مولدا لتصورات اخرى وبالجملة فقد تقرر بالبرهان ان للمواد ايضا خاصية ميلية فعالة عن بعد من غير مماسة الا ترى ان للشمس والقمر تأثيرا فى المد والجزر من دون مماستهما الماء وانما هو بطريق التأثير والجاذبية قال ولكن هل يكون للشمس والقمر تأثير عند اقتراب بحران الحمى وهل يكون تشويش مزاج المراة المتوجعة فى اول ربع من ارباع القمر وهل الشجر المقطوعة عند امتلاء القمر تكون اسرع الى النخر والبلى منها اذا قطعت فى محاقه فيه اشكال على وانما اعلم ان الحطب اذا قطع والماء جار فيه يكون بلاه اسرع من غيره فاذا اتفق ان قطع عند امتلاء القمر و هو فى تلك الحالة لم يشك الناس الا انه من القمر فاما تشويش المراة فربما يعرض لاحدى النساء عند زيادة القمر ويعرض لاخرى من جاراتها عند زيادته وكذا القول فى الحمى فانها ربما المت بك لانهماكك فى الاكل والشرب فى اول ارباع القمر وربما المت بجارك عند نقصانه وقد كان من معتقد سكان المدن القريبة من البحر ان الموت لايقرب من ساحة المريض وقت المد وانما ينتظره الى وقت الجزر فزعم بعض الاطباء الذين يتكلفون لكشف الغطاء عن غرائب الطبيعة انه اذا حصل المد فى البحر وهو ولاشك ناشئ عن قوة وزيادة سرت تلك القوة من البحر الى الانسان واذا وقع الجزر وهو عبارة عن ضعف ونقصان سرى ذلك ايضا فى الحيوان قال وهذا القول فى غاية الطلاوة لو كانت يثبت بالدليل والاولى ان يقال ان تأثير الاشياء القريبة منا او المخالطة لنا افعل وابلغ من تأثير غيرها فان تأثير الطعام والنوم والسهر والغضب والشهوة ونحو ذلك

فى المريض اولى من تأثير الاجرام البعيدة عنه واذا كان السمك مثلا عنصره الماء وعنصر الانسان الهوآ فلا يصح ان ينسب تأثير عنصر السمك الى الانسان وبالعكس ولست ممن ينكر ان تأثر الحبلى يوثر فى جنينها فانى قد رايت ذلك بعينى وصدقه ايضا من راه قبلى اما الاول فانى ابصرت مرة امراة حضرت ملهى كان فيه كلب يرقص وعلى راسه قلنسوة حمراء فلما راته المراة انزعجت وطلبت ابعاده عنهما لئلا يأتى ولدها وعليه تلك العلامة ثم زاد بها القلق والانزعاج وطفقت تبكى وتقول ان هذه ثانى مصيبة اصابتنى فان ولدى الاول ولد وعليه علامة ماكان هالنى ثم انها ولدت بعد ايام ولدا يشبه الصورة التى انكرتها وعلى رأسه شبه بتلك القلنسوة ظاهرة الا ان الولد لم يعش الا يومين واما الثانى فانه قد ذكر فى التواريخ ان الملكة مارى ستوارت ملكة سكوتلاند لما كانت ذات ليلة جالسة للعشآ مع محبها وهى حبلى بولدها جامس الاول اذا بزوجها هجم عليها ومعه بعض حشمه مخترطا سيفه لقتل خليلها فلما رات السيف مسلولا ارتعدت ووجلت جدا فسرى ذلك الى ابنها مدة حياته فكان مع مافيه من الصرامة والشجاعة لايرى السيف مسلولا من غمده الا وتأخذه رعدة له وقد كان الناس يعتقدون فى ايام مالبرانش ما ذكره عن امرأة من انها نظرت وهى حبلى الى مجرم قضى عليه بتخليع اعضائه فلما وضعت ولدها اذا به مخلع الاعضاء مثلما وقع نظرها عليه من اعضاء المجرم واتفقت اراء الاطباء اذ ذاك على ان تخيل المرأة هو الذى أثر هذا فى ولدها ثم انكر ذلك من جاء من بعدهم ولله اسرار فى خلقه لا يدركها احد من خلقه *

فى الحلم بكسر الحاء

من اعظم ما اشكل على من غوامض اسرار اللغة العربية مادة (ح ل م) فان فيها معانى متباعدة لاتجمعها اصل ولكنى لا انكص عن بذل الجهد فى تلخيصها على قدر الامكان ومبلغ الادراك فاقول قال فى القاموس فى

اول هذه المادة الحلم بالضم وبضمتين الرويا (ج) احلام حلم فى نومه واحتلم وتحلم وانحلم الى ان قال وحلم به وعنه راى له رويا اورآه فى النوم فقوله اورآه الخ يشير الى انه يتعدى بالباء الا ان عبارة الصحاح تفيد انه يتعدى بنفسه ايضا تقول حلمت به وحلمته وقد تابع المص الجوهرى فى كونه ابتدا هذه المادة بهذا المعنى وعندى ان اصل المعنى ما قاله بعده وهو حلم الجلد وقع فيه الحلم اى القردان قلت وبه شبهت حلمة الثدى وحلمه وحلمه مخففا ومشددا نزع عنه ذلك وحلم البعير كفرح كثر حلمه وتحلم المال سمن فكان اصله ذهب عنه الحلم فصح وعندى ان الحلم للاناة والعقل مأخوذ منه بملاحظة صحة الباطن ويؤيده انه وردت صيغة الحليم لذى الحلم وللبعير المقبل السمن ولم يذكر المص حلم عنه اى صفح عنه والمشكل هنا الحلم بمعنى الرؤيا ويمكن ان يقال انه مأخوذ من الحلم بفتحتين تشبيها له به بجامع مطلق الوقوع او بجامع الوقوع والاختلاط معا او ان العرب كانت تعتقد ان اكثر الناس حلما بالكسر اكثرهم حلما بالضم فان منشا الحلم غالبا من الفكر والذكر ومما قلته فى الحلم قديما

* اسر اذا انقضى يومى لانى * ارجى فى الكرى حلما يسر *
* فاحلم اننى اسمى واشقى * فليلى مثل يومى او اشر *

وهل احلام السعداء ابدا تكون سعيدة واحلام الاشقياء ابدا تكون شقية فيه نظر وتأمل وانما قلت ان اصل معنى هذه المادة حلم الجلد الخ بناء على ان الامور المعنوية او العقلية مأخوذة من الاشياء الحسية ضرورة ان الحواس الظاهرة هى التى تبعث الحواس الباطنة على التفكر والتخيل وتقرير ذلك ان الرجل المهذب من هذبت الشجرة والراى من راى بعينه والروية من روى من الماء ونحوه والعقل من عقلت البعير ونحوه لفظة الحجر بالكسر معنى واشتقاقا والحكمة من حكمة اللجام والذكاء لتوقد الذهن من ذكاء النار ومثله الالمعى والادراك فى الذهن من ادرك الرجل احدا اذا لحقه والبلاغة من بلغ اى وصل ثم بنى منه فعل من افعل الطبائع

فقيل بلغ الرجل اي صار بليغا واصل معنى الفصاحة من افصح اللبن اذا ذهبت رغوته فبان ثم بني منه فعل للطبيعة فقيل فصح بل عبارة الجوهري تفيد ان اصل فصح بضم العين موضوع للبن الى ان قال وقد افصح اللبن اذا ذهب اللبأ عنه وهو عندي افصح واصل عرف من العرف وهو الرائحة وذلك ان المسافر في الفلاة كان يشم التراب ليعلم اعلى قصد يسير ام لا واصل الدراية من دري اذا اختتل للصيد واصل الطول بالفتح اي الفضل من الطول بالضم والجمال من الجميل للشحم المذاب والجزالة في الراي والكلام من الجزل للحطب الغليظ والمجد من مجدت الدابة اذا وقعت في مرعى كثير والشرف في النسب وغيره من الشرف للمكان العالي وغير ذلك مما لا يحصى وهو في لغات الافرنج اكثر * ثم لا يخفى ان العرب ضربت المثل في الحلم بحلم احنف وهو منقبة لهما من وجه ومثلبة من وجه آخر اما المنقبة فلانهم لاحظوا منقبة كل شخص فافردوه بها بالمدح تخليدا لذكره وتوسيعا لاساليب الكلام في ضرب الامثال واما المثلبة فلانهم لم يضربوا المثل بغيره مع انهم نسبوا الكرم الى اكثر من واحد وكذا الشجاعة والبلاغة وغيرهما من الصفات الحميدة فالظاهر انه لم يقم بينهم من كان احلم منه مع انه لم يكن ملكا ولا فاتح مملكة فياليت شعري لو كان للعرب الاقدمين دولة مثل الدولة العلية وكان وزراؤها ابدا يعاملون جميع الناس بهذا الحلم الذي تعامل به هذه الدولة اذ ترى كل واحد يدخل عليهم من دون تجشم منه ولا حجبة منهم فبايهم كانت تضرب المثل نعم ان الدول الاسلامية مدحت على الحلم وعلى سائر الفضائل الا ان حلمهم في المعاشرة مثلا لم يكن الامع ذوي الفضل والعلم اذ لم يكن يدخل عليهم احد الا من هذه الطبقة فاما في المعاملة فن العلوم انها لم تكن ح مطردة مرتبة كما هو الان عند رجال الدولة العليـة ولم تكن ايضا متنوعة بتنوع الاجيال فهل كان عند الرشيد مثلا سفراً من جميع الممالك وفي كل يوم لهم طلبة ومسالة وهل كان سكان بغداد مؤلفين

من جميع اقطار الدنيا كسكان اسلامبول بل ليس ايضا من مناسبة بين حلم الدولة العلية وبين غيرها من الدول فأن الصدر الاعظم عندهم لايدخل عليه احد الاباذن وتوصية اومت بقرابة اوبوسيلة خطيرة وكذا سائر رجال دولهم القائمين بالسياسة والايالة بخلاف الواقع هنا فان جميع رجال الدولة العلية مشتركون فى مزية الحلم وكل منهم اذاسئل اجاب واذا استميح اناب فلاحاجب بينهم وبين قاصديهم ولاحجاب وانى اعجب من كل من يرى ذلك ولايتعجب ولايزيدلهم فى الدعاء وهو عليه اوجب لاجرم ان الحلم فى سادة الناس من اجل الخلال واكرم الخصال وموقعه فى النفوس اعظم منه فى المسود المرؤوس فان الروساء هم الذين يحتاج اليهم فى دفع المهمات ورفع الملمات وفى اسكاء الشاكين واطلاب المعتفين فتى كان رئيس القوم حليما كان مرؤوسهم حليما *

﴿ فى المخيلة او التخيل ﴾

قال بعض المحققين التخيل هو قوة حاصلة فى كل ذى احساس وادراك يستحضر بها الاسباء المحسوسة وهى متوقفة على القوة الذاكرة فانا اذا راينا مثلا اناسا او حيوانات اوشجرا مما ندركه بواسطة الحواس الظاهرة ضبطتها القوة الذاكرة والفتها القوة المخيلة ولهذا كان اليونانيون الاقدمون يسمون القوة الشعرية بنت الذاكرة فمن كان اكثر ذاكرة للاشياء كان اكثر تخيلا لها ومن المهم ان يراعى ان هذه القوى التى بها نقبل التصورات ونضبطها ونؤلفها هى من جملة اشياء كثيرة يفوتنا شرحها وتفصيلها فان هذه الموارد الباطنية فينا ليست من غنونا استقلالا بل هى ممن انماها فينا ولقائل ان يقول ان المخيلة وحدها هى الآلة التى تمكننا من تأليف الافكار حتى ماكان منها وراء الطبيعة فانك اذاقلت مثلا زاوية مثلثة ولم تصور لنفسك صورة زاوية مخصوصة فايكون ذلك الامجرد صوت واذا كنت لم تراوتلمس من قبل زوايا مثلثة لم يكن لك ان تتصور كيفية واحدة منها ومالم تبدلك المخيلة صورة من الزوايا

(ولو)

ولو على وجه مشوش غير مفصل لم يتهيأ لك ان تفكر فى احد انواعهـا ايا كان واذا حسبت كان لابدلك من ان تتصـور اعدادا ينضم بعضهـا الى بعض والا فان عقلك لايدرك شيا مما تفعـله بدلك واذا نطقت مثلا بالفـاظ معنوية نحو عظمة وحق وعدل ومتنـاه وغير متنـاه فليست لفظـة عظمة الامجرد صوت من تحرك لسـانك تصعد فى الهواء ما لم يكن قد تصـور عقلك من قبل شيا عظيـما واذا لم تكن عرفت اولا ان شيا ما قيل فيه انه وجد ولم يكن له وجود او انه قبل فيه وجد وكان له وجود فى الحقيقة لم تدر ما المراد بلفظة الحق والباطـل فيكون تصورك لهمـا مبنيا على علمك بهمـا وكذا تصورك لشئ عدل وآخر غير عدل فانما يرد اليك من بعض افعـال خصوصية اعتقدتها كذا مثـال ذلك حالة كونك صبيـا فى المكتب وتعـلم الهجـاء فانت تظن انك قد احسنت التهجى ومعلمك يظن بخلاف ذلك فيوديك عليه فتخيـل انت ان تأديبه غير عدل او انك تكون قد ابصرت عاملا طلب اجرته فمنع منهـا فما يكون تصورك للعدل وغير العدل فى الحقيقة سوى افعـال اقترنت بمخيلتك وهل المتنـاهى فى ادراكك شئ آخر سوى صورة شئ ذى كمية وامتداد محدودين وهل غير المتنـاهى ايضـا شئ آخر سوى تصور كمية وامتداد زادا عن الحد افليست هذه التأثيرات تقع فى عقلك على حد قرأتك للكتب فانك تقرأ فيهـا مثلا حادثة اوفعلا جرى وانت غير مفكر فى الحروف التى لولاها لم تكن تتعقـل تلك الحـادثة وذلك الفعل فعلى مثال ذلك يكون جميع تعقلاتك وتحصيلك للمعارف متوقفا على صور متسقة فى دماغك قال وزعم العلامة ادبصون ان حاسة النظر هى وحدها المـادة التى تمد المخيـلة بالافكار وهذا القول ليس على اطلاقه فان للحـواس الاخرى اشتراكا فيه فان من ولد اعمى مثـلا لايزال يسمع فى مخيلته تالف الاصوات التى انقطعت عن سماعه ولايزال يعى فى ذهنه وعقله الاشيا التى وقعت عليها حاسة لمسه نعم يقال ان حاسة البصر هى

وحدها التي تستحضر الصور وكانما هي نوع من اللمس او الحس يمتد الى مدى النجوم وتكاثر صدورها يكثر المخيلة اكثر من جميع الحواس اذا كانت مجتمعة جميعا * ثم ان المخيلة على نوعين احدهما يسمى المخيلة العقيمة وهي عبارة عما يضبط انطباع الاشياء على وجه بسيط والثاني يسمى المخيلة المنتجة وهي عبارة عما يرتب الصور المدركة ويؤلف بينها على وجوه متنوعة فالنوع الاول قلما يتجاوز حد الذاكرة وهو مشترك بين الانسان والحيوان فان كلا من الصياد وكلبه يحلم بانه تابع للطريدة وكل منهما يسمع في منامه صوت القرن فالاول يصرخ له والثاني ينبح وكل من الانسان والحيوان يفعل فعلا زائدا على مجرد التذكر فهذا النوع من التخيل ربما يؤلف بين شئ وشئ الا انه ليس ناتجا عن فهم بل عن تذكر يجول في مجال الوهم والغلط ولا يتوقف على مساعدة الارادة والاختيار سواء كنا نائمين او مستيقظين وانما هو يصور ما راته اعيننا ويسمع ماسمعته آذاننا ويلمس ما لمسته ايدينا ويزيد على ذلك وينقص ومن ثم قد يحدث لنا ونحن في النوم نظم ابيات من الشعر متسقة بليغة بل ربما كانت ابلغ مما ننظمه في حالة اليقظة بل كثيرا ما يحدث فيه حل اصعب المشكلات الهندسية وهذا النوع هو اصل لاهوائنا واغلاطنا فتارة يقدم بنا الى شئ وتارة يحجم بنا عنه وهو الذي ينشا عنه حية الافتخار والتحمس ويحدث عنه تشويش في الدماغ وضعف في التمييز حين يتراكم ويتراكب وهو نصيب القوم الجهلة فاما المخيلة المنتجة فهي التي تضيف الى الذاكرة تاليفا وروية فتكون طورا مقربة الينا الاشياء البعيدة وطورا مميزة لما اختلط منها ومؤالفة لها ومغيرة حتى يظن انها محدثة لها بالاصالة مع انها انما ترتبها ترتيبا فقط اذ ليس للانسان ان يوجد تصورات من عنده وانما له ان يؤلفها على كيفيات مخصوصة واني اعاجز كل من يدعي هكذا ان يوجد فكرا واحدا من تلقاء نفسه فان ارسطو لم يقبل عن استلفو انه سافر الى القمر الا بعد ان سمع عن القمر وعن البالادينيين وهذه

(المخيلة)

المخيلة فى الحقيقة خاصية مستقلة عنا كالاولى والدليل على ذلك انك اذا طلبت مثلا من مائة رجل جاهل ان يتصوروا آلة ما غريبة جديدة فالتسعة والتسعون منهم لايتصورون شيا اصلا وان بذلوا غاية مجهودهم واذا كان الواحد الذى هو تمام المائة يتصور شيا كان دليلا على ان تصوره انما هو منه خصوصية فهذه المنة الطبيعية هى العمدة فى اختراع الصنائع واتقان التصور وتاليف الكلام المنظوم وهى غير غنية عن الذاكرة الا انها تتخذها مخذ آلة تبرز بها مخترعاتها فمن راى مثلا حجرا ثقيلا لا يمكن تحريكه باليد تصور امكان ذلك بالدما فيقدر هذه الالة ويؤلف بين قواها حتى ينتهى الى المقصود كما وقع لارشميديس وبهذه القوة يتصور الشاعر اشخاصا ينسب اليهم صفات واحوالا ويخترع مالا اصل له كما كان دأب اوميروس فى جميع ذلك وتمام محاسن ذلك كله يدور على قطب القوة المميزة كما ترى فى خرافات ايصوب التى لم تذهب حلاوتها على مر الزمان فاما التخيلات العارية عن التمييز والترتيب فلا يمكن ان تنزل فى الاعتبار هذه المنزلة وانما تعجب الاولاد والجزء الثانى من المخيلة المنتجة القوة المفصلة وهى التى يصدر عنها سحر الكلام لانها ابدا تحضر الى الذهن ما يكلف الناس جميعا به اكثر من غيره اعنى الامور المستطرفة وهى التى تصور بالوان مبهجة زهية ما يرسمه بمجرد رسم ذووا المزاج البارد وتخطر من الامثلة والشواهد ما يكون ابلغ تاثيرا وارسخ وقعا وهذه الخاصية هى فى الشعر اكثر واعم ولكن كما ان تخيلات المهندس ينبغى ان تكون محققة مدققا فيها كذلك ينبغى للشاعر ان تكون تخيلاته غير مفرطة او متجاوزة حد الاقتصاد والسلامة فلا ينبغى له ان يتخيل مالا يصح تالفه بعضه ببعض وهذا الداء كان فاشيا فى الشعراء الذين نبغوا فى ايام لويس الرابع عشر فكانوا يسيرون مراحل فى انتجاع هذه التخيلات ويملون المطائع بهذه التكلفات

في البعد

قال بعض الفلاسفة من درى ان يحسب خطواته من احد طرفي داره الى الآخر فربما يظن انه قد اوتي معرفة الابعاد فلا يحتاج في ذلك الا الى ادارة لحظه وهيهات فان هذه المعرفة لاتحصل الابعد طول ممارسة ودربة واحكام مطابقة ومناسبة وذلك هو الذي يقدر البحرى عند رؤيته سفينة من بعد على ان يحكم من دون تروبما بينها وبين سفينته من المسافة مما يفوت تخمين ركابها وحد البعد هو خط بين الرائي والمرئي وهذا الخط ينتهي الى نقطة وهي هي بعينها لاعيننا سواء كانت المسافة الف فرسخ منا اوقدما واحدة وليس لنا من الوسائل ماندرك به الابعاد ونحققها كما لنا لان نحقق باللمس خشونة الجرم ولينه مثلا وبالذوق حلاوته ومرارته وبالسمع جهر الصوت وهمسه وحيث لم يكن لنا تصور للبعد بلا واسطة ينبغي لنا ان نتوصل اليه بواسطة ما لانا لانتوصل الى المجهول الا بالمعلوم فكان لابد اذا من تحقيق هذه الواسطة فاذا قيل مثلا هذا البيت بينه وبين نهر كذا بعد ميل ولم يكن لى علم بمحل النهر لم يتأت لى ان اعرف موقع البيت بخلاف ما لو مسست جرما مثلا فان استرساله لتأثير يدي يدلني في الحال على كونه لينا رطبا ومما نعته تدل على كونه صلبا فالجزم بابعاد المرئيات يقضي بالاحساس بالزوايا المتكونة في العين على ان جل الناس لاعلم لهم بوجود هذه الزوايا فلذا استحال ان تكون هي الوسائط لتحقيق الابعاد ومن سمع اول مرة في عمره صوت مدفع اوصوت آلة لم يمكنه ان يحكم بان ماسمعه كان من بعد عشرين ميلا اوعشرين خطوة وانما يحكم به بعد التجربة والدربة فان تموج الهواء انما يوصل الصوت الى صماخه من دون ان يوصل اليه المكان الذي انبعث منه الصوت اوصورة المدفع اوالالة وكذا الحال باعتبار شعاع النور المنبعث من شئ فانه لا يدلنا على مكان انبعاثه ولا على كبره وهيئته فانك ربما ترى من بعد برجا صغيرا مستديرا فاذا دنوت منه رايته كبيرا

مربعـا فلاجرم ان الذى تراه عند الدنو منه ليس هو عين ما رايته عند البعد عنه اذ الصغير المستدير لايكون كبيرا مربعـا وقد برهنوا على انه اذا شوهد شئ من قريب او روى رجل من قرب اربع اقدام مثلا اوثمانى اقدام كان فى العين زاوية اكبر بدرجـة على انك ترى هذا الرجـل فى البعدين بعينه وعلى ان الشئ يكون فى الحقيقـة اصغر العين بدرجة ومع ذلك فانك تراه كما هو بعينه فكيف هذه المعارضة بين العقل والبصر ولكن مهما قالوا من التعليل ومهمـا يكن من الخلاف فان الزاوية التى ترى منهـا الرجـل من قرب اربع اقدام هى اكبر من التى ترى منهـا من قرب ثمانى اقدام بضعفين ولا حل لهـذا المشكل لا فى العلم الطبيعى ولا المساحى فهذه الخطوط والزوايا ليست فى الحقيقة علة لادراكنـا بالبصر اشياء فى اماكنهـا المخصوصـة باكثر من رويتنا لهـا فى قدر مخصوص وبعد معلوم وليس يعتبر فى الذهن ان العين لاتدرك شيـا من الخطوط التى لم تشـاهدها اذاصور جزء عند تمثلهـا فانها انما تنظر الى اسفل لتبصر ما هو بالقرب من الارض وترتفع لتبصر ما هو فوقها وذلك كله يمكن توضيحه وتحقيقـه بواسطة من ولد اعمى ثم حصـل على حاسة البصر لانه لو امكن له اول حصوله على البصر ان يفتح عينه ويحكم بالبعـد والكبر والموضع لصح ان يقـال ان الزوايا النظرية التى حدثت بغتة كانت السبب فى حكمه الا ان من يولد اكمه ثم يبصر لا يمكنه ان يدرك شيا من الكبر والبعد والموضع والشكل كما ذهب اليه العلامة لوك والعلامة بركلى من بعده وقد تحقق ما قالاه بواقعة جرت فى سنه ١٧٢٩ وذلك ان احد الجراحين المهرة راى مرة غلاما اكمه سنه نحو اربع عشرة سنة فتفرس فيه وترجح عنده امكان شفائه فدعاه اليه ووعده بانه لايلبث ان يرى الدنيا الا ان الغلام لم يكن يهمه كثيرا فقد بصره الا لحرمانه به من القراءة فكان عدم مبالاته دليلا على ان فقد البصر ليس سببا فى فقد سعادة النفس وفى الجملة فان الجراح عالجه وانجحه الله فى مقصده فعـاد

الغلام بصيرا الا انه بقى مدة طويلة لايميز بين المقادير والابعاد والاشكال فكان اذا وضع امام عينه شئ فى كبر الاصبع راه بقدر البيت كله وكل ما كان يقع عليه نظره حوله كان كأنه يلمس عينيه كما يلمس الشئ المحسوس باليد ولم يكن فى اول امره قادرا على ان يميز بين ما كان يتوهمه بلمس يده مستديرا وبين ماكان يتوهمه مربعا ولا على ان يفرق مابين الطويل والقصير مماكان يدركه من قبل باللمس ولم يكن له المام بشئ من المقادير حتى انه بعد الدربة التى مكنته من العلم بان الدار اكبر من الحجرة لم يتهيأ له ان يدرك ان البصر هو الذى جعله يدرك هذا ولم يقدر ان يميز ان الصورة هى مثل الجسم مثلا الا بعد شهرين وحين كان يبصر بعد هذه المزاولة فى الصور اجراما ممثلة فضلا عن السطوح كان يأخذ الصورة بيده ويتعجب من عدم وجوده فيها جرما مجسما ثم يسال اى حاسة كذبته الحقيقة احاسة البصر ام اللمس فمن ثم كان من المحقق الثابت ان النوع الذى تدرك به المرئيات ليس من خصوص تكون هذه الزوايا فى العين فانها كانت فى عين ذاك الغلام كما هى فى اعيننا ولم تكن نافعة له لولا مزاولته ومساعدة حواس اخرى وعلى مثال ذلك اذا رايت رجلا قائما على سطح من ثقب صغيرفان بعد المسافة وقلة الشعاع يمنعك من ان تدرك انه انسان لكونه ظهرلك صغيرا جدا ثم اذا تحرك حكمت بانه انسان وظهرلك فى مقداره الاعتيادى فمن اين نشأ هذان الاعتباران المتغايران فانك حين ظننت ذلك المرئى شبحا توهمته لايزيد على قدمين طولا ولما تحققت انه انسان وكانت الدربة قد ركزت فى ذهنك ان طوله مثلا خمس اقدام اوست رايته فى طوله المألوف اوبالحرى رايت الطول نفسه *

في قوة البخار واختراع الباخرة

قال بعض العلماء قال العلامة لاردنر اذا ملئت زجاجة صغيرة ماء يمكن تصعيد البخار منها بأوقيتين من الفحم (الحجرى) وح يحصل عنها

مائتان وست عشرة زجاجة كبيرة من البخار فيكون من قوتهـا مايرفع ثقل سبعة وثلثين طنـا قدما واحدة واذا بسط البخار بما له من الخـاصية الانبساطية تضاعفت قوته فتكون على هذا زجاجة ماء صغيرة واوقيتان من الفحم رافعة لثقل اربعة وسبعين طنـا وقد سافر رتل من احدى مدن انكلترة الى مدينة اخرى وكان وزن كروساته نحو ثمانين طنا وفيها مائتان واربعون مسافرا مع اثقالهم وكانت المسافة بينهما خمسة وتسعين ميلا اعنى سفر اربع ساعات وربع فصرف من الفحم المحرق فى مسـافة هذا السفر ذهابا وايابا اربعة اطنـان قيمتهـا نحو خمس ليرات فلوكانت هذه المسافة سيرت فى كروسات السفر الاعتيادية على غير سكة الحديد للزم لها عشرون كروسة كبيرة وثلثة آلاف وثمانمائة حصـان فى ظرف اثنى عشرة سـاعة ولو فرضنـا ان الارض منطقـة بسكة الحديد على دورتهـا وهى عبارة عن خمسة وعشرين الف ميل لكان الرتل المذكور مع عدد الركاب الذين تقدم ذكرهم يطوف بها فى مدة خمسة اسابيع بمصروف نحو ثمانين طنا من ذلك الفحم وقد قرر المحققون من علماء المساحة ان احد اهرام مصر العظيمة قائم على مسـافة من الارض تبلغ سبعمائة قدم طولا وعرضا وارتفاعه خمسمائة قدم وثقله اثناعشر الف مليون رطل وسبعمائة وستون مليونا وكان عدة من استخدم فى بنائه مائة الف رجل مدة عشرين سنة على ما رواه هيرود وطوس المورخ فلوكان انشئ بقوة البخار لما لزم لرفع حجـارته من الحضيض الى قنته اكثر من اربعمـائة وثمانين طنا من الفحم وكان قد انشئ ايضا جسر من الحديد يعرف بجسر ميناى زنته نحو الفى طن وارتفاعه عن الماء مائة وعشرون قـدما فلو رفع بقوة البخـار لما احوج الى اكثر من اربع ثقف من الفحم قال وزعم بعض ان معرفة كون البخـار يحرك اداة عظيمة وهو اول درجة توصل بهـا الى انشـاء البواخر ليست حادثة بل قديمة ذكرها العلامة هيرو الاسكندرى منذ الفى سنة تقريبا وهو غريب وغرب من ذلك ان هذا

الخاطر بقي مهملا مغفلا الى عصرنا هذا وقدكان انشئ منذ نحو مائة وخمسين سنة آلة بخارية غير متقنة وكان المراد بها رفع الماء من المعادن ثم زيدت صنعة واتقانا في مدة ثمانين سنة ولكن لم يجر لهـا استعمال لغير ماذكر فاستعمال البخار استعمالا تنشعب عنه فنون ومنافع انما هو من مخترعات واط وكان مولده بسكوتلاند سنة ١٧٣٦ وكان ضعيف البنية ناحل الجسم ومن غريب امره انه لما كان ابن ست سنين وجده بعض من زار والده منطرحا على الارض وبيده قطعة من الجص يخطط بها خطوطا وزوايا فقال الزائر لابيه لم لا تبعث هـذا الصبي الى المكتب ليتعلم شيأ ينفعه فذلك اولى له من اضاعته الوقت باللعب فقال له ابوه لاتعجل الى اللوم من قبل ان تسأله فلما سأله وجده منشغلا بحل مشكل من مشاكل اوقليدس الهندسية ووبخته مرة خالتــه على كسله فقالت له لم لا تأخذ كتابا وتطالعه الم تعلم انه قدمضى عليك ساعة وانت لم تنطق بكلمة ولم يكن منك الا نزع غطاء المغلاة ورده ووضع الملاعق والصحاف فوق البخار لتأخذ منها القطرات الحاصلة من البخار وحكى بعضهم ان انثيميوس وهوالذي بني ايا صوفيا كان له المام بخاصية البخار وذلك انه كان مجاورا لبيت كان يسكن فيــه رجل يسمى زينو وكان بينهمـا منافرة ومباغضة فكان اذا اراد ان ينكي جاره يملا عـدة مراجل ماء ثم يسد افواهها ويوقد تحتها نارا عظيمة فيخرج منها البخار بدفع قوي ويسري في انابيب كان قد احكمهـا في المراجل واصلة الى بيت جاره فتتزلزل به حجرته فينهض مرعوبا مدهوشـا ومثله ما حكي عن كهنة الجرمانيين الاقدمين حين كانوا يوهمون جهلة الناس ان معبودهم غضب من شئ فكانوا يجعلون رأس معبودهم مجوفا ويضعون فيـه قدرا ملآنة ماء ويسدون فاه ثم يجعلون تحت القـدر فحما ويوقدونه حتى اذا تراكم البخار وقوي دفع تلك السدادة دفعا قويا يخرج معـه صوت هائل ثم تصاعد البخـار حول الرأس فحجبه عن عيون الناظرين

اجلالا لهم وتحبيرا وفى نحو سنة ١٥٤٠ عرض احد ربابنة البحر من الاسبنيول على الامبراطور شارلس الخامس ان عنده من اسرار الصنعة مايقدر به على تسييرالسفينة فى البحر ضد الريح والماء حتى اذا امره باجراء ذلك وجد انه كان قد احكم عجلتين فى سفينة من جانبيها ووضع فيها مرجل ماء يغلى فسارت السفينة به مسيرة فرسخ فى الساعة الا ان الامبراطور كان وقتئذ متهيأ لحرب فبقيت هذه التجربة فى حيز الاهمال وفى سنة ١٦١٥ طبع كتاب فى فرنكفورت الفه احد مهندسى الفرنسيس المشاهير المسمى سلمون دوكوس وذكر فيه مبادى هذه العملية اعنى جرالانقال بقوة البخار ثم ظهر مركيز ورسستر وذلك فى حدود سنة ١٦٦٠ واتفق انه رزىء من محن الدهر بما احوجه الى ان يتولى طبخ طعامه فلما كان ذات يوم يطبخ قدرا راى البخار يحرك غطاها فجعل يتفكر فى امكان استعمال البخار لغايات اخرى فاول تجربة اجراها كانت فى مدفع وذلك بان ملأ نحو ثلثة ارباعه ماء وسد خرقه وخفه ثم ادناه من النار اربعا وعشرين ساعة فانفلق بدفع شديد فدله ذلك على ان قوة البخار اعظم مما يدركه الانسان قال قد جعل الماء ينبعث من الجدول ارتفاع اربعين قدما وكان الاناء الذى فيه بخار يرفع اربعين اناء ملئت ماء باردا ومع انه هو الذى كشف النقاب عن وجه هذه الحقيقة بالنظر الى المتقدمين لا بالنظر الى واط الذى تقدم ذكره فان الناس اذ ذاك لم يبالوا باختراعه ولم يهمهم اتباع ابداعه وزعم الفرنسيس ان المركيز المومى اليه كان قد اجتمع بسلمون دوكوس واستفاد منه هذه الافكار وكيف كان من براعة هولاء المتقدمين وتبرزهم فى حلبة الاستنباط والاقتراح فان واط هو حامل علمهم ومجرى تصوراتهم وافكارهم فى صبغة الفعل واول باخرة تامة انشئت فى انكلترة كانت فى سنة ١٨١٥ * فاما فن الابحار اى سفر البحر فاول من عرفه من الامم اهل فينيقية (سكان سواحل الشام) وذلك قبل الميلاد بالف وخمسمائة سنة واول سفر طويل عرف منهم

كان الى افريقية وذلك سنة ٦٠٤ قبل التاريخ المذكور ثم عرف فى الاسكندرية الى ان صار كانه من خصائص الرومانيين وكان اول من اشتهر فى معرفة سفر البحر من بلاد اوربا اهل فينيسيا وجينوى ثم اهل البورتوغال واسبانيا ثم اهل هولاند وانكلترة اما اليونانيون فلم يكونوا يعرفون الاسفار فى بحارهم الضيقة الا على الطوف وهو عبارة عن الواح يشد بعضها الى بعض الى ان قدم عليهم داناوس المصرى هاربا من اخيه راماسيس وذلك سنة ١٤٨٥ قبل الميلاد فتعلموا منه صنعة انشاء السفن الصغيرة الا ان الطوف الذى كانوا يستعملونه اذ ذاك كان اكثر صنعة واحكاما من الطوف الذى تستعمله النواتى فى عصرنا فانه كان يحصل بحيث يمكن تدبيره وادارته عند هيجان البحر وفى سنة ١٨٥٥ بلغ مجموع بوارج الانكليز ماينيف على ستمائة بارجة وبلغ عدد ما اتلفته او غنمته من السفن فى ايام فتنة الفرنسيس الى غاية سنة ١٨٠٢ خمسمائة واحدى واربعين سفينة منها ٣٤١ من سفن الفرنسيس و٨٩ من سفن هولاند و٨٦ من سفن اسبانيا و٢٥ من سفن دول اخرى وعدد ما اتلفته او غنمته فى حرب الانكليز مع الفرنسيس الى سنة ١٨١٤ بلغ ٥٦٩ سفينة منها ٣٤٢ لفرنسا و١٣٧ لاسبانيا و٦٤ لهولاند و١٧ للروسية و١٩ للاميريكانيين فمجموع ذلك كله ١١١٠ سفائن * وهنا اقول ان بقاء سر البخار والبواخر على ماتقدم ذكره مكتوما الى هذا القرن هو مما نتفاءل به على ان المولى عز وجل انما قضى بكتمانه وافشائه اكراما لعبده سيدنا ومولانا امير المؤمنين ادام الله نصره وخلد فخره ليتخذه عتادا لتأييد الملك والدين به فانه اجل اربه واخص طلبه واذا كان البارى تعالى هو الذى يداول الايام بين الناس ويعتد خير العقبى لمن كان عن ذكره غير ناس وهو الذى اقدر دولة الانكليز على اعتاد تلك البوارج والشون الفوالج وبهما نالت من العز ما نالت وطالت من المآرب ما طالت بعد ان كانت لم تملك فى ايام الملكة اليصابات غير ثمان وعشرين بارجة بل سائر

الدول الافرنجية كانت ايضا فى مهامه الحمول جارية فلا منكر ان تكون عزائم مولانا المصروفة الى تعزيز الملك وتأييده وتوطيده وتسديده سببا فى انشاء اسطول عظيم يزيد دولته العلية العزيزة عزا وعلا واقتدارا وملكه البهى السنى سعدا وفخارا فيكون فى سالق الذب والاقدام تعليم اساطيل الدول العظام كيف لا وعساكره المنصورة قد اتصفت فى البر باكثر مما اتصف به غيرها من الحماسة المشهورة فلم لاتكون العساكر البحرية ايضا مثلها فى الكثرة والشهرة المأثورة لاسيما وان مملكة انكلترة التى هى الآن معدن البواخر والبوارج المواخر مخلصة الوداد والنية لدولته العلية ومتمنية لها جميع وسائل الخير جزئية كانت اوكلية فالله تعالى وهو خير مسئول واكرم مأمول ان يطيل بقاء مولانا المعظم ويمكنه من اجراء جميع ماوجه اليه الخاطر والهمم فتروى التواريخ عنه من فعله وفضله ما لم تروه عن احد من قبله *

فى الغاز

لاخفاء فى ان هذا النور يتخذ من الفحم او الحطب اذا اوقدا وانما الخفاء فى اصل اختراعه فنقول على سبيل الايجاز ان اول من جرب استخراجه من الفحم قسيس من الانكليز يقال له كلايون اوكليتون وذلك فى سنة ١٧٣٩ الا ان تجربته هذه لم يعمل بها الى ان قام رجل من كورنول اسمه مردوخ فباشر هذه العملية واجرى الغاز فى قصبات من حديد وذلك فى سنة ١٧٩٢ وبعدها بست سنين اتم عمليته ونور بها احد المعامل فى برمنهام الا انه كان يعرض لها الخلل احيانا ثم فى سنة ١٨٠٢ تنبه الناس الى اتقان ذلك والى تعميم المنافع منه وبعدها بسنة نور ملهى الليسيوم بلندرة بالنور المذكور وفى سنة ١٨٠٤ وما بعدها وسع مردوخ دائرة عمليته فى منشستر قال وزعم الفرنسيس انهم هم مخترعوه الا ان الغاز لم يعرف عندهم الا فى سنة ١٨٠٢ وقد عرفت ان مردوخا صنعه قبل هذا التاريخ بعدة سنين ثم من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٢٢ اشتهر

استعمال هذا النور واعجب الناس جدا حتى ان رأس المال الذى جمع لتنوير لندرة فقط بلغ مائة مليون ليرة وشغلت قصباته الممتدة الى مواضع مختلفة منها مسافة مائة وخمسين ميلا قلت ولكثرة الانوار فيها يكون الليل فى الشتاء ادفأ من النهار فان عدد فوانيس طرقها فضلا عن انوار الحوانيت والديار بلغ فى سنة ١٨٤٩ ٠٠٠ و ٣٦٠ فانوس قال وبعد سنة ١٨٢٣ بسنين قليلة اشتهر استعمال الغاز فى سائر مدن المملكة فنورت به الطرق والديار والدكاكين والملاهى وغيرها وهو على نفاسته وعدم نفاده ارخص سعرا واخف كلفة من الشمع والزيت فان رطل الشمع الدون مثلا يساوى ثلثة ارباع الشلين ومدة اتقاده لا تزيد على اربعين ساعة وغالون الزيت (كل غالون يملأ نحو خمس زجاجات من القدر المعتاد) يساوى شلينين وبشر ماتنير ستمائة شمعة فى ساعة واحدة والشمع العال اغلى من الدون بثلثة اضعاف والف مكعب من الغاز يساوى تسعة شلينات فحاصل ذلك ان ما قيمته من الشمع العال مائة يكون من الدون خمسة وعشرين وما قيمته من الزيت خمسة يكون من الغاز ثلثة وقد عده الانكليز من اجل النعم السماوية التى يتنعم بها الانسان فى الليل ومن اعظم الاسباب الموجبة للامن والسلامة ولاسيما فى المدن الحافلة فان لندرة كانت فى الزمن القديم ممنية باللصوص بعد العتمة فكانت الاولاد تحمل بايديها مشاعل وتجرى بها بين ايدى المجتازين وكانت عادة العسس فى ايام الملكة مارى ان يكون معهم اجراس ينقسون بها تحذيرا للصوص وتخويفا وفى سنة ١٧٦٢ وضعت الفوانيس فى طرق المدينة واوقدت بالزيت فقلت اللصوص *

في ابرة المغنطيس

استعمال ابرة المغنطيس فى هداية السفن لم يعلم فى اى عصر ابتدا وانما يعلم ان خاصيته فى جذب الحديد والفولاذ كانت معروفة لقدماء اليونانيين وان استعماله فى السفر كان معروفا لاهل الصين من عهد عهيد فانهم

كانوا يهتدون به في اسفارهم الى جابان والهند وجزيرة العرب ولا يبعد ان اشتهاره في اوربا كان كاشتهار علم الطب والحساب في كونه اخذ عن العرب لانه لم يعرف شانه فيهما الا بعد ان فتحوا غوثا في اسبانيا الا ان العلم به لم يكن تاما ويحتمل ايضا ان العرب اخذته عن اهل الصين ويقال ان معرفة هولاء به كانت في ارجح الاحتمال في سنة ٢٦٣٤ قبل الميلاد قال وهنا مجال للبحث الا ان اليسوعيين الذين جعلوا دابهم التنقيب والتنقير عن علوم اولئك القوم وعن عادياتهم وكذا كلابروت النمساوي البارع ومستردافس كلهم اجمعوا على ان استعماله في تلك البلاد كان في التاريخ المذكور ثم لما كانت الافرنج تسافر الى بلاد فلسطين في الحرب المشهورة بينهم وبين المسلمين كانوا يذكرون وجود هذا السر الغريب فيهما من جملتهم الكردينال فترى وفنسنت دوفوباى وكانت العرب تهتدى به في البر ولم يشهر معرفة استعماله في اوربا الا في سنة ١٣٦٩ فاما الانتفاع به فانما شهر في القرن الرابع عشر واول من اجرى ذلك فيلا فيوجيوجا من نابلي سنة ١٣٠٢ وفي رواية اخرى لم يشهر ذكر المغنطيس في كتب الانكليز قبل ايام ادورد الثالث وكان يقال له حجر السفر وفي سنة ١٣٣٨ سافرت سفينة لهم على هدايته اما رسم النقط فلم يعرف مخترعه وزعم الفرنسيس انه من مخترعاتهم وان رسم النقط الاربع الاصلية انما هو رسم عن فلور دولي اى زهر السوسن ولكن هنا بحث فان زهر السوسن انما هو رسم عما يقال له بالعربية مسالا (لعله مسلة) وكانت العرب تجعلها لدلالة الابرة فاما وضع صوان الابرة واحكام تعليقها به فمن مخترعات وليام بارلو احد قسيسي الانكليز وذلك سنة ١٦٠٨ *

في الهيئة

من احسن الكتب التي الفت في اللغة الاسبنيولية في الادبيات المضحكة كتاب يسمى تهورات دون كويكنسوط ومعنى دون في اللغة المذكورة سيد

وكويكشوط اسم له مفتعل اتخذه هو لنفسه بعد ان لبث يفكر فيه ثمانية ايام ثم اضافه الى الاقليم الذى ولد فيه وهو لامانشا جريا على عادة الافرنج من انهم يضيفون اسم المسمى اذا كان من النبلاء الى بلاده وعلامة المضاف والمضاف اليه عندهم لفظة دو فعلى هذا يقال دون كويكشوط دولا مانشا واصل اسمه كويكسادا اوكويسادا واظن اللفظة الثانية محرفة عن قوى السادة وانما ظننت هذا لان اصل الكتاب فى قول الأكثرين عربى الفه حامدين الانغلى وقد بلغ من الشهرة حتى انه ترجم الى جميع اللغات الافرنجية وحتى انه يقال ان الاسبنيول لا يضحكون الا عند قرآته وذلك اشارة الى ان الغالب عليهم الانفة والعبوس وموضوعه ان الدون المذكور كان فارسا مقداما حقيقة او ادعاء فكان يبارز كل قرن ويتصدى لكل خطب ويتهور فى كل مايكسبه الثناء وحسن الذكر والفخر وانه كان يغيث المظلومين ويقهر الظالمين ويرد الحقوق الى اهلها ويوفى بالعهد وكان كلما سمع صوت ناقور ظن انه فى معركة الحرب فتقلد سيفه وركب جواده الا ان جواده كان مثله نحيفا مهزولا وكان قد تعرف فى صباه بنت من اهل قرية ما فوقع فى نفسه انها شريفة الاصل حيدة الاخلاق فهام بها وجدا فكان يبعث اليها خادمه فكان الخادم يذهب ويعود ثم يختلق عليه كلاما يرضيه به وكان من عادة هذا الخادم الاكثار من ضرب الامثال فكلما خاطبه سيده فى شئ ضرب له مثلا عليه اومثلين فما حكى عن الدون المذكور انه بات ليلة مع خادمه فى خان فراى فى منامه ان بعض المردة جاؤا ليخطفوا محبوبته فتناول سيفه وقام من الفراش ولم يكن عليه الاقيص قصير غيرساترله عورة ثم جعل يضرب بالسيف فى ناحية الحجرة فوقع على وجه خادمه شئ مائع فقام فراى سيده مخترطا سيفه يضرب به يمنة ويسرة وقد امتلات الحجرة من ذلك المائع فخرج مرعوبا وطفق يصرخ ويدعو صاحب الخان ومن كان عنده لان يأتوا ويغيثوا

سيده لكثرة ما قطع من الروس وسفك من الدماء فلما سمع صاحب الخان ذلك جعل يدعو بالويل والثبور ويقول لا بارك الله الساعة التى رايت فيها وجهكم فان سيدك قد شق زقاق الخمر المعلقة فى الاوتاد فوق الفراش فسال ما فيها فقال الخادم وراسك ان هى الاروس المردة رايتها بعينى تتناثر يمنة ويسرة هلم معى فلما دخلوا الحجرة وجدوا الفارس على تلك الهيئة فصار الحاضرون يضحكون وصاحب الخان يبكى فامسك بيده قسيس كان من جملة الحاضرين وقال له مهلا ايها البطل اغمد سيفك فقد انقضت المعركة فرمى السيف من يده وهو غير مستيقظ بعد ثم جثا على ركبتيه يخاطب القسيس وقد ظنه محبوبته الجميلة فقال كل هذا ياسيدتى فى حبك قليل فكونى الآن متهنئة فقد اهلكت جميع المردة وماجزاى منك الا الرضى فقال صاحب الخان عليك سخط الله انما جئت لاراقة خمورى وضررى فقال الخادم اشهد ان هذا الخان مسحور فانى رايت الدم بعينى وقد استحال الآن خمرا * وكان ذات يوم سائرا مع خادمه فابصر عدة طواحين للريح فقال لخادمه ابشر فقد اقبلت علينا السعادة ودارت بها حالنا على احسن ما نتمنى انظر امامك ترى فوجا من الجبابرة المردة لكنى قد وطنت نفسى على قتالهم وابادتهم واخذ سلبهم فيكون لنا معونة على ادامة الغزو والقتال وهو فى حلال لنا لان هذه حرب شرعية لمرضاة الله تعالى واستئصال شافة هذا الجنس الخبيث عن وجه الارض فقال له خادمه اى جبابرة تعنى ياسيدى واى مردة تردى قال هو ماترى هنالك الا ترى الى اذرعهم الطويلة فقد قيل ان بعض الجبابرة لهم اذرع مسافة فرسخين فقال الخادم امعن النظر ياسيدى الهمام فانما هى طواحين وهذه الاذرع التى ترى ان هى الا اشرعة تديرها الريح لتدور بها الرحى فقال له سيده قد ثبت عندى انك غير مجتهد فى صنعة الحرب بعد فانى اعلم حق العلم انها جبابرة فان كنت تخاف من مبارزتهم فامكث مكانك وادع لى وانا ابارزهم وحدى

وسيسمع الناس عنى مالم يسمعوه من قبل قط ثم همز جواده وجعل يصرخ ويقول هلم من يبارزكم ايها الجبناء الاخساء فاياكم والفرار فانه شر عار وما مصيركم الا الى النار البراز البراز لقد اوقعكم القضاء فى يدى ولات حين افلات ثم بعد ان استودع نفسه الى محبوبته اشرع رمحه وركض فرسه وهجم على اولى الطواحين فانفذ فيها رمحه وكانت الريح وقتئذ شديدة فلوت الرمح ليا قويا حتى كسرته ثم جرت الفارس وفرسه فوقعا كلاهما على الحضيض فاقبل الخادم لاغاثته فلما راه على هذه الحالة قال له هذا ما كنت اشفق عليك منه ولكن لاباس فقال له البطل الهمام لاغرو ان تكون امور الحرب كغيرها فى انه يعرض عليها التغير والتبديل ولقد ثبت عندى ثبوتا راسخا ان الحكيم افروسطون الذى اختلس حجرتى وكتبى هو الذى حول صورة اولئك الجبابرة الى اشكال طواحين متعمدا بذلك ان يسلب عنى فخر الظفر الا ان حد سيفى هذا لايلبث ان يمحو اثره * وراى مرة حلاقا راكبا على حمار وعلى رأسه طست الحلاقة وقاية له من حر الشمس فتوهم الحمار جوادا والطست مغفرا فقال لخادمه انى ارى طلائع الجيش مقبلة فاظفرنا الله بهذا المغفر الذهب فان فيه شبعا من جوع وريا من ظمأ فقال له خادمه هداك الله يا بطل الكتائب ما ارى الا طستا يلمع فى الشمس وحمارا صغيرا قال انك بعد غر لاتعرف من اين تأتى الابطال ولامن اين تؤتى اقف ارى فسيكون لنا اليوم نبأ ثم ركض جواده نحو الحلاق وهو مخترط سيفه فلما رآه الحلاق فشل فولى الفرار وترك الطست والحمار فاخذ الطست وجعله على رأسه وامر الخادم ان يقود الجواد جنيبا الى جنب حماره * وكان كثيرا مايعد خادمه ويقول ان اظفرنى الله بغزوة ترضينى وليتك ولاية واسعة فبلغ ذلك بعض امراء اسبانيا وكان يحب المداعبة فاحضر الخادم بين يديه وقال له انى اريد ان اوليك على جزيرة باراطاريا الى ان يتاح لسيدك ان يوليك خيرا منها ثم كتب له كتابا الى اهل الجزيرة فلما وصل اليهم

وحيوا به واكرموه واجلسوه على كرسي الحكومة فاتفق يومئذ ان قدمت عليه امراة مبتذلة من اهل القرى ومعها رجل ادعت عليه بانه انفرد بها فى بعض الحقول واقتضها غصبا ورغما فالتفت الى الرجل وقال له امعك دراهم يارجل قال عندى كيس فيه عشرون ريالا قال ادفعه الى المراة ثمن بكارتها فدفعه اليها وهو يتاوه ويشكو فقبلت المرة الكيس وانطلقت وهى تثنى على الحاكم وتقول بارك الله فى حياتك ما كنا اعدل من حكم وانصف المظلوم ثم التفت الى الرجل وقال له انطلق فى اثر المراة وخذ منها الكيس فانطلق الرجل حتى لحق المراة فطالبها بالكيس فابت فعافرها وعافرته ومزق كل ثياب صاحبه ونتف شعره ثم جرها الى الحاكم فقال له هل اخذت الكيس منها قال لا بل قد مزقت ثيابى ونتفت شعرى فقال للمراة لم لا تدفعين اليه الكيس قالت كيف ادفعه اليه وهو ثمن بكارتى قال اف لك ياكاذبة لو انك حرصت على بكارتك حرصك على الكيس لما نالها منك احد فاستعظم الحاضرون حكمته الا ان الامير المذكور كان قد قيض الله له طبيبا يمنعه من الاكل حتى هزل جوعا فاستعفى من الحكومة ورجع الى خدمة سيده *

حكاية

من الكتب المنسوقة فى الطليانية على نسق كتاب الف ليلة وليلة كتاب يسمى حكايات بوكاتشيو كان مولده سنة ١٣١٣ وهو من مشاهير المؤلفين بايطاليا قال كان فى مدينة ارغوس رجل من النبلاء يقال له نيقوستراطوس وكان من حسن حظه انه تزوج فى زمن كهولته بامراة شابة جميلة ذات فهم وذكاء وكان اسمها ليديا وكان عنده كثير من الخدم والحشم والكلاب والصقور لانه كان يحب الصيد والقنص وكان من جملة خدمه شاب لطيف يقال له بيروس وكان موضع الثقة منه دون سائرهم وكانت زوجته تهوى هذا الشاب فلم يكن يسرها شئ سوى حضوره عندها اما هو فلم يكن فى الظاهر مبديا لها مايدل على

انه كلف بهـا فاما انه لم يكن قد شعر بميلهـا اليه او انه لم يرد ان يظهر ذلك فبلغ ذلك منهـا كثيرا وعزمت على ان تبلغه حقيقة حالهـا فمن ثم دعت ذات يوم احدى خوادمهـا وكان اسمها لوسكا وقالت لهـا اسمعي يا لوسكا ان ما نلته من الاحسـان مني يقضي عليك بان تكـوني ملبية لمـا ادعوك اليه وحريصـة على ما آتمنك عليه فاياك اذا من ان تبوحي لاحد بمـا اقوله لك وهو انك تنظرين الفرق في السن مابيني وبين زوجي وتعلين ان عيني لاتقر به ولا بامثـاله فلذلك اصطفيت لنفسي عشيرا يسرني وخليـلا يشرح صدري وهو بيروس فان كان يهمك امري وتعنيك حالي فاحتالي لان تبلغيه عني ما انا واجدة في هواه واسأليه ان يأتي الي فقـالت لها الخادمة سمعـا وطاعة ثم انتهزت الفرصـة وانطلقت الى بيروس وبلغته ما تلقته من سيدتها فتعجب مما بلغه اذ لم يكن ذلك يخطر بباله ثم فكر في انهـا ربما ارادت بهذا الكلام ان تختبره فقال للخادمة ما اظن ان هذا الكلام صدر من سيدتي فاحذري عاقبة ما تقولين واوانهـا قالت هذا لما كان لك ان تذيعه ولا لي ايضا ان اسيء الى سيدي وانسى ما له من الفضل علي فمن ثم احذرك ان لا تعيدي علي مثل هذا الكلام فاني لا اريد ان اسمعـه فقـالت له لابل ما تأمرني به سيدتي فهو الذي افعله ولو كان فيه مايسوءك ويغيظك اما انت فلست عندي خيرا من البهيمـة ثم انصرفت وهي غضبى واخبرت سيدتهـا بماجرى فكادت تزرق حسرة واسفا ثم دعتهـا بعد ايام وقالت لهـا اعلمي ان الشجرة لاتقطعهـا ضربة واحدة فعليك ان تذهبي اليه مرة اخرى وتقولي له ان تعففه هذا يكون سبب هلاكي ثم صفي له ما اقاسيه من لوعة الوجد لعله يعدي عمـا اصر عليه ويتعطف الي فانه اذا بقي غير مكترث لحـالي اخشى على نفسي من الفضيحة والهلاك فتنتها الخادمة بحصول المرام وانطلقت الى الخـادم فوجدته طربا مسرورا فقالت له قد اخبرتك اولا بما لسيدتي من الميل اليك فاقول لك الآن انك اذا بقيت

على هــذه الحالة من عدم المبالاة بهــا كان فعلك هــذا سببا فى موتهــا فحقق قولى هــذا والا فانك احمق النــاس لكونك تأبى ما يكون لك به معزة وشرف واى شرف اعظم من ان تكون محبوب سيدتى وسيدتك واى سعادة لك اعظم من هذه الحال التى قربتك لدى اجمل امرأة تبذل لك كل ما احتجت اليه فمن يكون اسعد منك لوكان عندك رشد فع كلامى هذا فى بالك واعلم ان السعادة تأتينــا مرة فى العمر وهى باسمة وتمد الينا يد الاسعاف والاعانة فاذا اعرضنا عنها ووقعنا فى فاقة واحتياج قضينا سائر حياتنــا ونحن متأسفون على فوات فرصتهــا اما ماقلت من جهــة الامانة والاساءة فهذا انما يكون بين الاصحاب فاما امثالنا المقيدون بالخدمة فالاولى لهم ان يمتثلوا امر مخدوميهم ارايتك لوكان لك امرأة او اخت او بنت واعجبت سيدنا افتراه كان يعف عنهــا ويتحرج منها كفعلك اليوم مع زوجته لابل كان يملكهــا جبرا وقهرا فلنعاملهم نحن بمثل ما يعاملوننا هم به فدع عنك هذه الحماقة وبادر الى تلبية دعوة السعــادة مادامت مقبلة عليك والا فانك تندم حين لاينفعك الندم فضلا عن ان تمنعك هذا يكون سببا فى بلية تحل بسيدتنــا فلما سمع الخادم منها هذا وكان قد فكر من قبل فى كلامهــا السابق ونوى انهــا ان جاءته مرة اخرى يجيبهــا بغير الجواب الاول بحيث يستوثق منهــا قال لها صدقت ولكن اخاف ان سيدتى انمــا قالت ذلك لتجربنى به وانت تعلمين ان سيدنا فطن لبيب وانه فوض الى جميع اموره فان كانت سيدتى تقول عن جد فان لى ان اطلب منهــا ثلثة اشياء استيثاقا لنفسى وبعد ذلك اكون مطيعــا لها فى كل شئ احدها ان تقتل الصقر الذى يحبــه سيدى بين يديه والثــانى ان ترسل الى بخصلة من لحيتــه والثالث ان تقلع احدى اسنانه السليمــة فتوجهت الخادمة وعرضت على السيدة هذه الشروط فاستصعبتها اولا الا ان العشق الذى من شــانه ان يكون خير مخلف للمفقود وخير منير فى الخطوب حملهــا على ان تذعن لمــا اشترط عليهــا فارسلت اليــه

الخادمة مرة اخرى تقول ان مطلوبك بجمعه يقضى وفضلا عن ذلك حيث انك معتقد بان سيدك فطن لبيب فقد جزمت بان اريه شيئا ينظره بعينه ولايصدق به قلب الخادم ينتظر انجاز ما وعدت به ثم اتفق بعد ايام ان اولم السيد وليمة فاخرة على عادته فلما رفع الغطاء عن المائدة (اى لما فرغوا من الطعام) اقبلت تتهادى وعليها اللباس الفاخر والحلى النفيس ثم فتحت القفص الذى كان فيه الصقر بحضرة الجماعة كلهم من جملتهم الخادم وتناولت الطائر وضربت به الحائط حتى قتلته فصاح السيد متاوها ماذا فعلت وما سبب هذا الاذى فلم تلتفت الى قوله بل اقبلت على الجماعة قائلة لعمر الله لو ان ملكا اساء الى لاخذت بثارى منه فكيف اغض النظر عن اساءة هذا الصقر الذميم الذى حرمنى من عشرة زوجى وهى اشهى شئ الى فانه لايكاد يطلع عليه الفجر الا وقد امتطى جواده وسار الى القنص وغادرنى وحدى من اجل ذلك صممت على قتل ما كان سبب حرمانى واغتنمت الفرصة الآن لتحكموا بينى وبين زوجى بالحق كما هو مأمولى منكم وظنى بكم فظنت الجماعة ان محبتها زوجها فى الشدة والحدة مثل كلامها فقالوا لقد اصابت فى اخذ ثارها من الصقر وهى بريئة من اللوم فسرى ح عن الامير ماكان يجده وتبدل حزنه سرورا فلما راى الخادم ذلك قال فى نفسه نعم الابتداء فعسى ان تستمر على هذا الى الانتهاء ثم لما مضت ايام تبعلت لزوجها مرة فجعل يهصرها بشعرها هصرا لطيفا فخطر ببالها ان تجرى الشرط الثانى فمن ثم قبضت على خصلة من شعر لحيته وجذبتها جذبا عنيفا حتى طلع الجلد معها فساءه ذلك جدا وهم بان يخاصمها فقالت له يحق لك ان تغتاظ وتعبس لانى قلعت من لحيتك شعرة اوشعرتين وها انت كنت تجذب شعرى ولم يكن يخطر ببالك انك توجعنى فسرى عنه غيظه وعادا الى المراضاة والمداعبة ثم ارسلت بالخصلة الى الخادم ثم انها طفقت تفكر فى الشرط الثالث فتحيرت فيه

(وظهر)

وظهر لهما انه اصعب من الاولين الا انهما لما كانت بالطبع ذات فكر ثاقب وقد زاده العشق ثقوبا تبين لها وجه العمل اليه فعزمت عليه في الفرصة الآتيـة وذلك انه كان عند زوجها غلامان من اولاد الاعيان كان ابواهما قد تركاهما عنده ليتعلما الادب وحسن المحاضرة وكان احدهما يقطع له اللحم والاخر يناوله الكاس فاوهمتهما يوما من الايام انهما ابخران وان بخرهما يؤذي زوجها قالت فاذا جلس فحولا وجوهكما عنه فظنا ان ماقالته حق فصارا يفعلان كما امرتهما فلما كان ذات يوم قالت لزوجها اولم تلاحظ مايفعله هذان الغلامان بحضرتك قال نعم وقد طالما عزمت على ان اسالهما عن سبب هذا قالت لاتتعن له فانا اخبرك به لاني علمته لكن كتمته عنك حينا خشية غيظك ولكني الآن رايت ان غيري ايضا قد اطلع عليه فلن ثم لم يبق مجال لكتمانه فاعلم اذا ان سبب ذلك على مازعموا هو ان لك سنا منتنة فاذا كان ذلك صحيحا كان شيأ منكرا لان محضرك ينتابه كثير من الكبراء والفضلاء فيا ليتك تقلعها لتسلم من السنة الناس فقال يا للعجب من هذا اني رأسي اذا شي خبيث قالت ربما كان الامر كما زعموا ولكن دعني انظر اليهما ثم اخذته الى ناحية كوة ونظرت الى اسنانه واحدة واحدة ثم قالت هاهي سن نخرة فاسدة بالكلية فاذا تركتها هكذا فربما سرت عدواها الى الاسنان السليمة فرايي عليك ان تنزعها الساعة قال اذا كان رايك هكذا فاطلبي لي حجاما قالت لاحاجة الى الحجام فانا اتولى هذا بنفسي فان هولاء الحجامين لاشفقة لهم ومايطاوعني قلبي على ان ارى احدهم يوجعك ولكن انا اتلطف في نزعها فاذا احسست بوجع مني كان لك ان تتركه الى وقت آخر فاما الحجام فلا يكون لك مناص من يده ثم انها اخذت الآلة واقعدته على كرسي ووضعتها على احدى اسنانه وجذبتها اشد الجذب حتى اخرجتها وكانت قد خبات في جيبها سنا نخرة فارته اياها وقالت انظر هذا ما كان سبب القال والقيل فيك فلجهد

العائبون فيك الآن عيبا ان استطاعوا فشكا اليها ما وجده من الالم وبما عاملته به من القسوة فاحضرت له ماسكن عنه المه ثم ارسلت بالسن الى محبوبها وعزمت على ان تريه ايضا ما هو اعظم من ذلك كله وهو ما لمحت اليه فى كلامها اولا من انها تبدى شيا لزوجها يراه بعينه ولا يصدقه قال ثم انها اعملت الفكر الثاقب وادارت الراى الصائب وقد لزمها القلق وحالفها الارق حتى كانت ترى الساعة سهرا واليوم دهرا فتمارضت ولزمت الفراش فجاء زوجها يوما ليعودها ومعه بيروس فقالت انى اشتهى ان اذهب الى الحديقة لامكث فيها ساعة عسى ان يخف عنى ما بى من الالم فاخذها زوجها باحدى ذراعيها واخذ بيروس بالاخرى وسارا بها واقعداها تحت شجرة اجاص بجانبها فالتفتت الى الخادم وقالت له ليتك ترتقى الى هذه الشجرة وتقطف لى بعضا من ثمرها فانى اراه ناضجا شهيا وكانت قد لقنته من قبل كلاما يقوله عند الارتقاء فلما صعد وقطف الثمر نظر الى الحضيض فقال ما هذا الامر الذى تاتيانه هنا اتحسبان انى اعمى او انى لا اراكما من الشجرة الم تكونى ياسيدتى مريضة منذ ساعة فقط فاراك الآن قد نقهت حتى جئت هذا الامر انما البعال فى الرحال لا امام الرجال الم تطيق ان تصبرى حتى تعودى الى الدار فياله من عار فقالت السيدة لزوجها فيم يلغو هذا الابله فربما يتكلم وهو فى الحلم فقال بيروس كلا ليس كلامى فى الحلم بل فى اليقظة بل عن مرأى العين بل عن اليقين ومن يكذب بصره فهو من العمين فتعجب زوجها مما سمع ثم قال للخادم لاشك انك تهذى فقال له حاشا لى ياسيدى ان اكون هاذيا او هارئا انما اتكلم عن يقين وانى رايتكما معا ورايت منكما كذا وكذا فقالت السيدة ماعسى ان يكون معنى هذا ياليتنى كنت قادرة على صعود هذه الشجرة لاختبر بنفسى صحة هذا الامر الغريب الذى شاهده فقال الخادم لاجرم ان كل من يكون مكانى يرى ما رايت فمن كذبنى فليأت حيث اتيت وما اشبه ذلك من الكلام فدعاء سيده للنزول

حتى اذا نزل ساله عن حقيقة ما رآه فقال قد رايتكما اولا فى عناق ومداعبة ثم فى مباعلة وكان من الامر ما كان وهو وان يكن حلالا للبعل مع زوجته الا انه لايليق بل لايسوغ ان يكون علانية فقال الرجل انى ارى هذا الخادم معتوها اومتعتها فانا لم نتحرك من موضعنا قط فقال الخادم تالله ما انا معتوه ولامتعته فقد رايته بعينى كما اراك الآن فزاد سيده حيرة وتعجبا وجد به الحرص الى ان يرتقى الشجرة بنفسه لانه ظنها مسحورة فما كان بعد ارتقائه الا ان ارتقى الخادم ايضا على سيدته فالتفت الامير فرآهما على هذه الحالة فجعل يصرخ ويقول اف لك من امراة خبيثة مبتذلة وقبحا لفعلك ولما ارى منك وانت ايها الخادم الشقى الخائن الذى اخلف ظنى فى ائتمانى له لارينك جزاء الخيانة ولافعلن بك ما يكون عبرة لغيرك ثم اسرع فى النزول فلما استقر به المكان قالت له زوجته ماسبب هذا السب والتهديد ونحن بقينا جالسين منذ فارقتنا فقال الخادم الآن قد ثبت عندى ياسيدى ان ما رايته انا لم يكن واقعا وكذا ما رأيته انت فانى احلفك انه قد موه على بصرى وبصرك ايضا الارسد رأيك ونعم بالك ايمكن لاحد غيرك ان يسيء الظن فى سيدتى التى هى اعف النساء وارسدهن ويحسب انها تأتى المنكر بحضرتك اما انا فلو قطعونى اربا اربا لما خطر ببالى مثل هذا الفعل السمج على خلوة فضلا عن ان يكون بمرأى منك فمعاذ الله ان اتجرأ على خيانتك فى مالك فكيف فى آلك ولاسيما ان سيدتى انما جاءت هنا لتحتف عنها المها الذى يؤلمنا جميعا فلعن الله هذه الشجرة فانها هى سبب هذا التمويه والايهام فانى لما ارتقيت اليها اعتقدت بمجامع قلبى ان ما رأيته منك ومن سيدتى كان واقعا لامحالة لولا انك قلت الآن ما قلته انا اولا فاحتدت المرأة ح وقالت اتحسبنى اذا امراة فاحشة غير ذات عرض ولاحياء ولاادب حتى آتى هذا الامر علانية مع انى لوقصدته لما فاتنى فرصة اليه وبهذا الكلام وامثاله سكن عن الامير

غضبه وثاب اليه حلمه وصار يتحدث عن غرابة الشجرة والمنظر وسر
ذلك اليوم فقالت زوجته وهى توهمه انهـا غير راضية بعد عن نسبة
الخيانة اليها وان غيظها لم يسكن بعـد بالكلية باعتقاده رآتها لاجرم
ان هذه الشجرة الخبيثة لن تكون فيما بعد سبب ريبة لى ولا لغيرى فلابد
من قطعهـا فان فيه ثوابا وكذا فى قطع سائر الشر والفساد ثم اوعزت
الى الخـادم ان يسرع ويأتى بفـاس لقطعها فما كان الا ان رجع
كالبرق الخاطف واعمل الفاس فى الشجرة حتى خرت فقـالت المرأة عند
ذلك الآن سـكن غيظى. واشتفيت من هذه الشجرة الخبيثة التى كانت
مثلبـة لشرفى وعرضى فاعتذر اليها زوجهـا فقبلت عذره ثم رجعـوا
الى المنزل وبقى الخـادم مواصـلا لهـا ايان وجد فرصـة اليهـا

﴿ حكاية ﴾

ذكر فى رحلة لاحد سواح الانكليز ممن ساح سبع سنين فى سبير وفى بلاد
التتار وفى الارض التى استولى عليها المسكوب من ختا انه راى فى جهة
الاطراف الملحقة بالصين رجلا طـاعنـا فى السن اشيب الرأس واللحية
يسمى السلطان صوقا وكان رئيس بعض القبائل واصله من نسل جنغيز خان
فكان فيما حدثه به الرئيس المذكور حكاية جرت له فى شبابه جديرة بان تحسب
من عبر الزمان ويتوجع لها كل من رواها باللسان اوسمعها بالآذان وهى
ان السلطان تيمور ابا السـلطان صوق كان رئيس قبيلة القرغيز وهى
قبيلة من قبـائل الاتراك وكـان جهانكير خان رئيس قبيلة القرغيز
وكانت هذه القبيلة قد رحلت من مائة سنة من ظلم المسكوب والتجأت
الى بلاد ختا وكان لجهانكير خان المذكور ابنة فى غاية الحسن والجمـال
وكان اسمها آى خانم فوقع حبها فى قلب الرئيس صوق فخطبها ابوه له
من ابيها فرضى بذلك فلم يبق الا تعيين المهر فلذا ارسل ابوه القـاضى مع
اثنين من اعيان القبيلة ليفاوضوا ابا البنت فى ذلك فطلب مائتين من الابل
وثلاثة آلاف من الخيل وخمسة آلاف من البقر وعشرة آلاف من النساء

(فرجع)

فرجع المرسلون بعد مسافة عشرة ايام وقصوا على ابى الرئيس صوق ملجرى فغضب جدا لان هذا الطلب كان اكثر مما فى وسعه ولاسيما ان شرف نسبه كان يغنى عنه فحزن لذلك صوق واوجس فى نفسه ان ابا محبوبته يزوجها من الامير بدخشان لانه كان خطبها منه فعزم على ان يفرّ بها فلما انقضى الشتاء سار لزيارتها وشكا اليها حاله ومايجده من هواها وطلب منها ان تفر معه عند امكان عبور النهر وذلك عقب ذوب الثلج فعاهدته على ذلك ثم بعد مضى ثلثة اشهر قدم على ابيها وهو فى محلته فرحب به واكرمه وحينئذ عزمت البنت على الفرار معه اول مايرحل العسكر فى طلب الكلائم الها اغتنمت الفرصة فى ذلك اليوم وركبت جوادا من انجب خيل ابيها واخذت صقرها توهم انها تريد ان تطيره عند البحيرة فلذا لم يرتب فى قصدها احد حتى اذا انطلقت وصوق راكب بجانبها طيرت الصقر فطار طيرانا لا رجوع معه ولاقرار فكانه كان طيرة على مفارقتها منزل ابيها ثم جدت فى السير هى وصوق فلما كان اليوم الثانى وجدا مشقة عظيمة فى عبور تيار النهر وفى صعود جبل شاهق بعده فلما سلما من هذه المشقة اعترضتهما مشقة اخرى وهى انهما ابصرا وراهما فى الوادى ثلثة وعشرين فارسا من خيل ابيها فى مطاردتهما لكنهما بقيا جادين فى السير ولم يفشلا فلما كان اليوم الثالث اشرفا على سهل فسيح فابصرا اولئك المطاردين ايضا بالقرب من ثغر كان لابد لهما من تجاوزه فاسرعا اليه فلما راهما المطاردون صرخوا واقبلوا على الثغر فى الجبال وكانت البنت سابقة فكر الرئيس صوق على الخيل وضرب اولهما بطبره على رأسه فسقط كل من الفرس وفارسه فلوى الباقون اعنتهم وولوا فشلا ورعبا فنجا صوق الى الثغر ولحق بمحبوبته وباتا تلك الليلة فى امن وسلامة وفى صباح الغد استأنفا السير من دون خطر فلما كان رابع يوم اشرفا على بحيرة دنكز فاستبشرا بالوصول الى محلة ابيه لانها كانت غير بعيدة وهنا

انفسهما بالسلامة مما اعترضهما من الاخطار والأكدار ولكن ما كادا يصلان الى السهل حتى اعترضهما ايضا زمرة من المطاردين فبادر صوق واحدا منهم بضربة القته صريعا على الارض وتهدد الباقى بان يلاقوا مالقى صاحبهم فولوا عنه هربا فوصلا الى السهل آمنين سالمين وبقيا سائرين حتى بلغا قبل المساء شاطى ايلى بينه وبين المحلة مسافة يوم واحد فنزلا عن الخيل ليبيتا هناك فاوقد صوق نارا ومشت محبوبته نحو شجر عند النهر واذا بصرخة شديدة بلغت مسامعه فاخذ طبره واقبل يجرى جهة الشجر فلم ير احدا بجعل ينادى محبوبته فلم يظفر بجواب ثم نظر واذا بثيابها ممزقة وملطخة بالدم على الرمل وذلك انها لما سارت الى هناك لتقضى فرض الصلاة وثب عليها ببر من الغاب فافترسها قبل ان تصرخ صرخة ثانية وقد ترك اثر رجليه على الرمل فقفا اثره حتى جن عليه الليل وغاب الاثر عنه فقعد حزينا مكتئبا وجعل يبكى وينتحب وينشد هذه الابيات

* الا يا قلب مالك لاتذوب * على فقد الحبيب وفيك حوب *
* ويادمعى الذى بل التراقى * يصب على مصابى اويصوب *
* اعنى حيث مالى من معين * واعيتنى من الدهر الخطوب *
* واجد نار احزانى ووجدى * تسعر فى الحشا ولها لهيب *
* انادى من فقدت وليس يجدى * نداى بعد ان حان المجيب *
* اغالته المنية وهى غول * والا غاله فى الغيل ذيب *
* وايا كان فالخسران حلق * ومالى غيره ابدا نصيب *
* ستتركنى الامانى دون نفس * تمناها ويصحبنى الشحوب *
* نجوت من المطارد والمعادى * وسيفى فى جماجمهم قضيب *
* فادركنى من المقدور مالا * يداوى منه حذر او طبيب *
* وابت مآب محروم لهيف * يصاب وليس يدرى من يصيب *
* وما ذا تنفع البيض المواضى * وطرف هيكل نهد نجيب *

(ولست)

* ولست بمدرك ثارا عليه * ومثلى من يهسم ولايخيب *
* وماسيرى الى الاوطان وحدى * وعنى بان مونسى الحبيب *
* لئن ضنت عليه الارض يوما * بقبر فهو فى صدرى رحيب *
* وان ترك الحمام قميصه لى * فذاك قميص يوسف لايئوب *
* الا ياثار قلبى الدهر زيدى * لظى فالموت لى خير وطيب *
* فالى بعد فى الدنيا سرور * وما من دونه عيشى يطيب *
* ساقضى ظمء عمرى فى نحيب * عليه وان يدم حزنى النحيب *
* وانى ان اقم ما بين اهلى * فما انا بعده الا غريب *

فلما طلع الصباح رجع فى طلب الاثر وهو جازم بانه اما ان يقتل الببر او يموت لكنه بعد ان تتبعه عدة ساعات غاب عنه فاضطر الى السير ثم فى اليوم الثانى بلغ محلة ابيه واخبره بما جرى قال السائح الذى حكى هذه الحكاية قد اجتمعت بالرئيس صوق وقد بلغه الكبر واشتعل منه الرأس شيبا ولكنه لم يزل ذاكرا لاى خاتم متأسفا عليهما

﴿ نبذة فى الحديد ﴾

اول ما عرف وجود الحديد كان على جبل ايدا فى سنة ١٤٣٢ قبل الميلاد وزعم اليونانيون انهم هم اول من عثروا عليه كما ان اهل فينيقية كانوا اول من عثر على الزجاج والذى فى التوراة ان طوبال قاين هو اول من قان الحديد وصنعة الحديد فى بلاد الانكليز كما هى الآن من ابداع هنرى كورت من غوسپورت وكانوا من قبل سنة ١٧٨٣ يجلبون لوازمهم من المصنوع منه من الخارج ولم تكن طريقة لصنعه سوى تطريقه بالمطارق الضخمة بعد احمائه فى فرن ماعدا ماكان يتبعه من الكلفة والمشقة وكثرة الفحم الى ان نبغ فيهم ذلك الذكى فاعمل فكره الثاقب فى اختراع طريقة تقل بها صعوبة صنعه وتكثر منافعه فاداه التبحر والاجتهاد الى احداث فرن هوائى بواسطة لهيب النار المنبعث من فحم الحجر فصار يحمى به الحديد الخام ويصفيه ثم يجعله سبائك من دون مطرقة ولكن لم يتم له

اتقان هذا العمل الا بعد ان انفق عليه عشرين الف ليرة ويقال ان مقدار المستخرج من معادن الحديد بانكلترة يبلغ في السنة اكثر من ثمانمائة الف طن وانه صنع منه في هذه السنين المتأخرة في اقليم واحد من اقاليمها اكثر مما يصنع منه في السابق في جميع المملكة بضعفين * ثم اقول ان منافع هذا الجوهر الذي يصدق عليه ان يسمى جوهر الجواهر قد ظهرت منافعه على الخصوص في هذا العصر من لدن انشاء سكك الحديد والبواخر واسلاك التلغراف وقد اتجه الان وجه آخر لاستعماله بما تفوق منافعه سائر ما تقدم وهو تغشية البواخر بصفائحه فجميع الجوانب الآن مشحونة بالكلام فيه وكان الخوض فيه مسببا عما شاع عن سفينة جنوب اميركا المسماة بالمريمالك حتى فكر بعض الدول الان في تصفيح جميع سفائنهم وحصونهم به فعن ابتدات بهذا ابتدى انا ايضا بتصفيح دواتي الفخار وقلمي المدار

في الخلل

قال في القاموس الخلل منفرج ما بين الشيئين ومن السحاب مخارج الماء الى ان قال بعد ثمانية اسطر والخلل الوهن في الامر والمتفرق في الراي الخ فكان هذا الخلل خللا اذ كان عليه ان يجمع معانيه كلها في موضع واحد كما فعل الجوهري وفي هذه المادة خلل من عدة وجوه احدها انه اقتصر على ذكر السحاب والماء والمعنى اعم على ان يراده بعد المعنى الاول غير محتاج اليه (والثاني) انه ذكر اولا الاختلال بمعنى اتخاذ الخل ثم بعد ايراده الفاظا كثيرة من غير هذه الصيغة ذكر اختلت الابل ثم بعد عدة اسطر اورد اختله بالرمح اي نفذه وانتظمه ومن الغريب هنا انه صرح في مادة قوت وبان اقتواه اي استخدمه شاذ لان افتعل لازم البتة هذه عبارته فجاء هنا بالاختلال والانتظام شاهدا على غير ما ادعاه دون شذوذ لا بل عندي ان ورود افتعل للمتعدي اكثر من وروده للازم كما يتبين من استقراء كتب اللغة * ومن الغريب ايضا اتفاق هاتين اللفظتين اعني

الاختلال والانتظام فى اثر الرمح واختلافهما فى غيره ثم انه بعد عدة اسطر اعاد ايضا لفظة اختل بقوله اختل اليه احتاج ثم رجع اليها بعد كلام آخر فقال واختل نقص وهزل فهذه لفظة واحدة ذكرها متفرقة مختلفة فى خمسة مواضع (والثالث) انه ابتدا المادة بذكر الخل وشرح منافعه ثم قال بعد سبعة اسطر وماله خل ولاخمر خير ولاشر على ان معنى الخل مجاز عن معنى النفوذ ولذلك يوصف بالحاذق من حذق بمعنى قطع واثر وشرح منافعه ليست من وظيفة اللغوى كما اشار اليه صاحب الكشكول (والرابع) انه ذكر خسل بمعنى خس ولم يذكر خال بمعناه كما ذكره الجوهرى (والخامس) انه ذكر تخللهم اى دخل بينهم والشئ نفذ والمطر خص ثم ذكر خلال اصابعه ولحيته اسال الماء بينهما ثم خل الشئ ثم رجع الى تخلله اى ثقبه ونفذه وهكذا ترى خلل المبانى والمعانى متبينا فى هذه المادة من اولها الى آخرها * وليس مرادنا من ايراد هذه المادة التعرض لتخطئة المرء فى تنسيق التعبير على عادته وانما المراد الانتقال من خلل الالفاظ الى خلل الافعال واول ذلك الخلل فى ترتيب الاسواق وتنظيم احوال المدن فنقول قد جرت العادة فى البلاد المتمدنة بان يكون فى السوق الواحدة كل ما يحتاج اليه اهل الديار المجاورة لهما من المأكول والمشروب والملبوس والمفروش فان ذلك انفع لاهل السوق من جهة الكسب ولاهل الدار من جهة الراحة وعدم الاحتياج الى تكلف المشى فى طلب ما يلزمهم فهذه العادة الحميدة العامة غير مرعية هنا فانك ترى اهل كل حرفة مجتمعين متكتبين فى طريق واحدة ربما قضى المسير اليها باضاعة ساعتين من النهار وبحمل مشاق ستى ومشاهده ان اهل اقسراى مع كون اكثرهم موسرين وديارهم عبارة عن صروح وقصور فلا يجدون فى سوقهم دكان بزاز او وراق ولا من يبيع الخبز الخاص ولا الدجاج ولا لحم البقر والسمك ولا البقول المتخذة للسلطة ولا الخل الطيب مع انه فى المثل الذى ذكره القاموس كناية عن الخير كما ان الخمر

كناية عن الشمر ولا البطاطس ولا الجبن الافرنجي ولا الزبدة ولا السمك المملوح ولا الخردل المدبر ولا الفحم ولا الحطب فاكثر الدكاكين التي فيها انما هي موضع قهوة يليه دكان للدخان ثم دكان دخان يليه موضع قهوة فمن لزمه شئ من تلك اللوازم لزمه ان يتوجه الى غلطة اوالى ناحية البحر وفي ذلك من اضاعة الوقت وتحمل العناء مالايخفى فياليت شعري ما الفائدة من مواضع القهوة التي هي منتاب ذوي البطالة والكسل من الناس فتراهم اليها منصبين وبها كلفين طول النهار نعم انه يوجد في مدن اوربا مواضع للقهوة كثيرة الا ان الناس هنالك يقصدونها لمطالعة الجرنالات والاخبار المفيدة لا للكلام الفارغ فهذا لعمري شرعظيم ينبغي التنبه الى ازالته بان يجعل على كل موضع من هذه المنابات المشؤمة ضريبة رابية تقليلا من عددها فانها قد تجاوزت الحد في الكثرة وحسبك انه يوجد في الساعيانية صف طويل منها ليس فيه شئ من البقول واللحوم اصلا * ثم ان اصحاب هذه الدكاكين لما كان معظمهم من الروم والارمن وكانوا بمنزلة الاطفال في انهم لابد لهم من ان يتولى امورهم رجل رشيد كان لابد لنا من ان نستنهض همة المحتسب الاكرم لان يتولى هذه المصلحة بنفسه ويلزم هؤلاء الباعة بان يكون عند هم جميع لوازم المعيشة فانه من الخلل الذي لايغتفر ان يمشي الانسان ساعة او ساعتين في تحصيل بقلة اورغيف خبز من غلطة اما من جهة الفحم فقد جرت عادة الناس هنا من القديم ان يشتروا منه كفايتهم من عند البحر في وقت معلوم الا ان هذه العادة في نفس الامر فاسدة معنتة اذ ليس كل واحد يقدر على ان يشتري منه كفايته دفعة واحدة وقد يضطر في وقت ما الى شراء قليل منه فكيف يفعل اذا حاقت به الضرورة ليلا وهو لايقدر على الخروج على ان الاكثار من شراء المؤنة من جميع اللوازم لايتهيأ الا لمن كان له بداره انابير ومخازن متعددة فاما من كانت داره صغيرة وكان تحصيل قوته يوميا فمحال عليه الادخار ولاسيما ان فيه

اضرارا بالصحة ولهــذا لايكاد الادخار فى بلاد اوربا ان يكون معروفا لمــا ان الاسعار عندهم فى الغالب قارة ثابته ولان اللوازم ابدا يتيسر تحصيلها فلا يرون فى الاكثار من جمعهــا فائدة ومن العجب انا نسمع فى الفجر بائعا ينادى باقصى حلقه على بيع الذرة المشوية ثم لانسمع بعده مناديا على بيع الحليب اوالدجاج فنحتاج الى انندهب فى طلبهما من مكان سحيق واعجب من ذلك ان اصحاب الجرنالات هنا لاينبهون على هذا الخلل و لايشكون منــه ولايخطر لهم ببــال فتراهم يذكرون سفر زيد من بلد الى قرية وقدوم عمرو من برالى بحر فى الممالك الاجنبية مما لا يعنى احدا من النــاس و يتصامون و يتباكون عن دفع هذا الخلل الذى يقــاسون هم منه كما يقاسى غيرهم اما اصحاب الجرنالات الافرنجية فانهم انما سكتوا عنه لكونهم مقيمين فى حيث يجدون كل ما يرومونه ولو وجدوا ضيرا منه كما نجد نحــن لما اعوزهم مجــال للشكوى منه لان وظيفــة كل ذى جرنال ان يتنبه لاصلاح الخلل المطيف به لا ان ينقل من الاخبار ما لافائدة به البتة وماذلك الاليظهر علمه بما جاء فى جرنال غيره الا ان تلك الجرنالات التى نقل عنهــا ذلك الغث من الاخبار اشتملت ايضا على السمين منها و بعد فقــد كررنا القــول غيرمرة بان عصرنا فى ايام مولانا المعظم دام نصره قد تجــدد حسنا وطيبة فينبغى لنا ان لا نسكت عن ذكرالاسباب المعينة على الاصلاح فى كل مايكون موافقا لارادته السنية وهمته العلية فانه ادام الله عزه يريد ان يكون الاصــلاح فى بلاده شاملا للكلى والجزئى من امورها والحــال ان ترتيب الاسواق وتيسيرالبيع والشراء هو من المصالح الكلية لا الجزئية فالمصلحة الجزئية انما هى وجود مواضع للقهوة بل وجودها على هــذه الصفة التى ذكرناها محض مفسدة لانها صارت باعثة على الكسل والتقاعد عن العمل * ومن الخلل الذى ينبغى اصلاحه ايضا هو انقطاع الســبب فى ايام الاعياد التى يحافظ عليها الباعة فقد يمضى يومان وثلثة من دون معامله البتة هذا وقد راينا اصحاب الجرنالات الافرنجيــة فى بلادهم تنبــه

الناس على كل مايلزم الاعتناء به مع ان الدول هنالك لاتغفل عن مراعاة ذلك وكذا الجماعات المخصوصة بالاصلاح وهنا لانرى مراعاة اوهمة الامن طرف الدولة فقط وجميع الناس غافلون لاهون لايعنيهم شئ فكانهم يرومون من الدولة ان تكون لهم مقام الام للطفل الرضيع فما يهمهم شئ سوى ان يكونوا راضعين من درها مرتوين من خيرها فكل من امسك بيده قلما او اشق اوقدوما اتخذه وسيلة للكسب منها فلاى شئ هذا العجز من الرعية ولاى سبب هذه الوكالة ولم لايكونون عضدا لها على جميع ماتقصده من الاتقان والاتمام فهل من هم الدولة ان تأمر باعة المأكولات بان يبيعوا البصل والزيتون الاخضر فان كانوا بعد اطفالا فلتستأجر لهم مراضع يرضعنهم من ذى انف وان كانوا رجالا فعليهم ان ينفعوا الرجال لاسيما انهم أكثر الناس ربحا واذا كانت الدولة العلية قد تساهلت معهم فى ان يستقلوا بهذه الحرفة فان جميع البقالين هم من الروم فلم لايعرفون قدر هذه المساهلة فيساهلون غيرهم من الرعية فمن ذا الذى يدلهم على الرشد والصواب غير اصحاب الجرنالات فدعونا يااهل الاقلام ويااولى الاحلام من سفاسف الحوادث الاجنبية وسقط الكلام فانها ذهبت ببصرنا واجحفت من عمرنا وعليكم بازالة الخلل الذى اثقل بصرنا ونغص علينا وطرنا فهذا الذى يلزمكم الاهتمام به بادى بدء فان البارى تعالى لم يفضل بعض الناس على بعض فى المقام والمعارف الا ليصلحوا المختل و ينفوا المعتل وكذلك المأمول من جمعية الفنون المكرمة ان تبلغ مسامعنا شيأ من هذا فان كلامها مقبول لدى الناس جميعا فاذا كررت التنبيه على اهمية هذا الاصلاح فلانامت ان نفوز بمنا الانب ومن الله النجاح

﴿ نبذة فى القمر ﴾

سعة قطر القمر ١٥٧ر٢ ميلا وبعده عن الارض ٠٠٠ر٢٤٠ ميل ونوره اقل من نور الشمس بنحو ٨٠١٠٧٢ مرة وهو يدور حول الارض فى كل تسعة وعشرين يوما ونصف يوم مرة واحدة وذلك عبارة عن ٢٣٧

ميلا في كل ساعة ومتى كان موقعه بين الشمس والارض اختفى عنا ومتى قابل الشمس صار بدرا فيكون طلوعه عند غروبها وغروبه عند طلوعها وثقل الهيولى الموجودة فيه هو بمناسبة جزء واحد من تسعين جزءا من اجزاء الارض او اكثر بشئ ما فاذا كانت اجزاء الارض مثلا مليونا على التساوى كان جرم القمر مساويا منها لاحد عشر الفا وثلثمائة وتسعة وتسعين جزءا قالوا وليس للقمر جو ولا سحاب ولا ماء اما الماء فلانه لو كان موجودا فيه لكان من شانه ان يتولد عنه بخار او سحاب ولو كان فيه شى من هذين لكنا نشعر به من اختلاف النور والظل اللذين يتكونان عنه بالضرورة واذا ثبت الدليل على عدم وجود الجو والماء فيه قلت الجدوى من دعوى من يدعى بانه مسكون بخلائق امثال الخلائق الارضية ويؤيد الدعوى بعدم وجود الماء فيه انا لانرى فيه ما نرى من منظر الماء الدائم الحركة وعلى فرض ان له جوا وليس له ماء فلا يكون ذا سحاب ولا صالحا لان ينعكس النور * ثم انه ليس لنور القمر خاصية محرقة فان بعض الطبائعيين قد جمعه في مرآة مجوفة فلم يرله فيها تأثيرا ولو كان ما جمعه من نور الشمس قدر ما جمعه من ذلك لاحدث فيها تأثيرا بليغا الا انه اذا ثبت ان نور القمر غير محرق فليس من الصواب ان يقال انه بارد اذ لا يوثر شيا في ميزان الهواء لاحرارة ولا رطوبة وقد لحظ فيه مواضع نور ومواضع ظل لا تتغير ابدا وحين يكون هلالا وينظر منه بالمنظار ذلك الحاجز المقعب الذى فيه وهو الذى ينتهى اليه النور ويبتدى منه الظلام يرى في هذا التقعب امت وتفاوت وهو من الادلة على ان فيه ارتفاعا وانخفاضا اذ لو كانت صفحته كلها محدبة متساوية الانبساط لم يرفيه مثل هذا التفاوت وحاصل الدليل ان فيه جبالا واودية وذلك لاينفى كون جرمه كرويا وقد اصطلحوا على تسمية هذه الجبال باسماء مخصوصة منها غلاويوس دورته اثنا عشر الف ميل مربع ومنها بتوليماوس دورته ستة آلاف ميل مربع ايضا وطيخوس وهو لكبره يرى في القمر اذا كان

تما من دون منظار وقد كان بعض المتقدمين من مشاهدتهم فيه ندحا ذات لون ترابي يتوهمونها بحورا فسموها ايضا باسماء معينة غير انه بعد اتقان المناظير الكبيرة وجدت انها كسائر المواضع من صفحته في الارتفاع والانخفاض فجزموا بانها ليست مياها وانما هي تخالف سائر البقاع في كثرة وجود الجبال بها واكثر المواضع بياضا هي الجبال التي تفوق غيرها في المقدار والارتفاع وعلوها بالنسبة الى مقدار جرم القمر اعلى من جبال الدنيا وزعم هرشل ان في القمر جبالا تشبه جبال النار *

ثم ان الذى عليه اراء الناس قديما وحديثا ان للقمر تأثيرا في الهواء من حيث الصحو والنوء وذلك عند صيرورته هلالا غالبا فانهم يزعمون انه اذا كان قبله صحو يعقبه نوء وبالعكس وكذا عند تنقله في كل ربع من ارباعه غير ان المحققين من المتأخرين استقروا هذه القضية بغاية التدقيق والتحرى فاتضح لهم ان هذا التأثير ليس صحيحا على اطلاقه ولكن هناك بعض مناسبة بين احوال القمر والمطر مثلا بالنظر الى موقعه من الشمس لا بالنظر الى مطلق التأثير فعلى هذا فيكون هذا التناسب مشتركا بين كل من الشمس والقمر ثم بناء على الزعم الاول نسبوا اليه ايضا التأثير في جريان الماء في النامى وفي نمو الشجر وقطعها حيث قالوا ان القمر اذا احمر في اواسط نيسان وسلخ تموز فانه يكون مؤثرا في النبات فانه اذا صحا الجو وقتئذ واصاب النبات نور القمر احمر وذوى كما لو اصابه الصقيع فاذا تخلل الجو سحاب يمنع نوره اندفع الاذى وكذلك زعموا انه يؤثر في قطع الخشب ولذلك لا يقطعونه الا عند نقصانه لانه اذا قطع عند الزيادة ينخر ويبلى وهذا الزعم قد بلغ من الشهرة والانتشار بحيث انه بنى عليه حكم من احكام دولة فرنسا من جهة الشجر وعليه مشت الانكليز الا ان الدكطور دهمال الفرنساوى اثبت بالتجربة ان قطع الخشب في حالتي الزيادة والنقصان على حد سوى * ثم زعموا ايضا ان نور القمر يؤثر في سحنة الانسان وهو ايضا مظنة للانكار وان كان لا ينكر ان للنور تأثيرا

فى الاجرام المادية بدليـل تقصير الثيـاب وهى معرضة الشمس وتبيت الثبات فى موضع لايصيبه نورها فان الوانها ح تأتى مخالفة لمايبرز منهـا فى نحو مضحاة غيران الطبائعيين وضعوا فى نور الشمس هذا المـائع الابيض المتخذ من الفضة ويقال له كلورين فاسود وعرضوه ايضـا لنور القمر فلم يؤثر فيه شيا فاستدلوا من ذلك على عدم تأثيره ايضا فى المهنة وزعم الجزاريون ان القمر يؤثر فى عظم الحيوان فانهم وجدوا النخـاع فيه على انواع مختلفة وهو ايضا وهم وزعم بعض انه يؤثر فى بحار البحر فانهم توهموها فى مدة زيادته اكبر منها فى مدة نقصـانه وليس زعمهم بشئ وزعم آخرون ان ولادة الاطفال ونتاج الحيوان تكون فى مدة النقصـان اكثر وقد علم بالتجربة والاستقراء ان ذلك غير صحيح * فاما تأثيره فى الامراض فان الزعم به متمكن فى خواطر الخاصة فضـلا عن العـامة وحسبك ان بقراط مع جلالة قدره كان يقول ان الطبيب الذى لايعرف علم النجوم لا يعتمد عليه فانه يلزمه ان يتحرى اصلح الاوقات لاعطاء الدواء وكـذا قال غاليناوس من بعده وكانا يزعمان ان بحران المريض يأتى فى اليوم السـابع والرابع عشر والحـادى والعشرين وهى الايام التى ينتقل فيها القمر من حال الى حال بل جعلا ايضا جسم الانسان بمنزلة عالم صغير فنزلا القلب فيه منزلة الشمس فى الافلاك والدماغ منزلة القمر وكذلك نسبا للكواكب تأثيرات فى الاعضاء فزعما ان المشترى يتولى الرئة والمريخ يتولى الكبـد وزحل يتولى المرة والزهرة تتـولى الكليتين وعطـارد يتولى آلات التناسل وهـلم جرا وهذه الاوهام وان تكن قد تقلصت الا ان تأثير القمر فى المريض لم يزل مذهبـا لكثير من حـذاق الاطباء الى يومنا هذا *

مقالة فى اصل النيل

قد راينا فى جرنالات الانكليز كلاما طويلا فى النيل متشبك الاوصـال والاطراف متشجن الفواصل والاوصـاف فآثرنا هنا ان نلخص نبذة من

المفيد منه ونطرح الباقى وهذا الانتقاء من خطابين القاهما القبطان سبيك الذى اليه نسب هذا الكشف بمحضر جمعية الجغرافيا بلندره * مما قاله فى الخطاب الاول ان اصل النيل من بحيرة يقال لها بحيرة نيانزا وهى فى ثلاث درجات من الطول جهة الجنوب وان النيل يجرى مسافة ثلثة الاف وخمسمائة ميل جغرافى وهو عبارة عن جزء واحد من عشرة اجزاء من دورة الارض وكان اطلاعه على البحيرة فى سنة ١٨٥٨ قال وهى بحيرة كبيرة واسعة عذبة الماء وموقعها بالنسبة الى البحر على ارتفاع ٥٠٠ ر٣ قدم فلما رايتها وقع فى خلدى انها اصل النيل وقوى عندى هذا الرأى بما سمعته من سكان تلك البلاد من انها اصل لنهر كبير ومن جملة من افادنى ذلك تاجر من العرب يقصد تلك الجهات فى طلب العاج لكنى رجعت الى لندرة من دون تحقيق ذلك فوجدت الناس حراصا على معرفته متاسفين على ما فاتنى منها فسافرت مع صاحبى القبطان غرانت فى سنة ١٨٦١ الى اونى انيمو وهى على خمس درجات من جنوب البحيرة واول ماوقع نظرنا عليها كان من بلد ماسوند فى مملكة اوغاندة على جهة البحيره الغربية واعظم ماتاتيها الزيادة والمادة المتصلة انما هو من جهة كاراغوى الغربية الشمالية بواسطة نهر يسمى قيطنغول وهنالك بحيرات اخرى كثيرة ولكنها لاتذكر بالنسبة اليها وجميعها تستمد من مياه جبال القمر حيث تكثر الامطار وتتوالى فى اكثر ايام السنة ثم تقدمنا فى السير جهة الشمال على شط وادى قاطنقا الواقعة على الخط المستقيم فاما الارض التى فى اعلى جهة البحيرة فهى غاية الريع والنضارة وبها الاشجار الكثيرة الباسقة والمروج الانيقة الرائقة ثم تجاوزنا الخط المستقيم فوصلنا الى بلاد مورنغو فنظرنا ترعة تجرى الى الشمال خارجة من البحيرة ومتصلة بالنيل فى مملكة اونيورو ثم وجدنا اخرى فى لواجرى ثم تقدمنا الى الشمال ايضا فراينا عند وسط شط البحيرة الشمالى مصدر النيل وهو يسقط على صخور وجنادل عظيمة

على علو اثنى عشرة قدما وحيث ان السفر فى تلك الاقطار لايخلو من الاخطار لم نقدر على تتبع مصدر المياه من البحيرة فى الجهة الشمالية الامقدار عشرين ميلا على شمال الخط المستقيم لكننا راينا النيل متصلا بنهرين يقال لاحدهما كافو وللثانى اسوى والاول هو المذكور فى انيوورو ومن ثم يعبر الى لواجرى وهو نصف المسافة ما بين مصدره من البحيرة وما بين متصله وزيادته فى انيوورو من مادة كافو ولواجرى وهو صالح للسفر من هنالك الى سلالات الخرطوم ثم راينا ايضا فى مملكة مادى نهرا سريع الجرية صادرا عن تلك البحيرة وعن نهر اسوى فايقنا انه هو النيل بعينه ثم رأينا ايضا متصلابه النهر المسمى بحر الغزال وهو اشبه بحيرة اذ لاجرية له ثم نهر الغزافى وهو قدر ثلث النيل فى كبره ولم نعلم له اصلا ثم نهر صوبات على الجنوب وهو ايضا صالح للسفر اما اهل تلك البلاد فانهم اصحاب فطنة وفهم لكنهم يستخونون البيض لسبب التجار الذين يأتون بلادهم منهم فى طلب العبيد والغالب عليهم طول القامة والضلاعة وانوفهم مستقيمة وشعورهم مجعدة ولايعتقدون بالنفس ولايتدينون بشئ من الاديان واحسنهم اخلاقا اهل كاراغوى ولاتزال الحروب قائمة مستحرة بين ملوكهم *

واقول ان حاصل مارواه القبطان سيك المومااليه هو ان بحيرة نيانزا هى اصل النيل وانهاهى وغيرها تستمد مياهها من جبال القمر وهذا هو الذى ذكره المورخون الاقدمون من العرب فانهم صرحوا بان اصل النيل من تلك الجبال وان لم يذكروا اسم البحيرة ويقال انه تصدت اليوم جماعة من الانكليز للكشف عن اصل البحيرة*

ومما قاله فى الخطاب الثانى

انى فى سنة ١٨٥٨ لما شاهدت البحيرة التى يقال لها بحرة نيانزا خطر ببالى انها لابد وان تكون اصلا للنيل فاما قبيلة واهوما وغيرهما من القبائل القاطنين على شطوط هذه البحيرة فاصلهم من الحبشة وهذا

الرأى يؤيده ما ثبت فى اعتقادهم من انهم جاؤوا فى الاصل من الشمال اما اصل الحبش فمن ذرية سام وحام فلما تغلبت بعض الطوائف الغازية على الحبش فى الزمن المتقادم رحلوا الى مملكة قطارة واستوطنوا فيها ثم انقسمت هذه الممالك بسبب الحروب المتواصلة الى عدة ممالك صغيرة وزعم بعض شيوخ تلك البلاد ان اهل قطارة فى الزمن المتقدم كان نصفهم ابيض والنصف الثانى اسود وان شق رؤسهم الواحد كان ذا شعر جعد والشق الثانى ذو شعر مسترسل وعلى جهة البحيرة الخصيبة موقع مملكة غاندة وهى احسن جميع البلاد حكومة واحوالا ولكل من آل ملكها ازواج كثيرة واولاد كثيرون ومن عادتهم عند موت ملكهم ان يحرقوا جميع بنيه الابكره وولى عهده واثنين ايضا من اخوته مخافة ان احدا يسمه اويغتاله قبل المبايعة فاذا بويع له نفوا احدهما وابقوا الثانى محصورا وان يعاقبوا على اللباس اذا كان غير مزرر وعلى تجسد التهمة وليس لاحد ان يقوم امام الملك اويمسه فاذا مسه اونظر الى حريمه قتل حالا ويعتقدون بالسحر والعين ولايكاد الملك يرى الاوهو محفوف بعدة من النساء على رؤوسهن شبه اكاليل من الوزغ الميت لدفع اصابة العين وبايديهن اقداح من نوع من الشراب واكثر ملوك تلك الاقطار تأدبا وتمدنا ملك غراغوى اقمت عنده قبل دخولى اوغاندة عدة ايام فرايت منه من حسن الاخلاق والملاطفة مايؤهله لان يعد من ملوك اوربا او امرائها وقد اكتسب كثيرا من هذه الخلال المحمودة من تاجر هندى اسمه موسى المزورى وهو الذى اعانه برأيه وتدبيره على قهر اخيه وكان مجاهرا بالعداوة له فحل عنده من بعد ذلك بالمحل الاعلى قال ولما علم انى عازم على السفر الى جهة الشمال ارسل وافدا الى ملك اوغاندة يخبره بقدومى عليه ثم اخبرنى بانه سمع بان جماعة من البيض قصدوا تلك الجهة وقتلوا كثيرا من السكان ببندقية مسحورة ثم ارسل معى من يخفرنى فودعته وانصرفت فارسل ملك اوغاندة شرذمة

من العسكر الملاقاتى فسرت معهم فى ارض خصيبة فلما وصلت الى مقره وهو عبارة عن مضرب خيام اردت ان اقدم له هدايا فقيل لى انه لاينظر اليها الا اذا كانت مغطاة فغطيتها بقماش رفيع وارسلتها اليه ثم قيل لى انه يلزمنى ان اقعد على الارض وانتظر فقلت انى امير وليس من عادتى الجلوس على الارض ولا الانتظار فسمعنى واحد من حجأ الملك فتعوذ بالله وتشاءم مما سمع ثم نظروا الى ظلتى (شمسية) فظنوا انها آلة حرب فخافوا منها ثم دخلت على الملك وحوله نساء الوزغ فنظر الىّ طويلا وهو ساكت الى ان قال هل رايتنى ثم قام ودخل خيمة اخرى فجرى لى فيها ماجرى فى الاولى الى ان دخلت عليه ثم انتقل الى اخرى فتبعته ايضا وقلت له ان عادة الملوك فى بلادنا وانا احدهم ان يهادوا امثالهم بما يليق بهم فانا اهديك ما لدى من البنادق والساعات والبارود فقبلها منى ولما انصرفت من عنده اوصل الىّ هدايا غنية

فى البلون

قال فى كازتة البال مال ان استعمال البلون فى مدة الحرب مما شغل خواطر الالباء من قبل الآن وفى حصار باريس رتب منه اثنان على جانبى السين تحت ادارة الرئيس نادر ومساونه غدارد وآخر فى جهة اخرى تحت ادارة داتوا ودرتوف ويقال ان الرصاصة اذ خرقت واحدا منها لم يعدم فى الحال منفعته كما جرى على البلون الذى اصعد فى سنة ١٧٩٣ فانه دخل فيه تسع رصاصات وبقى نحو ثلثة ارباع الساعة ذا نفع وانما خطره اذا انفلق من رصاصة حامية وادارة هذه البلونات فيما قيل تكون بقوة كهربائية وقد يستفاد من البلون الذى يصعد من قصر الزجاج (كريستال بالس) الذى يغنى ماحوله فوائد عظيمة لاتقان بلونات باريس

وقال مكاتب التيمس من طورس انى ابلغك عن سفر البلون المسمى درتوف خبرا غريبا فاقول انه صعد فى الساعة الثامنة من هذا الصباح

المسفر عن نهار الثالث والعشرين من سبتمبر من موضع يقال له پلاس صان پير فى مونتمارتر محلة بباريس فوصل سالما الى مزرعة بالقرب من ايفرو ولما ان صعد كانت الريح باردة من الشرق فحلق مقدار ثلثة آلاف ميتر وهى عبارة عن مسافة ميلين انكليزيين وذهبت به الريح اولا جهة ارك دوترا نيف فابصره البروسيويون فنظر اليهم مديره بالنظارة فرآهم مستعدين لرميه بالرصاص فما كاد يجاوز دائرة الاستحكام الا وقد سمع اصوات المدافع وعلم انها اخرجت من عجلاتها واطلقت عليه صعدا لكن رصاصها لم يصل اليه ولا الى مقعده وزعم بعض انه دنا منه حتى جعله يدخن ثم رآهم ايضا يطلقون البناق وكلها اخطأه وبقوا يرمونه هكذا حتى وصل الى مانت ورأى سحبا من الدخان قد غطت وجه الارض من تحته وسمع اصوات بنادق فوقع فى خاطره انه حدث قتال حول مونت فاليرين وفى جوار وادى السين فانه ابصر البروسيويين على سبعة صفوف ومعهم فريق من الخيالة حتى اذا بعد عن المدينة وتحقق انه سلم من الخطر نزل فى غيضة بالقرب من ايفرو ثم جاء الى طورس وكان معه توكيل رسمى من ناظر البوسطة ومعه ثلثة اكياس كبيرة فيها محررات زنتها مائة وخمسة وعشرون كيلو غرام بعض هذه المحررات من وزير الحرب وبعضها من ارباب الحكومة وكان مامورا بان لا يسلمها الا الى بريفه او جنرال والا فيحرقها ولما ان عرف مجيئه كثر عليه السائلون عن احوال باريس وعلم من احدى تلك الرسائل ان هذا البريد الهوآى سياتى من باريس فى كل اسبوع الا ان البروسيويين الآن فى شغل شاغل لمنع هذه المواصلة وهيهات ان يظفروا بأربهم الا ان يتخذوا بلونا يصعد فيه رجال متسلحون بالبنادق المسدسة فاذا راوا بلونا للفرنسيس طاردوه ورموه ولايبعد عندى انهم يفعلون ذلك ثم ان موسيو درنوف هو شاب بلغ من العمر تسعا وعشرين سنة وهو من حرس باريس الاهلى و فى عزمه ان يرجع فى الوجه الذى جاء

منه وهو لايخلو من الخطر

﴿ قصة السائح ﴾

قد سمعنا بقدوم رجل من الافاضل كان سائحا في البلاد الافريقية وبانه ذو فصاحة وبلاغة غريبة لكنه يتكلم بنوع من الرموز والكنايات ثم اتفق لنا لقاؤه بالقرب من المنزل الذي يسكنه فدعانا اليه فلبينا دعوته فلما دخلنا حجرته رأينا على حيطانها اوراقا فيها صور طيور مختلفة الانواع والاشكال فكان منها الرخ مجللا بغشاء ثم النسر والصقر والباز والحدأة والزمج وغيرها الى القبرة فهنأناه بالسلامة ودعونا له ثم سألناه عمارأى في سياحته من غرائب الآثار واختلاف الاوطار فقال قد رأيت طيورا كثيرة على مقدار ما ترون في هذه الحجرة حتى انتهيت الى القبرة قلنا انما نسألك عن البلاد والناس لا عن الطيور قال هي عندي كناية عن البلاد والناس وانما الفرق بينهما من جهة وهوان البلاد اذا تغيرت من حالة الى اخرى يبقى اسمها القديم علما عليها بخلاف الطيور فان نسرها اذا صار قبرة يزول عنه اسمه الاول فلايقال له بعد ذلك نسر بل قبرة الاترى ان الجزائر في الزمن القديم كانت نسرا ينسر بحرا وبرا فكانت فرائص الناس ترتعد من سطوتها وعزها فا لت حالها بسبب عدم تدبير من كان يتولى امرها الى هذه الحالة من الخضوع والذل فاشبهت القبرة في خوفها وتصاغرها ولكن بقي اسمها القديم عليها ثم يليها تونس فقد كانت عقابا كاسرا او صقرا صاقرا يقصدها الناس لينالوا منها خيرا وعزا وغنى وكنزا فتقبرت اى صارت قبرة مقصوصة الجناح مهشمة الرجلين منتوفة الذنابى مضغوطة الراس منقورة المنقار لم يبق فيها شئ سالما الا الحوصلة قلنا قد بلغنا ان الهرج الذي وقع فيها قدزال بحمدالله تعالى رأسا فصارت بخير قال نعم بالخير الذي يتمناه لها النسر فان ذنابا ها بعد ان نتفتهم الفتنة ورزأتهم المحنة محنة زيادة الضريبة على ماذاع وشاع وملاء الاسماع اصبحوا الآن هملا وقد خابوا املا واحبطوا عملا

قلنا معاذالله واميرهم لم يزل نافذ الكلمة وافر النعمة قال ثم ان لها راسا لكنه مضغوط بباطرا عليه من المكاره فانه اقام نفسه مقام جميع الاعضآء بعد ان قص جناحاه فاصبح كما راحت له الاعدآء ورأى بالرجلين وهنا عن السير وتقاعدا عن درء الضير فصار اذا رام امرا اوامرءا يقول للمنقار على بهذا اجعله لك اخاذا فيقول له المنقار لوحضر بين يدى لنقرته وانفذت فيه امرك وقهرته لكن جناحنا مقصوص فلا نستطيع النهوض من مكاننا ومن اين لنا من ياتينا بالشئ المروم من اين لنا فتمعصت من هذا الكلام لانى شممت منه رائحة التهكم والاستهزآء وليس ذلك من دابى فلهذا اردت الخروج فقال لى السائح الى اين قلت انى اقول لك الحق انى لا احب المعمى وانى فى عمرى كله قصدت ان الغز فى العنب فلم يتيسر لى فيه الا ثلث فقرات فقلت ماشئ اوله فى الراس ووسطه فى اليم واخره فى الفراش ثم ارتج على ولم ازل منذ ذلك الوقت اكره الالغاز ولقد كفانى ماسمعته منك من النسر والقبرة فلا حاجة لى بالمزيد فارجو منك السماح فانى مشغول قال اراك كانك غضبت قلت لا وما مبلغ غضبى عندك لكنى لا اريد ان اعمل بخلاف ماهو فى ضميرى وبصيرتى وانى قد وطنت نفسى على ان لااسمع قدحا فى بلاد المسلمين وانت اراك من اهل الفضل والمعارف فلم يكن من اللائق بمقامك ان تستعمل هذه الكنايات فقال حياك الله اتظن انى قلت ماقلت عن احتقار وازدرآء قلت الله اعلم بالسرائر وانما الذنابى والرجلان والمنقار تترجم عن ذلك قال لا والله وان فى قلبى لحسرة مما اقول ثم تاوه طويلا وجاشت نفسه وسكت وهو ينظر الى القبرة فظننت انه يريد اعادة ذكرها فتحركت للقيام فقال الست انت صاحب الجوائب قلت بلى قال اما يسرك ان تسمع عن تونس شيئا ثم اخرج بعض نسخ من الجوائب من جيبه قلت نعم ولكن بكلام صريح بين على وجه الانصاف والحق قال اقعد اذا لاتلو عليك من اخبارها مالا تنكره وهو انى قصدت هذه المدينة فى سياحتى منذ ثلث سنين فرايتها

على غاية من الترتيب والنظام فان امورها الشرعية كانت موكولة الى محاكم القضاة القائمين باجرآء احكام الله وامورها السياسية والعرفية كانت موكولة الى مجالس مؤلفة من اهل الفضل والحزم والعزم فكانوا يامرون وينهون بمقتضى مسوغات السياسة ولم يكن على الامير الا تنفيذ مايامرون به قلت عندى علم ذلك وماهو بخبر جديد لاستغربه قال وانا اعلم ايضا انك تعلمه غير ان الكلام يرتبط بعضه ببعض وهذا القول جعلته من قبيل المقدمة لماسياتى ثم انى حمدت الله تعالى على ماشاهدت فى تونس من هذا التسديد وسافرت منها وانا اقول نعم مارايت نعم ماسمعت فوصلت الى الجزائر فشاهدت فيها من تلك المجالس ماشاهدت فى تونس فلا فرق بينهما الا فى كون الحق فى تونس يجريه اناس مسلمون والحق فى الجزائر يجريه اناس من النصارى فقلت فى نفسى ان الحق واحد وان اختلف العاملون به الا ان ارباب الحكومة فى الجزائر يرتابون من الغريب وفى تونس لاارتياب من احد ثم سافرت منها الى بعض بلاد السودان فرايتهم كالهمج لا مجالس عندهم ولادواوين فانكرت ذلك منهم اولا غير انى فكرت من بعد ذلك فى امرهم فهان على الخطب فان السودان كما هو معلوم لدى الجميع ليسوا مختلطين باصحاب هذه البراطل الذاهبة فى الهوآء فهم لايحتاجون الى سياسة واحكام الا ماكتب فى الشرع الشريف وما استنبط منه واذا حكم اميرهم اوقاضيهم بامر فلايعارضه فيه احد اذ ليس ثم من قناصل ولا سفرآء للدول الاجنبية بل هم لم يسمعوا قط بذكر دولة الا دولة الاسلام وانما يسمعون بوجود اقوام يصنعون السلاح والقماش ولكن لايخطر ببالهم انهم دولة اوان عندهم كتبا مطبوعة اوشرعا واحكاما ومن يكن على هذه الحالة فلا حاجة له الى المجالس وانما يحتاج الى جلد يقعد عليه فى النهار وحصير يبيت عليه فى الليل ومع ذلك فانى لم ار فى بلاد هولآء الهمج من المعاصى والشرور والمنكرات مارايته فى بلاد الكيسى المتظرفين الذين يسهرون الليالى الطويلة على ذكر ما

تصنعه الدول والامرآء والوزرآء ولاشك ان التمدن كما انه من جهة يزيد
فى عز البلاد وخيرها وضبطتها كذلك كان من جهة اخرى يزيد فى
اسرافها وشهوات اهلها وشرورهم الاترى الى اصحاب الملاهى
والملاعب والمراقص مثلا اذا سافروا الى بلاد خلت عن هذه المواضع
قالوا انها بلاد غير متمدنة ومن اجل هذا اى من اجل ان الشرجاآء على
عقب التمدن صار الناس يحملون تكاليف شاقة مبرحة من المأكول
والمشروب والملبوس والمفروش فصار عندهم ذلك كله ضربة لازب
بخلاف السودان وغيرهم ممن بقى على الفطرة الاصلية فانهم يكتفون
بادنى الاشياء ولذلك كانوا اقل الناس حسدا بل ربما يقال انهم اطول
خلق الله اعمارا لان الحسد يذيب الجسد واجل اسبابه التوسع فى النفقات
والتمادى فى الشهوات

قال والحاصل انى وزنت فى كفة افكارى كلا من حالتى التمدن
والهمجيه فوجدتهما متوازنتين متعادلتين وان صاحب كل منهما
غير خال من الهم اما صاحب التمدن فلانه لما ذاق من طعم التنعم
والترفه ما ذاق فهو ابدا فى طلب المزيد وهمومه كثيرة على كثرة
ما عنده من الحاجات والامتعة والآلات فهو لايزال يفكر فى الاسباب
الحافظة لها وربما احوج الى اتخاذ اسباب ثانية لحفظ الاسباب الاولى
وهكذا حتى تتسلسل همومه الى ما لانهاية له ثم هو كلما سمع باستحداث
شئ ود لو انه يكون اول من حازه ليفتخر به بين اقرانه ويالها من عيشة
منغصة واما صاحب الهمجية فانه كلما احتاج الى شئ تحسر على فقده
الا ان طبعه فى الغالب يألف بعض اشياء معدودة محصورة فلايتعداها
الا ان يوسوس له بعض المتمدنين بانه غير حاصل على شئ من الدنيا
وانه يلزمه ان ينشغل باله بامورها ويسعى فى طلب نعيمها ولذاتها حتى
يتميز عن البهائم ويشار اليه بين ذويه بالبنان فيكون قدوة لهم فان
استمع له كان بمنزلة الغراب الذى حاول ان يمشى مشية الحجل وانتهى

به الطمع مع عدم التدرب عليه الى اسوأحالة وان بقى على خموله الاصلى ولم يمد يده الى ما هو ابعد من ان يناله فذلك عندى بمنزلة المتمدن هذا ولقد تعجبت جدا من اولئك المتمدنين الذين مع اعتقادهم بان التمدن نصب وعناء وانهم ليسوا اسعد حالا من غيرهم فاول ما يضعون اقدامهم فى ارض غريبة يأخذون فى الحض على الاكثار من الحاجيات والامتعة وان بلادهم هى قدوة فى ذلك فيرى فيها لكل حركة من الحركات البشرية آلة اوسبب وواسطة فكنت عند سماعى لهذا الامر اقول فى نفسى ياترى ما الذى احوج هذا الفيلسوف المتمدن الى مفارقة وطنه ومباينة سكنه فان كان مراده حمل الناس كلهم على تعلم الصنائع والفنون حتى يصيروا متمدنين كاهل بلاده فان اهل مملكتين مثلا اذا تساووا فى العلوم والهمم والتدبير والاحتراف استغنى احدهم عن صاحبه بخلاف ما اذا كان احدهما فاضلا والآخر مفضولا فان المفضول لابد وان يحتاج الى الفاضل فلهذا ليس التكافو فى التمدن بمصلحة عمومية كما انه ليس من مصلحة الدولة اى دولة كانت ان تكون جميع رعاياها فلاسفة متمدنين بارعين فى جميع العلوم والصنائع لانها حينئذ تخشى من سطوتهم وبأسهم فمن ثم ظهر لى ان بين نية الدول والحائين على التمدن وبين اقوالهم مغايرة وخلافا وكيفما كان فانى فى مدة اقامتى لدى السودان الهمج لم يخطر ببالى قط ان انخسهم بمناخس التمدن فاقول لهم مثلا انى قد رايت فى بلاد غيركم ما لم اره فى بلادكم او انكم لم تصلوا بعد الى درجة الانسانية بل كان من همى واجتهادى ان اسعى فى التوفيق ما بينهم فانى يا ابا الجوائب مثلك شديد الغيرة على جمع شمل المسلمين والتاليف فيما بينهم على المودة والمصافاة حتى يكونوا كلهم على رأى واحد هذا غاية ما اروم لكنى كنت افكر بعد ذلك فى ان هذا الامر فى حيز المحال اذلو شاء الله سبحانه وتعالى لهم ذلك لما فرقهم فى مغرب الارض ومشرقها وشمالها وجنوبها

بل كان يجعلهم فى بلاد واحدة كاحدى امم النصارى ثم كنت افكر
ايضا فى ان الاسلام نور وان المسلمين المتفرقين من مركز هذا النور هم
بمنزلة الشعاع المتفرق عن الشمس فلوكان الشعاع محصورا فى جهة
واحدة لما استنارت الارض كلها فكان هذا الفكر الثانى يويد عزمى
الاول ولقد طالما تحدثت بجمع الشمل مع اهل المعارف من السودان
فلم ينكروه على انكارا مطلقا وانما راوه بمنزلة شئ حادث فى الاسلام
على ان الدين والطبع ينديان اليه لان المسلمين اذا كانوا كلهم على راى
واحد من جهة اعزاز دينهم واحترام حقوقهم بقطع النظر عن جزئيات
السياسة ثبتت سطوتهم وخشيتهم عند جميع معاديهم وقد قال الشاعر
فى هذا المعنى *

* لن تكسر العيدان مجموعة * وانما تكسر اذ تفرد *
* كذلك الناس اذا لم تكن * آراؤهم مجمعة بددوا *

ثم انه مهما يكن المسلمون قد تفرقوا وتباعدوا فى البلاد وافترقوا
فى الاطوار والاحوال فان الله عزوجل لم يزل جامعا اياهم على التوحيد
ولم يبرح لطيفا بهم برا محسنا ولايزال مؤيدا لهم وناصرا وله فيهم
اسرار خفية لاتدركها العقول انظر مثلا الى ماهو واقع بين جميع
الدول غير الاسلامية من التغابن والتضاغن والتعادى والتشاحن فكل
منها تتربص بالاخرى سوء المنقلب فهذه المشاحنات بينهم رحمة للمسلمين
لوكانوا يعقلون وهو مما يحثهم على التعاون والتناصر والتآلف والتآزر
ثم انظر الى حرب اميريكا التى قد مضى عليها اربعة اعوام ونارها
فى مزيد احتدام واضطرام والناس لم يدركوا بعد سرها فمن قائل
انها تسببت عن اسر العبيد ومن قائل ان احد فريقى الاميريكانيين
يحب الاستعلاء والسيادة على الفريق الآخر او ان احدهما يوثر
الانفصال عن صاحبه استبدادا باموره ومن قائل ان بعض الاعداء
اوقعهم فى هذه الفتنة لما حسدهم على ماوصلوا اليه من العز والفخر

فمن ثم زحرح بعض عبدان عصبيتهم عن حرمة الاتحاد والتالف فآلت حالهم الى هذا الشقآء وكل منهم قد طاش عن الغرض فان حرب اميركا لم يكن لها سبب سوى تحرير اولائك العبيد الذين جلبوهم من افريقية فقد امهلهم البارى تعالى كما هو شانه جل سلطانه كل هذه المدة حتى انفذ فيهم امره اخيرا عبرة لمن يعتبر افليس هذا برهانا قاطعا على انه تعالى لم يزل مريدا تايبد الاسلام وتشييد اركانه وان له اسرارا محجوبة عنا كما قال الشاعر *

* هذا دليل على ان الا له له * فى الخلق سر خفى ليس ينكشف *

قال ويعلم الله انى كلما كنت ارى اثنين من المسلمين يتخاصمان اتحسر واقول فى نفسى ان الله تعالى قد جمعنا على التوحيد فى لايمان فالنا لانجتمع على التوحيد فى الاعمال والآرآء ولاى سبب هذه المشاجرة مابين مؤمنين ينظران الى هذه الدنيا نظر المحبوس الى السجن ولوان اثنين من المسلمين يتنازعان على شئ زهيد فى بلاد فيها كتاب من الاعدآء لبادرت حالا اولئك الكتاب الى نشر ذلك الخبر فبدل ان يقولوا تخاصم رجلان يقولون قسد تخاصمت قبيلتان كبيرتان من قبائل المسلمين فدمرت احداهما الاخرى ثم قام لاخذ الثار خلفآ القبيله البائدة وانتشر الشر مابين سائر القبائل فلم يبق فى البلاد امن ولاراحة وانت ادرى بماينسبب عن ذلك من الشماتة بالمسلمين وقد قال الشاعر *

* المرء ينسى كل سوء ماعدا * ان تشمت الاعدآء ساخرة به *

هذا ولما رايت انى اذا عمرت مابين السودان كالنسر لايتهيا لى ان اقنعهم بان يجمعوا شملهم مع شمل سائرا لمسلمين رايت الرجوع اولى فعدت الى الجزائر فوجدت ان قبائل الصحرآء قد هرجوا ومرجوا فقلت فى نفسى ما اسفه هولآء العربان وما ابعدهم عن الرشد اذ يقومون على المتسلطين عليهم وهم دونهم فى الغنى والقدرة والعز او كما يقال غالبا فى التمدن فما تكون نتيجة ذلك سوى ان الدولة المتسلطة تزيد فى عساكرها هنالك

وذلك يستلزم تكليف الابرآء الذين بقوا على طاعتها فان الغضب اذا استحوذ على عقل انسان ازال رشده واعمى بصيرته فما ظنك بالدولة جميعها اذا غضبت وقد قال الشاعر فى هذا المعنى

* لا تحسبن نفسك انسانا * ما دمت بين الناس غضبانا *

* فى غضب المرء جنون له * يرى به الاحسان عدوانا *

ثم انى كثيرا ما اجتهدت فى معرفة السبب الذى احوج عرب الصحرآء الى المجاهرة بالعصيان فلم احققه غاية التحقيق الا ان بعض من يوثق بكلامه اخبرنى اخيرا بان اصله امرأة فان بعض العلوج اراد ان يتزوج امرأة مسلمة فمنعه ابوها منها ثم فر والتجأ الى بعض مشايخ العرب والقصة طويلة فقلت فى نفسى لابدع ان تكون امرأة واحدة سببا فى خراب مملكة فلله الامر ثم خطر ببالى بيتى العيدان المجموعة والمتفرقة وقلت ان هولآء الاعراب قد تدروا من اصل الحزمة فلابد من ان يفشلوا وحسبنا الله ونعم الوكيل ثم لما تكرر على سمعى انكسار العيدان وانقصاف بعضها سئمت من الاقامة فى البلاد وقلت يطيب لى عنها البعاد فوافيت تونس واذا باول خبر بلغنا عنها ان الاعراب قد عصت والفتن قد فشت والاحزاب قد تعصبت والعصب قد تحزبت فقلت انا لله وانا اليه راجعون هذه سنة محن ومعامع فى جميع المواضع ولكن ما سبب هذه المفاسد هنا فقيل لى المال فان ذوى الامارة والسلطة احتاجوا الى ما ينفقونه فى بعض المصالح فزادوا فى الرسوم المرتبة على الرعية فكان ماكان فقلت فى نفسى ان اصل فتنة الجزائر امرأة واصل فتنة تونس المال فهل من سبب آخر للشر ثم فكرت فى سفاهة اولئك الاعراب بل فى سفاهة كل رعية تقوم على دولتها فان الدولة مهما تكن ضعيفة وفقيرة فانها فى وقت الفتنة لا تعدم من يمدها بالمال وادوات السلاح ولا شك ان المال للحرب عصب وطنب يجبى عنده كل سبب كما قال الشاعر*

• اشفق على الدرهم والعين • تسلم من العينة والدين •
• فقوة العين بانسانها • وقوة الانسان بالسين •

ثم ما تكون نتيجة ذلك الا ان الدولة تهيئ جيشا كثيرا لاذلال العصبة وتقابلهم بما عندها من الخيل والرجل والآلات والعدد فتذلهم وتكبحهم ثم تقول فى آخر الامر هاتوا نفقة الحرب فانكم انتم كنتم السبب فيها فيضطرون الى ان يودوا اليها اضعاف ما كانت طلبته اولا منهم على وجه الاستعانة ففى تاديتهم تلك الاعانة مفخرة لهم وباعث للثناء عليهم وفى تاديتهم نفقة الحرب اذلال لهم فاى الادائين اولى الا انه قد جرت العادة بانه متى وقع التنافر بين الرعية والراعى اعتمدت الرعية على حق الكثرة فترقبت من الراعى ان يكون هو البادىء بملاطفتهم والتودد اليهم واعتمد الراعى على حق الرعاية والسلطة فيتوقع منهم الاستكانة والاستغفار فاذا لم يكن بينهم واسطة تقرب بعضهم من بعض بقوا على هذه الحالة الى ان تشتد عقدة الضغن مابينهم فلا يحلها الا السيف ثم لما انتهيت الى هذا الفكر صرخت وانا غير مبال بمن كان قاعدا بجنبى ولكن اين الواسطة فقال لى جليسى وقد اخرج كيس دراهم من جيبه هذه هى الواسطة فتبسمت وقلت نعم ما اشرت اليه ولكنى كنت مفكرا فى واسطة اخرى ثم اخبرته بما وقع فى خلدى فقال ان حركة هولاء الاعراب غريبة واغرب ما فيها انهم سعوا فى هلاك انفسهم واضاعة حقوقهم قلت لاجرم ان اصل مجاهرتهم بالعصيان هو هلاك لهم لكنى لم افهم المراد بقولك اضاعة حقوقهم لان الظاهر من حركتهم انهم انما قاموا فى طلب حقوقهم وهى ازالة زيادة الرسوم التى طلبت منهم الا ان يكون المعنى انهم بعد قتلهم تضيع حقوقهم اذ من العادة ان الدولة اذا غلبت الرعية اضاعت حقوقها بحجة الغالبية غير انه عند رجوع الرعية ثانية الى الطاعة ترد عليها ما خسرته من الحقوق قال هذا المعنى صحيح غيرانى عنيت امرا آخر قلت ما هو قال ان هولاء السفهاء من الاعراب لما

قاموا بالفتنة وزين لهم الشيطان اعمالهم اقترحوا على اميرهم جملة امور منها تخفيف مقدار الامانة وعزل الوزرآء وابطال المجالس التى كانت بينهم وبين اميرهم واسطة وان يكون الامير مكلفا بسماع دعاويهم وشكاويهم فياتون اليه للمحاكة والمخاصمة فيحكم بينهم برأيه على مقتضى ما يستحسنه و يستصوبه فربما كانت احدى الدعاوى بينهم موروثة عن الاباء والاجداد فاذا حضروا بين يدى الامير رضوا بفصلها بنطقة واحدة من فيه فان انفسهم الامارة بالسوء قد وسوست اليهم ان حكم رجل واحد اولى من حكم جماعة فالظاهر منهم اى من هولاء الاغبياء ان مجرد قصدهم فى المحاكة لدى الامير انما هو ان يتشرفوا بالمثول بين يديه لا ان يحصلوا على حقوقهم اذ لوكان غرضهم احقاق الحق وازهاق الباطل لاستقروه من جميع مواضعه ولسألوا عنه الف واحد فانهم يعلمون عين اليقين ان امرآء تونس منذ عهد بعيد لم يرشحوا لفصل الامور واجرآء الاحكام سوآء كانت عرفية اوشرعية اذ ليس فصل الدعاوى منوطا بالامرآء ولا بالملوك ولا بالسلاطين وانما على صاحب الامارة ان يولى المناصب لاصحابها الجديرين بها فى وضع الاشيآء فى موضعها على هذا المنوال فلايكون عليه بعد ذلك الا تنفيذ ما يحكم به اولئك الحاكمون العادلون ولكن اذا تكلف الامير لان ينظر فى جميع امور بلاده فانه تدبيرها وتسديدها فمثله كمثل الطبيب الذى يداوى جميع جوارح البدن فلا يمكنه ان ينفع بمداواته احدا الا اذا كان يقتصر على فن معلوم من فنون الطب فان الكحال مثلا لايكون حجاما والحجام لايكون جراحا وقس على ذلك اصحاب الولايات فان رئيس الجيش مثلا يلزمه ان يكون عارفا بالهندسة والجغرافيا والفنون الحربية وناظر التجاره يلزمه ان يعرف منافع الارض وتكثير موارد ثروتها وصلاحيتها لزرع كل ماينتفع به و غير ذلك وليست معرفة هذه الامور كلها مطلوبة من الرئيس الاكبر وانما المطلوب منه ان يفوض هذه المراتب الى من يجدر بها كما تقدم ذكره *

قال (اى جليس السائح) ثم انه جرت العادة فى سائر البلاد بان امير البلاد هو الذى يقلد افراد الرعية المناصب الشرعية والملكية ويركن اليهم فيما يجرونه من الاحكام بالنيابة عنه لكن هذه العادة جرت فى تونس هذه المرة بالعكس فان الرعية هى التى قلدت راعيها هذا المنصب الجليل اعنى منصب فصل الدعاوى فقام فيهم مقام الحاكم والقاضى قلت فلاى سبب رضى بهذه الخطة لنفسه فانها مع كونها معنتة له وموجبة عليه المسئولية لدى الديان العادل لا تنفع بلاده بشئ ولاشك ان الامير لايقصد شيا الان كان فيه نفع لنفسه ولرعيته معا اما كون القضاء وفصل الدعاوى معنتا له فحسبك ان ابا حنيفة رضى الله تعالى عنه مع جلالة قدره وسبقه فى الفضل والعلم ابى القضاء وقد ذكروا عنه ان عمر بن هبيرة اراد ان يوليه القضاء فابى فحلف ليضربنه بالسياط وليسجننه فضربه حتى انتفخ وجه ابى حنيفة وراسه من الضرب فقال الضرب بالسياط فى الدنيا اهون على من الضرب بمقامع الحديد فى الآخرة وعنه رضى الله تعالى عنه القاضى كالغريق فى البحر الاخضر الى متى يسبح وان كان سابحا وعن انس رضى الله عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة وقال ايضا من قلد القضاء ذبح بغير سكين ولاشك ان المراد بذلك انما هو تحذير القضاة وتنبيههم لا تعطيل القضاء واما كون خطة القضاء من طرف الوالى المشار اليه لاتنفع بلاده بشئ فلانه غير مرشح لها فان امراء المسلمين فى هذا العصر لايبالون كثيرا بعلم الفقه والاصول المعتمد عليها فى السياسة وانما يفوضون ذلك الى ذوى الجدارة قال انما نفعها من حيث كونها طيبت خواطر الاعراب واقبلت بهم الى السكون والدعة اذ كانوا يظنون ان ابطال المجالس يبوؤهم اعلى محل فى الاثير ويطلعهم على سر الاكسير فلهذا تكلف الامير حمل ذلك الحمل المتعب حرصا على راحة رعيته غير انى اظن انه متى قرت

الاعراب على الطاعة وزالت عن بصيرتهم غشاوة تلك الرقاعة عادت الامور الى ما كانت عليه سابقا بل الاعراب انفسهم حين تطمئن انفسهم يرون العود الى المجالس احمد واوفق وارشد اذ لا يخفى ان تلك المجالس كانت مرتبة على هذا الوجه وهو انه اذا تحاكم اثنان مثلا فى اصغرها وخرج الحكم منه غير مرض لاحد الخصمين كان للخصم ان يرفع دعواه الى مجلس اكبر من ذلك فهنالك يدقق النظر فى دعواهما ويكتب كلام الشهود وتطابق قرائن مقالهم على القرائن الحالية وتستقرى اسباب الحق من جميع طرقاته ووجوهه وتحرى ويتسآل اهل المجلس ويتناظرون ويتذاكرون ويراجعون الاصول المعتمد عليها الى ان يفصلوا الدعوى على الوجه الاتم اما الآن فان الامير اذا حكم بشئ على المتداعيين لم يكن لهما من بعد ذلك ان يحتكما الى آخر سوى الى الله تعالى فيبيت احدهما دعيا بين يديه للامير والآخر داعيا عليه وما اغنى الامير عن هذا وقد بلغنى ان هذه المجالس جارية فى بلاد اوربا لان احوال النصارى المعاشية فى تلك البلاد منتظمة وقد سئل مرة بعض من زار اوطانهم منا عن دينهم ودنياهم فقال ان دينهم كدنيانا ودنياهم كديننا فهنالك ترى مجالس متعددة لفصل الدعاوى المتنوعة فثم مجلس للتجارة وآخر لفصل الدعاوى الخطيرة وآخر لما كان دونها وآخر للضبطية وهو غالبا فيما يتعلق بالامور التى تقع فى اسواق البلد من نحو السرقة والتعدى الا ان هذا الديوان هو آلة لغيره وثم مجالس للامور الملكية السياسية وغير ذلك ولولا ان تلك الممالك قد اتخذت العدل اساسا لها لما بقيت الى هذا اليوم ومعلوم ان العدل هو قوام كل شئ حتى قال بعض الحكماء ان اللصوص اذا حادت عن العدل بالنسبة الى معاملة احدهم مع الآخر لم يتهيأ لهم ان يسرقوا شيا ولو فرضنا ان ملوك تلك الممالك تجلس لاستماع دعاوى رعاياهم كما يفعل اميرنا هنا لما رضى احد ان يكون ملكا لما يلحقه من العناء والنصب وفضلا عن

ذلك فقد يتفق ان يكون لاحد افراد الرعية دعوى على الملك نفسه اوعلى احد اقاربه فكيف يتم الامر اذا كان الملك حاكما ومدعى عليه قلت ما اجسر هولآء الناس فانهم يحاكون ملوكهم قال لاعجب فان ملوك المسلمين وامرآءهم ايضا كانوا تحت الاحكام الشرعية وذلك حين كانت راية العدل غالبة على الرشوة والمصانعات والاعتماد على الثروة والمناصب والالقاب ولنا على ذلك شواهد كثيرة منها ماروى انه ادعى رجل على على عند عمر رضي الله عنهما وعلى جالس فالتفت عمر اليه وقال يا ابا الحسن قم فاجلس مع خصمك فقام فجلس مع خصمه فتناظرا وانصرف الرجل ورجع على الى مجلسه فتبين لعمر التغير فى وجه على فقال يا ابا الحسن ما لى اراك متغيرا أكرهت ما كان قال نعم قال وماذاك قال كنيتنى بحضرة خصمى هلا قلت يا على قم فاجلس مع خصمك فاخذ عمر براس على رضي الله عنهما فقبله بين عينيه ثم قال بابى انتم بكم هدانا الله وبكم اخرجنا من الظلمات الى النور *

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولامير المومنين المنصور فكتب المنصور لعامله استوف لامير المومنين حقه وفرق مابقى بين الغرمآء فلم يلتفت الى كتابه وضرب للمنصور بسهم من المال كما ضرب لاحد الغرمآء ثم كتب للمنصور انى رايت امير المومنين كاحد الغرمآء فكتب اليه المنصور ملئت الارض بك عدلا وتقدم المامون بين يدى القاضى يحيى بن أكثم مع رجل ادعى عليه بثلثين الف دينار فطرح للمامون مصلى يجلس عليه فقال له يحيى لا تاخذ على خصمك شرف المجلس ولم يكن للرجل بينة فاراد ان يحلف المامون فدفع اليه المامون ثلثين الف دينار وقال والله ما دفعت لك هذا المال الا خشية ان تقول العامة انى تناولتك من جهة القدرة ثم امر ليحيى بمال واجزله وروى ان رجلا من العقلآء غصبه بعض الولاة ضيعة له فاتى الى المنصور فقال له اصلحك الله يا امير المومنين اذكرلك حاجتى ام اضرب لك قبلها مثلا فقال بل اضرب المثل فقال *

ان الطفل الصغير اذا نابه امر يكرهه فانما يفزع الى امه اذ لا يعرف غيرها وظنا منه ان لاناصر له غيرها فاذا ترعرع واشتد كان فراره الى ابيه فاذا بلغ وصار رجلا وحدث به امر شكاه الى الوالى لعلمه انه اقوى من ابيه فاذا زاد عقله شكاه الى السلطان لعلمه انه اقوى ممن سواه فان لم ينصفه السلطان شكا الى الله تعالى لعلمه انه اقوى من السلطان وقد نزلت بي نازلة وليس احد فوقك اقوى منك سوى الله تعالى فان انصفتني والا رفعت امرى الى الله تعالى في الموسم فانى متوجه الى بيته وحرمه فقال المنصور بل ننصفك وامر ان يكتب الى واليه برد ضيعته اليه وامثال ذلك كثيرة لاحاجة الى الاكثار منها والمراد من ذلك ان ولاة المسلمين كانوا لايلهون عن اجراء العدل حين كان لاحاجب بينهم وبين رعيتهم ولا حجاب على انى اقول ان استبداد الوالى بالامر والنهى في جميع مصالح بلاده وامور رعيته غير موافق لاطبعا ولا شرعا اما طبعا فلان الرعاع من الرعية على فرض امكان وصولهم اليه ربما عيوا عن الكلام هيبة منه واجلالا له ومعلوم انه ليس كل واحد منهم يحسن التلطف له والافصاح عما في ضميره اوانه يضرب بين يديه هذا المثل الذى مر وعلى ذلك يقال ان رجلا من اهل الشام عزم على لقاء المامون فاستشار بعض اصحابه وقال على اى وجه اصلح ان القى امير المؤمنين قال على الفصاحة قال ليس عندى شئ منها وانى لالحن في كلامى كثيرا قال فعليك بالرفع فانه اكثر مايستعمل فدخل على المامون فقال السلام عليك ياامير المؤمنون ورحمةالله وبركاته فقال المامون ياغلام اصفع فصفع فقال الرجل بسمالله (بضم الميم والهاء) فقال ويلك من طبعك على الرفع فقال كيف لا ارفع من رفعه الله فضحك منه وقضى حاجته واختصم رجلان الى عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه فجعلا يلحنان فقال لهما الحاجب قا فقد اذيتما امير المؤمنون فقال عمر انت والله اشد اذى لى منهما نعم ان امراء المسلمين فى هذا العصر قد شاركوا العامة فى اللحن والخطأ

فما ينبغى ان يكون الكلام معهم معربا فصيحا غير ان منصبهم لابد وان يلقى الرعب فى قلوب العامة عند مثولها بين ايديهم وحينئذ يفوتهم ما كانوا هيأوه فى خواطرهم من الكلام فى اثبات حقوقهم والثانى انه على فرض سهولة وصول المتداعين الى الوالى فليس فى طاقته ان يتفرغ لاستماع جميع القضايا الملكية والازمه ان لا ياكل ولا يشرب ولايصلى ولاينام واما شرعا فلان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم وشاورهم فى الامر قال الضحاك انه امر بالمشاورة لما علم فيها من الفضل وقال سفيان انه تعالى امره بمشاورة اصحابه صلى الله عليه وسلم ليستن به المسلمون وان كان فى غنية عن المشورة وقال ابن عيينة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اراد امرا شاور فيه الرجال وقال عليه الصلوة والسلام ماخاب من استخار ولاندم من استشار ولا افتقر من اقتصد وقال حكيم المشورة موكل بها التوفيق لصواب الراى وقال بشار *

* اذا بلغ الرأى النصيحة فاستعن * براى لبيب او نصيحة حازم *
* ولاتحسب الشورى عليك غضاضة * فان الخوافى رافدات القوادم *

(الخوافى ريش اذاضم الطائر جناحيه خفيت والقوادم اربع او عشر ريشات فى مقدم الجناح واحدتها قادمة) ولعل معترضا هنا يقول انك قد اوردت امثلة يستفاد منها ان امراء المسلمين الاولين كانوا يقضون ويحكمون من دون مشورة فما الداعى الى ايراد امثلة على وجوبها اذ يكفى لامير المسلمين الآن ان يقلد مثل اولئك الامرآء الاولين فما يكون عليه فى ذلك من لوم والجواب انه قد تقدم ان امرآء المسلمين المتقدمين كانوا يرشحون الاحكام فكانوا من العلم على جانب عظيم والثانى ان امور المسلمين فى القرون الاولى انما كانت وطنية بمعنى انهم لم يكونوا محتاجين الى معامله الاجانب ولم يكن بين رعاياهم ورعايا الاجانب من المخالطة والمداناة مايحوج الى اقامة دعاو ورفع سكاو وادلاء بحجة وبلاجة دونها خوض اللجبة بيان ذلك ان تونس فى الزمن القديم لم يكن فيها غير

اهلها المتاصلين فيها سوآء كانوا فى غنى عن معاملة غيرهم اولا فاما الآن فانها صارت مقصدا لجميع النصارى من اهــل اوربا واغرب من ذلك انه قد جرت الآن عادة دول اوربا بان ترسل وكلآء من طرفهــا الى بلاد المسلمين وربما لم يكن لهم فيها شى من التجارة والمعاملة اصــلا انما هى نهمة ينزغهم اليها التحاسد فاذا ارسلت دولة الانكليز مثلا وكيــلا الى تونس كان لابد لدولة اخرى من محاكاتها بذلك فتقيم ايضا وكيلا لمجرد ان يرفع علم دولته على سطح داره اشعارا لاهل البلد بانه يوجد فى قطر من اقطار الدنيا دولة لها هذا العلم هذا ولما كثرت الاجانب على هــذا الوجه فى ممالك المسلــمين رأوا ان لهم حقــا فى تملك بقاع من بلادهم بدعوى ان المسلمين غير قادرين على تعمير تلك البقاع وان تعميرهــا من الاجانب وتكثير ريعها وغلتها يزيد فى تكثير ايراد الخزينــة الوطنيــة وفائدة عموم الرعية وهنــا ذكآء الوالى وشدة حزمه فانه ان منعهم من الاستيطان فقد اثار فتنتهم وان خولهم فقد اثار فتنــة رعاياه فاذا كانت مثل هذه الامور المتشــاجنة تفوض الى مجلس شورى يحضره نواب من الدولة والرعية كان حكمه بها مقنعــا للاجانب بنــآء على ان مجالس شوراهم فى ممــالكهم اذا حكمت بشئ نفذ حكمها عــلى الكبير والصغير وليس من المحتمل لهؤلآء الاجانب ان يقولوا ان هذه المجــالس انما تصلح لممالكنا فقط دون ممالك النــاس فان ذلك يكون شاهدا على شططهم وسفاهتهم فاما اذا رجع فصل كل شى الى شخص بمفرده سوآء كان الوالى او وزيره فانهم لا يزالون ملحين عليــه حتى يفوزوا بمطلوبهم منه فقد تقرر اذا ان كثرة الاجانب فى بلاد المسلمين هى عادة جديدة لم تكن معروفة لهم فى الازمان السابقة فمن ثم لم يكن لها علاج الا انشاء هذه المجــالس وهى غير بدع فانا نرى ان سلطــان المسلمين قد استحسنهــا واستصوبها وبثها فى جميع ممالكه وكذا عرفت فى مصر من مدة طويلة وقد زادت اليوم بوجود خديويهــا الهمام اسمــاعيل باشا حرســه الله

فلم يعمل الا فى البلاد البعيدة عن سفن اوربا هذا ما عندى من الراى السديد وانى ارى فيه الحق كما ارى النور فى هذه الشمس الطالعة ولا ادرى كيف ان غيرى لايرى ما ارى ولايفكر فيما اهتديت اليه مع ان من اهل تونس رجالا ابصر من زرقاء اليمامة وارشد من القطا الى منتجع السلامة فما لهم الا ان يقولوا ان مذاكرات المجالس تقضى بتاخير الاحكام بخلاف ما لوكان الحكم من شخص واحد فانه يصدر فى الحال غير ان هذا القول باطل بالبديهة فان احكام الامر مع التانى والمهلة خير من الخرق فيه مع السرعة والعجلة اذ ليس المقصود من الحكم صدوره على الفور بل على وجه العدل والحق قال السائح فقلت لجليسى والله لقد قلت قولا رشيدا وسلكت مسلكا حيدا وان رأيى على رأيك وانحا فى طبق انحائك فتعال نكتب ماقر عليه راينا فى الرائد التونسى حتى يشيع عند عامة اهل تونس ويتنبهوا له قال ان الرائد لايشهر مثل هذا الكلام لكيلا ينسب الى زيغ فى المرام فقلت لاباس فانى قاصد التوجه الى الاستانة وهناك لابد ان شاالله تعالى من الاجتماع بصاحب جوائبها فساطلب منه ان يكتب فى جوائبه ماجرى فانه لايحجم عن كل مافيه نفع المسلمين ونصح للمؤمنين جزاه الله عنهم خيرا وجزى عدوه اللئيم سوا وضيرا فهذا ما قصدت افادتك به ياابا الجوائب عن تونس فان شئت نشره فى صحيفتك فمن فضلك والا فانت برىء من اللوم فما نصرفت من عنده وقد وعدته بنشر كل ما حدثنى به ولم ازل على الفة ومودة معه مدة لبثه فى هذه الحاضرة السعيدة وعددت معرفته غنما وقربه حظا ونعمى *

حكاية زنجى

ادرج فى بعض جرنالات نيويورك باميريكا حكاية مضحكة عن واحد من الزنج المعتوقين قال انى من الاشياء الممنوع جلبها لكنى ذو عقل وحرية كذا قال مستر لنكون وكذا طبع فى الجرنال باحرف كبيرة وكان سيدى سابقا فى اركنساس يزرع الدخان فسافر مرة وغادرنى فتوجهت

الى الشمال فسمعت اعلان المستر المذكور باعتاق امثالى العبيد فى رأس السنة وقالوا لى انى حر معتوق ثم اعطونى قطعه لحم منتن واستعملونى فى حفر الخنادق فقلت لواحد من العسكر ليس الحفر من دابى فسخر منى ثم اعدت شكواى على واحد من الضباط فقال اذهب الى الشيطان الرجيم فقلت انا حرما اريد هذا فرفسنى على موضع من جسمى رفسة حرمتنى من القعود ففكرت فى ان حريتى هنالك لم تحترم حق الاحترام فخطر ببالى ان اعود الى محلى الاول واتملى برؤية زوجى ذات الكسل فرجعت فلما راتنى هشت الى وبشت فقلت لها انا حر واذا بسيدى قد اقبل فلاقيته واخبرته بما فى نفسى فقال اليك عنى بالكم ان اعلان لنكون ليس له هنا منجع فاياك وان تخبر احد العبيد به والا انزلت عليك البوارق والصواعق فقلت انى مثلك حر وذلك الاعلان ساوانى بك فاستدعى ح بعثلين من العبيد فنزفا صلى الله اى نزق فانصرفت باكيا من دون زوجتى وسرت على صعف ثم قصدت الشمال وقد اضنانى البرد اذ هى لا توافق السودان وانما تعزيت بكونى حرا غير انى لم اجد من يستخدمنى او يتصدق على وقد كان لباسى رقيقا وجوعى شديدا ومع هذا فلم يكن يعنينى انى ابحث عن شغل كيف وانا اليوم حر وقد طالما كدحت وانا عبد فما الفائدة من الحريه ان كنت احوج ايضا الى الكد ثم خطر ببالى بعض الخواتين وكن يعرفننى فى واشنطون فقصدت المدينة فلما دخلتها ورايت ما فيها من الابهة والفخر خيل الى انى احد امرائها فصرخت قائلا هذه واسنطون معتقة الاحرار وانا احدهم نعم انا حر واى حر فنم الدار ثم تكرنى الجوع فقصدت دارا رحيبة واذا برجل طويل اسود العارضين اقبل منها فاخذت بيده فعجب منى وقال ماشانك فقلت انا حر وقد جئت من اركنساس جائعا مقرورا فقال اليك عنى فانى مريض من رؤية الزنج فقلت لقد شممت من هو نظيرك فانى حر كذا الاعلان فقال تبا له ياليتنى لم اشهره فانصرفت باكيا ثم خرج على اثره زمرة تمضغ

الدخان فتقدمت الى واحد منهم لاسأله مضغة وقلت انت صديق فافرح منى فانى كنت عبدا واليوم انا حر فحملق بى ثم قال انظر هل تجد فى حديقتى شيا اخضر فقلت لا تسخر منى فانى رجل حر فقال فبحالك من كسلان لم لاتعمل بيديك مع العاملين فانى انا ايضا كنت من العملة قلت كيف اعمل وانا حر فضحكوا منى فتركتهم حزينا مكتئبا و قلت فى نفسى هل هذه حرية ثم لقيت من دلنى على دار خاتون من ذوات الفضل فرايت عند الباب مركبا فاخرا فاستبشرت بالخير وحركت الجرس فخرج الى خادم فقلت اريد ان ارى الخاتون محبة الزنج فاخبرها بان واحدا منهم قد اعتق الان وقدم عليك فرجع وهو يقول هات رقعة الزيارة قلت لست املكها انما انا جوعان مقرور فقال انها لاترى امثالك فسرت الى محل الجرنال الذى اشاع عتق فرأيت رجلين قد وضعا ارجلهما على مائدة الكتابة فلما ابصرا بى صرخ احدهما هلا و بلا هذا الزنيجى من الجيله (تصغير جيلة) سبهللا يمشى عبيد عبيله فقلت يافتى انا حر ومحب لجميع الناس فان لم تحترمنى فاحترم حريتى فقال صاحبه الزام الوصيد يا سيد العبيد قلت قدقصدتكم باسم الانسانية وانتم الذين بشرتم العبيد بالحرية فقال اسمع من قبل ان تفجع غرب عنى وجهك فى الحين والا الحقتك بالغابرين فسرت الى خاتون اخرى وسألت الخادم عنها فقال مالك ولهذا السؤال وانت على هذه الحال اغرب من هنا ثم لقيت من جاد على بنصف شلين فافطرت به بعد صوم يوم ثم لقيت آخر فاستعطيته فاجابنى بما لم افهمه لانه كان يهذى فى بعض العلوم ففارقته وانا اقول ما قال غيرى يا ايتها الحرية كم قد توصل الناس باسمك الى ارتكاب المنكر ثم لقيت زمرة يعملون فى سكة الحديد فقلت لهم ما اجرتكم فى اليوم قالوا ثلثة قروش قلت فيم تنفقونها قالوا فيما يقوى العظام من المدام قلت واين الطعام والحوام قالوا عند من ليس له اسنان قلت وكيف تكدون مع فراغ الامعاء قالوا يملأنها عزرائيل بماشاء قلت

كم تنفقون فى اليوم قالوا كل مانكسبه قبل النوم قلت واين الثياب قالوا يغنينا عنها الاهاب قلت فاذا مرضتم اوهرمتم وماعندكم فلس قالوا نصير الى الرمس ونستريح من النحس قال ففكرت ح فى ابى الذى كان مكفى المؤنة فى هرمه من دون احتياج الى العمل ثم قلت ولكنكم لستم منفصلين عن اهلكم وعيالكم فقال احدهم قد مضى على سنتان لم ار فيهما وجه العجوز الا انها لا تنفك ان تصادرنى باجرتى فاغنانى ماسمعت عن مزيد السؤال فوجهت وجهى نحو الجنوب وانا اقول يالك من حرية جلبت على حزن يعقوب وصبر ايوب *

المقامة البخشيشية

حدث احد السواح قال قد طالعت فى بعض الصحف الجامعة للاخبار مما يحدث فى الا مصار والاقطار ان فى بعض الممالك ملكا يقال له البخشيش مجد كيش ابيس بنبيش لا يقطع امر دون امره ولاينفذ راى دون خبره واذا شاء ان يصير الحق باطلا فعل اوالباطل حقا امكنه العمل فلا مرد لحكمه ولا معارض لرسمه وحيثما سرحت النظر الفيته امامك ومهما تقصد من المآرب كان لا بد لك من ان تتخذه امامك وان اكلت اوشربت لزمك ان تصاحبه وتراضيه وتجابيه واذا سالك عنه احد وجب عليك ان تسرد عليه اصله وفصله وشرفه ونبله فان تظاهرت بجهل شانه وانكرت بطش سلطانه عدك الناس من الحمق وقالوا انك معتوه حقا واذا سمعت من يترنم بمديحه وجب عليك ان تقول عند كل فقرة آمين صدق القائل الامين هذا اذا كان المدح نثرا فاما اذا كان شعرا كان المفروض عليك ان تثب وتطفر فرحا وسرورا وتقول ما رايت كاليوم بشيرا ونذيرا انه قد اطرب منى المشاعر وانبانى بما يكون فى الغد فنعم المحذر المطلع على السرائر ولقد اعتقد الناس بهذا الاسم الكرامات وحسبوه آية من الآيات حتى انهم كتبوه على جباههم واستفتحوا به فال بياههم بل ربما استغنوا عن مجموع حروفه بحرف واحد يدل على

حروفه فكل باء رايتها على جدار دار فاعلم انها اول هذا الاسم الشريف فاذا حفظت هذا فانت نعم العريف ومن مآثره الباهره ومحاسنه القاهرة انه يدنى لك البعيد ويملكك الجوارى والعبيد ويجعل لهجتك فى المجالس فصيحه وطلعتك مع المجالس صبيحه فان كانت ذات آثار من الجدرى سوتها ونشرت من فيك الارج العنبرى فكل عيب معه مستور وكل ذنب بصحبته مغفور فقلت فى نفسى تالله ان هذا الملك غريب واسمه اغرب وهو فى هذا العصر اجدر ما ينوه به من العجب ويتشوق الى تقربه من تقرب وما عندنا من الملوك من يضاهيه او يجاريه فى ملكه ويحاكيه فان هو الا ملك روحانى وسلطان علوى ليس من النوع الانسانى فكيف اختصت تلك البلاد بهذه المزيه ففضلت بها جميع البريه مع ان بلادنا بحمدالله تعالى بلاد عمران وتمدن وحضارة وتفنن وقد اخترعنا فى هذه السنين من الآلات والادوات ما لم يكن يخطر ببال احد ممن فات حتى كدنا ان نخترع آلة توصل الى افواهنا الطعام والشراب وان تكتب عنا الكتاب لكيلا تتعب ايدينا اللطيفه من الحركة العنيفه وكدنا ان نرى بلا عينين ونسمع بلا اذنين وان تخضع لنا الريح والبحر ببواخر مواخر واى مخر فاما ان تكون تلك الصحف كاذبه او ان الحقائق لم تزل عنا غائبه قال وكان عندى كتاب فى اسماء الملوك الغابرين والحاضرين والعلماء والصالحين والخيرين مرتبة على حروف المعجم ومفصلة تفصيلا يدريه الاعجم ويفصح به الابكم فاخذت الكتاب وبحثت فى باب الباء منه عن هذا الاسم العجاب فلم اجده فيه لا فى متنه ولا فى حواشيه فقلت فى نفسى انى بحمد الله ممن يطيق السفر وعندى فيه رفيق من الاصفر وهذا وقت تطيب فيه الاسفار فى البحار وما ورآى عوائق واشغال من الاهل والعيال فما لى لا اقصد تلك البلاد التى احتوت على هذا العجب وهو عند الباحثين عن الغرائب غاية الارب فاذا تحققت هذا الامر عيانا وامكن لى ان اقيم على صحته برهانا رجعت

الى وطنى والفت فيه سفرا كبيرا وزدته فى الشرح تحبيرا وذلك يكسبنى كل ما اخفته من المسائل لاجله ويردنى الى قومى فائزا بمعرفة اصله فأفيدهم الخبر اليقين وأكون بينهم فى عداد المحققين فضلا عن كسب الرقين ومن العادة عندنا انا لانتأسف على بذل مال فى المسائل اذا كان يغيرنا بالآمال فى المآل فالسفر السفر والوطر الوطر فقمت فى الحال الى متاعى فحكمته والى هميانى فاقمته وركبت فى باخرة ماخرة كأنها صرح تشرح الصدر بحسنها واى شرح فسرنا ذلك اليوم بريح طيبة ولى من الامانى رفقة محببة حتى وصلنا الى مرفأ قاعدة تلك البلاد التى مرحلو ذكرها وسبق التنويه بفخرها فكدت ان اطير فرحا بحصولى على هذا الامل وحمدت الله عزوجل وفى الحال اطافت بباخرتنا زوارق كثيرة لنقل الركاب الى البر وهى العادة فى كل بلد له ساحل يذكر وكان كل من اصحاب هذه الزوارق يشير الى بالركوب معه وبانه اكثر من غيره قناعة واوفر دعة فاخترت واحدا وقلت له ليس لى من الاحمال ماينقل زورقك اوتقول انه آكدك فاعرقك اوثبطك فعوقك فكم تريد من الاجر على نقلى الى البر قال عشرين قرشا قلت هذا كثير قال بل شى يسير قلت اعطيك نصف هذا المقدار ولاتك بالثرثار قال هذا استفتاح فاركب والبركة فيما اكتسب والله يحب من كسب ومن طمع باء باسوأ منقلب وغير ذلك من الامثال مما يستعمله اهل الاحتراف على العيال فركبت معه فلما اوصلنى الى البر اديت اليه العشرة وقلت دونك الاجارة المقررة فقال قد بقى بخشيش الزورق ليتم الانق قلت ما معنى البخشيش بعد تعيين مقدار الاجر قال هو خاتمة الاعمال و به يحصل لك تمام الاجر قلت انا درويش لايجب على بخشيش فالح والحف ولج وحلف فأعطيته بعض فلوس وقلت خذها لا بارك الله لك فيها فانصرف ثم ازدحمت على الحمالون وهم ضاججون فكانما هم من بلاء هارجون وكان كل واحد منهم ينازعنى متاعى ويجذ بنى بذراعى ويقول انا اعرف منزلا للمسافرين يليق

بصالك وانا الذى احمل اثقال الوجوه والكبرآء كامثالك الى ان اخترت
واحدا منهم بعد اغضاب البقيه وحلتهم على ان سلقونى بالسنة حداد
على السويه ودعوا على وعلى كل مسافر مثلى ونعوا على اختيارى
للرجل وقالوا انه من ضربى وشكلى ولولا ذلك لما اخترته وفضلته عليهم
وآثرته فتحملت اذا هم وجعلت كأنى لم اسمع بذاهم ثم احتمل الرجل متاعى
كالنجله واقبل يعد وكالظليم بل اشد منه عجله حتى وصلت الى المنزل
المعهود وورد الراحة المورود فاديت اليه اجره وافيا وظننت انه كان له
كافيا واذا به يقول قد بقى البخشيش كفيت التحريش قلت ان صاحب
الزورق انما طلب البخشيش لقاربه لا لغاربه وانت فما دعواك وما حجتك
وما اغواك قال هى عادة البلد لايستنكف منها احد فان العادة اذا عمت
صارت فرضا لازما وحقا واجبا فما تجد لها احدا آبيا وما امثالك ممن
يجهل حكم العادات وانى اراك من ذوى الشارات فرايته مستعدا
للاسهاب وانه من دهاة الناس فى الجواب فلم يسعنى الا نقده البخشيش
زيادة على الاجرة وقلت اذهب كما جئت وقل ما شئت قدما واثنى وقال
حسنا فادخل خادم المنزل حاجتى الى احدى الحجرات فرايت ان قد مضى
على منذ خروجى من الباخرة ست ساعات فاحسست بالتعب فطلبت مضغما
يكسر عنى سورة السغب فاكلت وشربت وحمدت الله تعالى وطبت نفسا
وحالا ثم صحت بالخادم الذى احضر الى الطعام وهو كهل ولكنه
يتكلف افعال الغلام فقلت كم ثمن الادام قال كذا وكذا فناولته اياه
وتحركت للقيام فاخذه وقال قد بقى البخشيش فاتحة الامال وخاتمة الاعمال
فقلت اليس لك اجرة معلومة فى هذا المكان قال بلى ولكنها عادة اهل
الاحسان بل كل انسان وان العادة كما يقال خامس طبيعه ومتى عمت
شرفت وان كانت وضيعه قال فرايته مستعدا للزياده من المقال والعمد
الى الاستدلال فاعطيته ما ارضاه وسددت به فاه ثم رايت انه يلزمنى شرآء
زوجين من النعال وبعض ثياب مما لا بد منه فى الحال فدخلت دكانة

حذاء فقلت كم ثمن هذا الحذاء قال بمانتي قرش على التمام من دون جدال ولاخصام فانى لست من القوم الذين يجادلون فى البيع والشراء ولو الطمعني فى الثراء قلت هذا اشطاط قال لابل هواقساط قلت مائة وخمسون قال ما انت بازبون قلت مائة وستون ففكر ثم قال استفتاح فان فوته انى اذا لفى صفقة المغبون فسلمت اليه الثمن واردت الخروج من الدكان فاعترضنى بعض الغلمان وقال ايها الكريم الهشيش قد بقى البخشيش وهى عادة معروفة فى جميع الدكاكين وانت بالخبر قمين قال فرايته مستعدا للاكثار والتمادى فى هذا المضمار فاعطيته قرشا فاستقله وطلب المزيد و وجهه اصلب من الجلمود ولسانه اذرب من الحديد فلم اربدا من اسكاته وتجنب هناته فقد رايت الغلام منهم فى الطلب كهلا وان يكن الشيخ من بينهم فى الفهم طفلا فتعجبت من سلاطة السنتهم مع خمود فطنتهم وكأن ذلك قاعدة مطردة فى كل مكان وشان معلوم عند ذوى العرفان وهو انك حيثما رايت انسانا ذرب اللسان فاحكم عليه بكلول الجنان ثم انى اتيت عدة دكاكين مختلفة فالفيتها كلها على تلك الصفة اعنى ان صاحب الدكان يطلب فى بياعته ضعف القيمة ومن عنده من التلامذة يطلبون البخشيش عقب السيمه فاخذت افكر فى هذه الحال وح تبين لى قول من قال ان البخشيش ملك مطاع وآمر يحق له الاتباع فقلت فى نفسى الا قاتل الله الاخباريين وما جاؤا به من الافك المبين ما الذى حملهم على هذا التهكم السخيف والمجاز الكثيف فهو الذى اتى بى الى هذه الديار ليغبنني كل مهذار ثرثار ويتقاضانى البخشيش كل ذى شنار فاهذه الدار وما هذا العار وقد لحظت من هؤلاء الباعه من بعض ماعرفوا به من الفظاعه انهم لايبيعون الشارى فى وجهه بل فى قفاه اعنى انهم متى تولى عنهم فحينئذ يرضون بمقدار ما اداه ومادام لهم مواجها ويخاطبهم مشافها فانهم يولونه الاعراض والنفور وينسبونه الى الجهل والغرور ويقولون له انك لم ترفى عمرك قط مثل هذه السلعة

ولهذا تجهل ثمنوسا وان كنت ذا سعة لكنا نراك معدما سحيا اذ لستا نرى وراك من يحمل خرجا وماشبه ذلك من الكلام الذى لايتفوه به الاالطغام ثم انى بينما كنت على حالة الحزن والتفكر والتفكن اذلقيت احد معارفى الموسرين المياسرين وكنت احسبه من الغابرين ففرحت برآه فرح العليل بالطبيب او المحب بالحبيب وشكوت اليه ما قاسيته من شطط التجار عن الحق وابتدأت بقصتى منذ ركوبى فى الزورق فقال اما التجار فالقاعدة هنا ان من ساومهم فى شى لايعطيهم الانصف الثمن وهو داب اهل الوطن وهو عندهم غير مستهجن واما الغرباء فربما غلب عليهم الحياء فادوا اكثر من النصف فيغبنون ثم يعودون ولايعبأون واما البخشيش فلعنه الله فانه اخرب بيتى والجأنى الى بيع اثاثى وفراشى وجهازى ورياشى حتى اصبحت صفر اليدين جاحظ العينين اذا ذكرته اضطرمت منه فى القلب جمرة وبوت بلوعة وحسرة وانى الآن لاعنه وسالعنه مادام بى رمق وما تعاقب الغسق والنفق وقد حرمت على نفسى ان اقول عند استعظام شى بخ لئلا يذكرنى هذا الحرف الاسخ الاقذر المنكر الادهى الامر المشئوم طائره المذموم ذاكره هادم البيوت المعموره وفاضح العيال المستوره الذى اغرى اللوماء الاراذل بالكرماء الافاضل نعم هوالذى صيربيتى بلقعا واجرى منى ادمعا وترك كيسى فارغا من المال وبالى ممتلئا من البلبال فوالله الذى امر عباده بالعمل ونهاهم عن البطالة والكسل ماشتت شملى واعدمنى رحلى الاالبخشيش الملعون فالعنوه ايها اللاعنون قال الراوى فرايته ان قد استن فى مجال اللعن والسب والطعن فاردت ان اسكن من غضبه واصبره على سلبه فقلت له مهلا مهلا واكظم الغيظ فهوالك اولى فقال الاتسمع منى وتروى عنى قلت قل قال انى سكنت مع اهلى فى محله وكنا بحمدالله تعالى فى احسن بله فلما كان اليوم الثانى تزوج بعض الجيران فقالت زوجتى قد وجب علينا البخشيش للعروسين وان هما الااثنان قلت وما البخشيش

هداك الله فما اراه الافضولا منك بلااشتباه قالت ان لم نهد اليهما هديه
فقد عرضنا انفسنا للبليه ولزمنا ان نخرج من المحله بضمه وذله فقلت
اصنعى ما هو واجب وقانا الله من المصايب فذهبت الى السوق واشتريت
من المتاع ماينوق ويروق ثم حملته الى العروسين وهى قريرة العين فلما
كان اليوم الثالث ولد لبعض جيراننا ولد فقالت امرأتى قد وجب
التحنيش وما عند مجيد ولامرد قلت انت ادرى بمايجب وان قلبى من
درايتك يجب ففعلت كما شاءت وسارت للتهنئه بالهدية ثم جاءت فلما كان
اليوم الرابع قالت ان احد جيراننا قد ختن غلامه ومدطعامه فلابد من
حمل الهدية اليه وتقديمها بين يديه فقلت احملى احملى فهما هو السوق
قريب منك فاجرلى فقضت الرسوم وآبت بالثناء المروم فلما كان اليوم
الخامس قالت ان احد اولاد الجيران قد ختم القرآن فلابد من اتحافه
بتحفه واطراف اهله بطرفه قلت سالك والصلات وتتبع الكائنات
فلما كان اليوم السادس قالت ان اخا ذلك الصبى قد احرز فى المكتب
سمة تدل على انه ذكى غير غبى قلت رفيه واتحفيه وان شئت فقرطيه
اوشنفيه فلما كان اليوم السابع قالت ان جارتنا ذهبت الى الحمام بعد
النفاس وانت ادرى بعادة الناس قلت لابل انت الداريه وعندك اخبار
كل غادية وساريه فاصنعى بدرايتك واظهرى سرسراوتك فلما كان اليوم
الثامن قالت ان احدى جاراتنا قد خضبت بالحناء وتهيأت للازناء
وقد جرت العاده فابتدرت وقلت بان تحلى بقلاده قالت ان لم تكن
قلادة فخاتما والمال يفنى وابق انت سالما قلت بل اننى ارى نفاد جلدى
ومهجتى قبل نفاد سبدى قالت ان لم تجد بالمال هذى المره صرنا لدى
جيراننا معره فقلت شانك وتحلية الاصابع فانت ادرى بالطبائع فلما كان
اليوم التاسع قالت ان احد جيراننا قدم من الحج بعد قضاء العج والثج
والعادة فى مثل هذا المقام فابتدرت وقلت بان يقابل بالاكرام قالت
وبشى مماباع ويشرى انه كان عند ربك برا فقلت انت ادرى الورى

(بما هو)

بما هو احرى وبما يكسب الثنا والذكرى فلما كان اليوم العاشر قالت ان احد الجيران قدم من سفر وكان اهله يحسبونه انه ممن خبر اذطال غيابه ولم يرج ايابه فالليلة احضروا آلات الطرب وتهيأوا للتهنئات وهي عادة العجم والعرب

* وما اخال احدا ذا رشد * يانف من جمع كنوز الحمد *
* الحمد كنز ليس يفنى ابدا * وكلما انفقت منه تلدا *

فقلت

* لاشك ان الحمد كنز باق * يزيد اضعافا على الانفاق *
* لكن اراه فانيا عن امم * عند فراغ الكيس ويك فاعلمي *

فقالت

* من كان يخشى من نفاد الدرهم * فلن يحوز الحمد عوض فافهم *

فقلت انت ادرى بالحمد والمال والحال والمآل فدونك ماجنحت اليه وعزمت عليه فلما كان اليوم الحادى عشر قالت ان جارناقد ام بناء داره وهي احسن مارات عيني من البناء وقد اتى بالقراء والمطربين لاتمام الهناء وقد جرت العادة بان تبادره الجيران بمايلزم لها من الاثاث وهي من العادات المألوفة التي لايتطرق اليها انتكاث فقلت حسبنا الله ونعم الوكيل على هذا التعليل اليس الذي يبني دارا بقادر على تاثيثها وفرشها من منصتها الى نعشها فقالت اذا كنت لاتعمل بالعادات فعليك بسكنى الفلوات والخلوات لابسكنى المحلات فقلت ياامراة هذه الحال تفضي بنا الى الخراب فنصبح اذلاء عند الاصحاب قالت واين انت من الثواب فانه الزم لنا من الباب والطعام والشراب ثم كررت القول واعادت وصممت على ما ارادت فقلت دونك ما عندنا من الماعون فاصرفي به عنا سوء الظنون قالت لابل ينبغي ان يكون من السوق جديدا لاعهيدا فقلت تالله لم تخلق منك الساق الاللسوق فدونك هذا المشوق العشوق فلما كان اليوم الثاني عشر قالت

ان الخادم صنع شيا زائدا على ما تعين عليه من الخدمه فلابد من مكافأته بنعمه قلت وما هذه النعمة النقمـه قالت تخت من الثياب وفيه الاجر والثواب فقلت لك ذلك وقانا الله من المهالك فلما كان اليوم الثالث عشر رجعنا الى الدور الاول اى الزواج والولادة والختان فان جيراننا كانوا بحمد الله تعالى وببركات دعآء امراتى أكثر من ان يحصيهم قلم ولسان فقلت اسمعي ايتهـا المرأة وارشدى وانصتى واقصـدى اما ان تعدى عن هذا الانفاق وعن تكاليف مالا يطاق والافا لفراق او الطلاق فابرقت وارعدت واوعدت وتهددت ودعت بالويل والثبور على كل رجل بخيـل وحصور فلم يسعنى الا الفرار من الدار والاستتار من مرافعتهـا لى عند ذوى الاقتدار فانى اعلم عين اليقين ان ضلعهم يكون معها فاكون من المرهقين فهـذه قصتى وغصتى ومحنتى ونغصتى ولى قصة أخرى امض من هذه وافجع واضر واوجع ان شئت سردتهـا عليك والامر اليك فقلت ان كانت انبـآء عن عادات هذا البلد فهى منة على اشكرها لك مدى الابد فانى اريد ان اعرف جميع هذه العادات لادونها فى كتاب مخصوص على نسق عجائب المخلوقات قال فاسمع اذا انى اخلصت خدمة لامير مشهور فى عصرنا بالفضـل والكرم وعلو الهمم فاجازنى عليها جائزه طوبى لنفس بهـا فائزه الا انه كان من الاصـل المقرر والامر المقدر ان استمنح من وكيله حوالة بها على بعض الصيارفه الذين صيرهم المال من الغطـارفه فقلت فى نفسى انى أكبر هذا الوكيل بالالقـاب الحسنى واصغر نفسى لديه كما هو شـان الادنى اذا خاطب الاعلى الاسنى فكتبت اليه ايهـا البدر الاتم والاثير الذى نوره عم والبحر الخضم يامن لفظه احلى من الضرب ومعناه اعز من الذهب يامن يقصده القريب والبعيد وتعنو الاعزة بين يديه كالعبيد انت الذى ملأت المسامع محامده وشملت جميع الخلق فوائده ما ذكـر احد فى الفضائل الا وكنت خيرا منه وافضل واكرم وامثل وامجد واشرف وابر

وارأف اليك ينتهى الفخر كله ومنك يعلم الفضل اصله وفصله انت روح العالم وحياة بنى آدم انت نور الاكوان وبهجة الزمان ها انا عبدك الذليل المستظل فى ظلك الظليل الداعى لك آناء الليل واطراف النهار والمستجير بك من الاعسار امرغ خدى على اعتابك واكحل عينى بترابك والتمس من مكارمك الطامه وفواضلك العامه ان تنعم على بكتب سطرين الى الصراف المعلوم لاقبض منه المبلغ المرقوم ومثلى من استجدى ومثلك من اجدى فدم عزيزا مكرما مبجلا معظما موقرا محترما ممجدا مفخما انت خير الورى واشرفهم بلا مرا ثم كان ايضا من الاصل المقرر والامر المقدر ان هذا الاسترحام لابد وان يصل الى احد اعوانه اللئام فقال العون تالله لاكيدنه ما كان له ان يحصل على هذا المال الابعد ان يودى الى البخشيش مفتاح الآمال وخاتمة الاعمال بجمال يدافعنى ويماطلنى ويمينى ويحاولنى ويراوغنى ويخاتلنى حتى ضقت به ذرعا وذقت من التردد عليه نزعا فكم من وحول خضتها وامطار اجرضتها ورياح عرضت وجهى لهـا حتى كدت احرض ولهـا ثم قدر الله ان ظفرت به وهو راكع ساجد خاشع عابد فصرخت فى اذنه ايها التقى الاروع الاعبد الاخشع اما حان لك ان تلتفت لفتة واحدة الى الحق وتعطينى ذلك المهرق والله لئن لم تبرزه الساعة لاشكونك الى رئيس الديوان ولاجلبن عليك الخزى والهوان اما تستحيى من ان تركع لله وتاكل حق عباد الله فلما راى من الجد وانى فى تحصيل الجائزة مجد اسرع الى اعطاء الحواله وقنط من اخذ العماله اعنى البخشيش الذى هولكل سؤل سبب وآله فاخذتها وسرت الى كاتب الصراف وقلت فى نفسى سافخه بالنعوت والاوصاف فلعله يكون من اهل الانصاف فلما ان لقيته وسلمت عليه وحييته قلت له ابيت اللعن ايها الكاتب الالمعى الحاذق اللوذعى الذى يخاف من آثار قلمه على المهارق مايخاف من اثر البوارق والصواعق الذى له المقام الاعلى والبيان الاجلى كم لك من مأثرة تذكر

ومنة تنكر وصنيعة كأنها الاطواق فى الاعناق اوكالشمس فى الاشراق
ياايها البدر المنير والشهم الخطير انى جئتك بهذه الحواله فاصرفها
لى بحقك فانك خير من يرجو الناس نواله فأخذها وكأنه استكثر المبلغ
المرقوم فيها واضمر ليمحو فهما بالجنبيش من حواشيها فقال ياخيبة
الآمال ماعندنا الساعة مال قلت لاتقل هكذا بحياتك فهو مباين لشرف
صفاتك ولطف ذاتك فقال هو كما قلت لك فلا تضع فى المجئ الى عملك
فقلت ماهذا داب الصرافين المليئين ولكن عدنى الى حين قال لاوعد
ولا تاجيل فلا تصدع راسى بالتطويل قلت انى ذو قلم مثلك فان شكوتك
الى صاحب الامر استقبح فعلك واسترذل اصلك بل ربما عزلك واحبط
عملك ففكر ساعة ثم قال ويلك ماكنت احسبك من ارباب هذا المقال
ولكن ائتنى اذا بعد خمسة عشر يوما واكفنى فى خلال ذلك عذلا ولوما
فسرت اليه فى الوقت الموقوت والاجل المسأوت فتوارى منى كما كان
يتوارى عون رئيس الديوان فكأنهما فى الشر صنوان ولم يزل على
حالة التوارى منى حتى ند الصبر عنى فانظر بالله الى هذه الاحوال والى
هذا الفساد والاختلال افيسوغ فى البلاد المتمدنة لوكيل صراف ذى بال
ان يقول ماعندنا مال او ان يتوارى عن طالب الحق ويظل بين الناس
معروفا بالصدق وماذلك الا لاجل الجنبيش الذى صار فى هذا العصر
قوام المعيش فما رايك فى هذه العاده وما عندك فيها من الافاده قال
الراوى فقلت له نحمدالله على فقد هذه العادة من بلادنا فهى غير
معروفة عندنا ولاعند اجدادنا ولوكان شئ منها معروفا لكانت
كتاب الاخبار تقبحها فكان كل امرئ عنها مظلوفا وهذا هو الفرق
بيننا وبين سائر الامم غير المتمدنه والتى بقيت على الطريقة القديمه المستهجنه
وهو انا نسعى فى ازالة ما عندنا من الشر والفساد وفى اصلاح حال
العباد فاذا رأينا من يحمد اذى الناس سنعنا عليه فى الصحف المنشوره
والاخبار المأثوره حتى يسلم الخلق من ضيره ويكون عبرة لغيره ولعمرى

لولاتلك الصحف لتمادى الناس فى الشنار ولجوا فى الاستهتار فكنت تجد القوى ياكل الضعيف والغنى يسترط الفقير وماكان لحرمة المظلوم من مجير لان الشر مغروس فى طباع جميع بنى آدم فهم فيه امثال سوآء من تاخر منهم ومن تقدم بل المتاخرون لهم منه الحظ الاوفر والنصيب الأكبر وكذلك اقول ان شرور المتمدنين المترفين اكثر من شرور الهمج الخشنين الطلفين لان الهمج لايورون الجنبش دينا ولايتخذونه لكل ارب اربونا فهذه الطريقة المستعملة هنا نصفها من التمدن ونصفها من عدم التدين وكثيرا ماتتشابه الامور وتختلط ما بين مقبول ومنكور اما انا فانى انكر كل ما رايته من احوال هــذا البلد اذلم ارمنه سوى النكد ولاسيما طريقة البخشيش والتوصل اليه بالحيلة والمكر والخيانة والغدر وانى ان شآء الله تعالى متى رجعت الى اوطانى وانست برؤية اخوانى انهضتهم جميعا الى تشهير هذه الطريقة الذميمه وعواقبها الوخيمه ومن الواجب على كل مومن صحيح الايمان ان يسعى فى ازالة الظلم والعدوان سوآء كان بعمله وطبه اوبلسانه اوبقلبه فهذا عندى هو المومن الاصيل وغير ذلك كله تدليس وتضليل هذا وانى اصبرك على مانابك من اهلك وادعوك بجمع شملك واستودعك الى من عنده علم الحقائق واودعك وداع محب صادق قال ثم تعانقنا وتفارقنا وعلى لعن الظالمين توافقنا وتوا فقنا

في بيع الرقيق بالاستانة

قد تقرر فى خواطر اصحاب البيوت الموسرين وغير الموسرين بالاستانة انه لابد من شراء الجوارى البيض والسود لخدمتهم اوللتمتع بهن فتجد فى بيت الموسر عدة منهن والغالب ان الجوارى السود يخدمن فى المطبخ واما الجوارى البيض فانهن يستخدمن فى تنظيف الحريم والفرش والخياطة وما اشبه ذلك ومن العادة انه متى اراد احد ان يشترى واحدة من هذه الجوارى ابقاها عنده يومين اوثلثة للتجربة فتظهر الجارية

فى خلال ذلك غاية الخضوع والانقياد والاجتهاد فى اشغال البيت والحرص على تنظيف آنيته وفرشه ويظن الانسان انه قد ظفر بضالته التى يطلبها حتى اذا ادى ثمنها تخلقت باخلاق اخرى فتتقاعس عن العمل وتاخذ فى تعداد محاسن البيت الذى كانت فيه اولا فتقول انى كنت هناك آكل كذا واشرب كذا وكنت اتنزه فى الحدائق واتنعم فى الحمام واخرج الى الاسواق وكان لى جارية مخصوصة لخدمتى لان سيدى الاول كان يفضلنى على جميع جواريه بل كان يحبنى حتى غارت زوجته منى فخاصمته لاجلى وحيث كان له منها بنون وبنات لم يسعه اغضابها فباعنى وهو الى الآن يحبنى ويود انى اعود اليه ثم تاخذ فى استعمال حيل ومكايد تستميل بها قلب سيدها الثانى اليها فتتبعه الى مواضع خلوته وراحته لانها تعلم انها اذا علقت منه تعتق فلذا تجعل اقصى همها واربها فى الحصول على الحرية من هذا الوجه فان من يملك جارية لايعتقها الا اذا علقت منه اواذا كان قد مضى عليها فى خدمته سبع سنين وربما اعتقها لوفاء نذر عليه وذلك كان يقول انى اذا حصلت على منصب اوتزوجت فلانة اعتقت احدى جوارى فاذا علمت ان سيدها معرض عنها ملت الاقامة عنده فتاخذ فى كسر آنيته واتلاف حاجته وفعل مايغيظه ويغيظ زوجته رجاء ان يبيعها فاذا سالتها سيدتها لاى شى كسرت الحاجة الفلانية قالت لها ان ثمنى اغلى من ثمنها وان هى الا حويجة فلا ينبغى ان تشغلى خاطرك بها ولا تزال تاتى مثل هذه الافعال حتى يضطر سيدها اوسيدتها الى بيعها ولا يكون ذلك الا بخسارة وهى من الف قرش الى الف وخمسمائة هذا فى الجوارى السود اما فى الجوارى البيض فاضعاف هذا المبلغ وهنا مفسدة قد تواطا عليها الذين يبيعون الرقيق وهى انهم يغرون هولاء الجوارى بعدم الاقامة عند من يشترين فاذا عزم احدهم على بيع واحدة منهن قال لها لا تمكثى عند سيدك الا اذا ارضاك تمام الرضى فاذا كان لايرضيك فاطلبى منه ان يبيعك

وانا ارى لك موضعــا آخر يليق بك والقصــد من ذلك منفعة نفســه لامنفعة الجارية لان مالك الجارية اذا اراد بيعها فانما يبيعها فى الغالب لمن اشتراها منه وذلك لا يكون الا بوضـع من ثمنها الاصلى كما تقدم ومع ان اقصى مرام هولآء الجوارى هو التفريق مابين الرجل وزوجته او افساد بنيه ان كان له بنون او افساد امرأته حتى يستحوذن عليها فما احد من اصحاب البيوت تنبه الى الآن لاستئصال هذا الشر فتراهم ابدا مدخلين جارية ومخرجين اخرى وهذا مع عسر الاحوال فى هذه الاوقات من اعجب العجائب والظـاهر انه لاعلاج لهذا الدآء لان النسآء الفقيرات من الترك يستنكفن من الخدمة بل يحسبنها معرة فلا يكون بد والحـالة هذه لاصحاب البيوت من شرآء هولآء الجوارى المفضى الى خراب بيوتهم فكم لعمرى من بيت خرب بسببهن اما بتطليق الرجـل زوجتـه وام اولاده فى حب واحـدة منهن واما باسرافه عليهن ان رضيت الزوجة بالاقامة معـه واما انهن يحرقن البيت بمـا فيه تشفيا من حنقهن على سـيدتهن واما لسبب آخر ولا اكثر من الاسباب التى تخرب بها البيوت العـامرة على انك اذا تأملت فى اصل بيع هولآء الجوارى علمت انه فاسد لايسوغه مسوغ سوى العادة اذ هو مخالف للانسانية فضلا عن كونه مغايرا للدين اما الجوارى من الجركس فكل يعلم ان اهلهن واقاربهن هم الذين يبيعونهن وذلك لعدة اسباب احدها ان الجراكسة فى الزمان القديم كانوا يغيرون على اعدائهم ويسبون منهم وكانوا يبيعون السبى ثم اختلط سبيهم بذراريهم فلم يمكنهم تمييز احدهمـا عن الآخر والثـانى انهم كانوا يزعمون ان بيع الجوارى والغلمـان فى الممالك العثمـانية الاسـلامية اولى من اقامتهم تحت حكومة الروسية والثـالث ولعله اعظم الاسباب انه يبلغهم عن دار الخلافة انهـا دار عز وسعادة وثروة ووجاهة فاذا باعوا ذريتهم لاحد من عظمائها رجوا ان ذلك يكون فى المستقبل مفيدا لهم فضلا عن فائدة الثمن حتى ان البنات ليلتمسن من آبائهن بالحاح ان يبيعوهن اذ يزعمن انهن متى جئن

الى دار الخلافة وجدن جميع ابواب الحظ والرفاهية مفتحة لهن فيلبسن الديباج ويتحلين بالماس والزمرد والياقوت والدر والمرجان ويتنعمن فى الحمام ويتنزهن فى الحدائق ويركبن الكروسات البهية ويتكئن على الارائك المزخرفة ويرقدن على فرش مرفوعة محشوة بريش النعام ويتلذذن بافخر الطعام ويقوم بين ايديهن عدة من الوصائف فاين هذه العيشة من عيشة الجبال ورعاية الماشية وجمع الحطب وحمل الاحمال الثقيلة مع التقشف والتردى باخلاق الثياب وتحمل حر الصيف وبرد الشتاء وفى الحقيقة فان كثيرا من امانى هولاء الجوارى قد صح ووقع فعلا وكثيرا من اولئك الاباء الذين طابت نفوسهم عن بيع ذريتهم قد انتفعوا بغيابهم عنهم اكثر من نفعهم بحضورهم عندهم فان الاب متى عرف ان بنته استقرت فى دار احد الامراء وحظيت عنده اتاها حينا فحينا ونال من فواضل سيدها مايطيب عيشه به ولقد بلغنا عن كثير من هولاء الجوارى انهن يعترفن جهرا بانهن حرائر وان بعض اقاربهن هم الذين باعوهن لنفع كل من الفريقين الا انهن يخترن عيشة الاسر على عيشة الحرية فانهن فى حالة الحرية مجهودات لايظهر لهن مع جهدهن حسن ولاجمال فما يتصبين والحالة هذه احدا من الناس بخلاف ما اذا ترفهن وتنعمن فى حالة الاسر فانهن يطمعن حينئذ فى ان ينتقلن من دار الى صرح ومن غنى الى اغنى الى ان يتمتعن بجميع لذات المعيشة فبقى لنا هنا ان نسأل اهل الرشد والانصاف هل يجوز للاب ان يبيع اولاده لاجل هذا النفع ام يجوز ابقاء هذه العادة الذميمة مراعاة لشهوات الاغنياء القادرين على مشترى الجوارى وهل احد بذل جهده عند شراء واحدة منهن فى تحقيق معرفة حالها ليعلم هل هى حرة اوسبى كلا وانما هى نهمة البطرين المترفين على تملك هذا الجيل لما تقرر فى عقولهم من ان وصائف السراية السلطانية منه فيتهافتون عليهن كيفما اتفق لعمرى ان من ولد فى دار الاسلام مسلما لجدير بان يكون حرا وان كان ابوه اوجده

اسيرا ولكن متى كان هذا الاسر واين الدليل عليه وكيف امكن للجراكسة ان يحفظوا علم ذلك عندهم مذ مائتى سنة وكثيرا ما ترى احدهم قادما الى الاستانة ومعه اطفال صغار يشبهونه خلقا وهيئة فاذا استبعته احدهم باعه فى الحال فكيف يمكن ان يحكم بان اصل هؤلاء الاطفال اسرى وهم يشبهونه وهب ان اصلهم من السبى فكان من الواجب ان كل من يضع قدمه فى ارض الاستانة يصير حرا ومع ان الدولة العلية قد نهت عن بيع الجراكسة منذ سنتين فاكثر وبذلك طبلت جرنالات الافرنج المنشورة فيها وزمرت فلم يزل هذا الامر مباحا لكل احد فكل من اراد ان يشترى جارية بكرا كانت اوثيبة وجدها على طرف الثمام * واما تشريف الجوارى السود لهذه الاوطان فله سببان احدهما ان سكان البلاد المجاورة لبلادهن يختطفونهن خطفا ثم ياتون بهن الى بعض الجهات التى يروج فيها بيعهن ويبيعونهن بثمن بخس والثانى ان قبائل بلاد السودان الذين دابهم القتال وشن الغارات والنهب متى ظفرت قبيلة باخرى باعت نساءها واولادها وافنت رجالها والذى يفهم من كلام الجوارى ان اولئك القبائل مسلمون فاذا اخذنا بقولهن واعتبرنا طريقة الحلف حكمنا بان بيعهن حرام قطعا واذا فرضنا ان تلك القبائل ليسوا على الاسلام فالسياسة تقتضى منع هذه التجارة الذميمة فان دولة الروسية قد حررت جميع من كان فى بلادها على حالة العبودية وكان مقدارهم عظيما وكذلك دولة اميريكا الشمالية حاربت سكان الجنوب اربع سنين لابطال العبودية من ارضها مع ان اهل الجنوب كانوا من ذوى قرابتهم والآن لايوجد فى الروسية واميريكا احد رقيقا فكلهم نالوا الحرية التامة فاجدر بالدولة العلية ان تعتق من فى بلادها من العبيد والاماء جير انا اجدر الناس جميعا بهذا العمل الخيرى من عدة اوجه اولها ان هؤلاء الجوارى لايحسن الخدمة اللازمة لاصحاب العيال

فانهن لايعرفن الخياطة ولاغسل الثياب ولاتنظيف الديار ولاتنضيد فرشها حتى الطبخ لايدرين منه شيا معجبا لذى الذوق السليم مع انهن انما يشترين له والثانى ان عددهن بالنسبة الى عبيد اميريكا قليل جدا وان يكن فى كل دار من ديار الاستانة واحدة منهن او اكثر اذ داخل المملكة خال بحمد الله منهن فلا تكاد ترى لهن هنالك عينا ولا اثرا وان رأيت فانما يكون فى بيت احد المامورين الذين ساروا من الاستانة الى بعض المدن فى خدمة ما للدولة فانهم اذا استخدموا فى الخارج نقلوا معهم من كان عندهم بالاستانة من العبيد والجوارى والاتباع والثالث ان هولآء الجوارى شكسات الاخلاق متكبرات لايقبلن التاديب والتربية اذ يزعمن ان النبى صلى الله عليه وسلم كان من السود وهذا مسبب عن احد امرين اما لاعتقادهن ان اللون الاسود خير من اللون الابيض حتى انهن ينبزن البيض بحمر الآذان واما لان اهل الاستانة يدعون جنس السود عربا ماعدا الجوارى اللاى كن فى مكة والمدينة فانهن يعرفن ان هذا الزعم باطل الا انهن يكتمن ما عرفنه من هذه الحقيقة والرابع انك لاتكاد ترى واحدة منهن سليمة فى العقل والبدن اما فى العقل فلانهن جميعا يعتقدن بوجود روح من الارواح التى تتولى افعال بنى آدم فى زعمهن ويقال له بلغتهن برى فيزعمن انه يتنابهن فى المنام ويامرهن وينهاهن فيقول لهن مثلا لاتمكثن فى هذه الدار فانكن تبتلين فيها بشر وسوء فمهما تكن المرأة منهن مستريحة فى الاعمال والاشغال عند احد فاذا رات الروح ينهاها عن الاقامة عنده طلبت منه ان يبيعها ولهن يوم معلوم فى السنة يجتمعن فيه ويبدين من الكلام والحركات مايعجب منه فمنهن من تنطق بالمغيبات ومنهن من تلطم صدرها وتجرح نفسها كما تفعل العجم فى يوم عاشورآء ومنهن من تذبح ضحية لو فاءنذر ومنهن من تضرب بالدف او تغنى كل ذلك لارضاء البرى وايفاء ما اقترحه عليهن واما فى البدن فلان هوآء اسلامبول شديد عليهن فاذا بلغن سن الكهولة صرن لايصلحن

(لشئ)

لشئ من الخدمة والخامس انه قد صار من العادة فى هذه الايام الاخيرة ان ذات المقام من الحرائر تستحيى من ان تستصحب الى الاسواق والشوارع امرأة سوداء وانما تؤثر الجوارى البيض لان اصل مشترى السود للمطبخ والسادس انه يظهر ان الدولة العلية يعنيها ابطال العبودية فقد نهت عن بيعهن فى المزاد الا ان النخاسين لما لم يكن عليهم رقيب دائم من طرف الضابطية وكان حب الكسب مستحوذا على قلوبهم من اى وجه كان لم يكن ليردعهم عن المزاد نهى ولا امر فهم يأتونه اليوم كما كانوا يأتونه فى السابق وعندى ان البيع فى البيوت وفى المزاد على حد سوى كلاهما خبيث والسابع هو ان هؤلاء الجوارى لايخرجن الى السوق لشرآء مايلزم لما لكهن من المأكول والمشروب وانما يخرجن للتنزه اوللحمام فاذا لزم للمالك شئ من ذلك تعين عليه ان يذهب بنفسه ويشتريه اوانه يستخدم رجلا مخصوصا وحينئذ تقوم الحيل والمكائد المفضية الى الفساد بينه وبينهن وهنالك اسباب اخرى عديدة توجب على كل ذى همة ومروءة ان يسعى فى ابطال هذه العبودية من الديار الاسلامية وفى اتخاذ طريقة تغنى عنهما *

﴿ فى الفرق ما بين الغرب والشرق ﴾

قد اختلفت الاقوال على اصل الفطرة البشرية فمنهم من زعم ان الولد مفطور على الشر فان ما يشاهد فى طباعه وهو رضيع من الحرص والشره والحيلة والحسد والمكر اكثر مما يشاهد فيه من الاحوال المحمودة ومنهم من زعم انه مفطور على الخير الا ان الاحوال العارضة تلجئه الى استعمال تلك الخلة وكيفما كان من هذا الخلاف فان التربية تغير هذه الاخلاق فاذا احسنت تربية الولد حسنت اخلاقه وان اردأتها ردؤت فهات الآن ننظر فى تربية اهل الشرق لاولادهم ونطابق ما بينها وبين تربية اهل الغرب ثم ننظر فى تأثيرها ونتيجتها فى كلا الفريقين فنقول اولا ان الامهات فى الشرق يربين اولادهن

في الوساوس والاوهام والاضاليل فيقلن لهم مثلا ان العفريت او الجني يترصدهم ويصاحبهم وانهما يأتيانهم في الليل ويبطشان بهم وان القاء الماء على الارض من غير طلب دستور يحملهما على الغيظ وما اشبه ذلك فيربى الولد على هذه الاوهام هيوبا هلوعا مخلوع القلب واذا رأى الولد ان خوادم امه ايضا على هذا التضليل تيقن ان كل مايسمع من امه صدق وان جميع الامهات مثلها اما اذا كان الولد انثى فانها لاتسمع من امها الا اسم الزواج والطلاق وقصة فلان مع فلانة وحكاية فلانة مع فلان فتعتقد البنت ان النساء لم يخلقن الا للنكاح والطلاق فما ظنك بصبي يربى بلا قلب وبنت تنبت بلا عقل فان قلت ان الاولاد تذهب الآن الى المكاتب وتتعلم فيها القرآءة والكتابة قلت ان ما يتعلمونه في الكتب لاينفي عنهم تلك الاوهام التي تعلمها عليهم امهاتهم في البيوت واذاهم حفظوا كلام الله عن ظهر الغيب فلا يفهمون معناه بل المعلمون انفسهم لايفهمونه فعندي ان اهمال الولد من غير تربية اصلا خير من تربيته على هذه الاضاليل لانه اذا بقي على فطرته الاصلية جاء حوشي الفؤاد مقداما ذا نخوة وهمة فيكون العدم هنا خيرا من الوجود ثم انه لما كان من طبع الانسان الاعجاب بنفسه وحمل جميع الخلق على التخلق باخلاقه والتطبع بطباعه كان جل قصد الامهات ان يشربن اولادهن جميع ماعندهن من الوساوس والهواجس الغريزية فيهن والمكتسبة والتالدة والطريفة ومعلوم ان الاولاد بما انهم من صغر السن وضعف البنية لايطيقون تحمل ما تطيقه امهاتهم القارحات وانه متى تمكنت هذه الاوهام من عقولهم فلايعود سهلا نزعها منها فما ينزعها الا التغرب عن الوطن ومطالعة الكتب وفي الجملة فان معظم الاولاد في البلاد الشرقية تفسد عقولهم بملازمتهم امهاتهم من قبل ان يعرفوا الطريق الى المكتب فاذا صاروا اليه بقوا على ما كانوا عليه فان الولد يصدق امه اكثر من معلمه ويمكن ان يقال ان هؤلاء

النسآء معذورات على تربية اولادهن على الوجه الذى تقدم فانهن لايعرفن غيره وهو الذى الفته وتعودن عليه فلاغرو ان يعودن عليه اطفالهن وانما الذنب على الرجال حيث يتركون نسآءهم على حالة الجهل والغباوة بل هولآء ايضا يظنون ان المرأة لم تخلق الا للفراش فلذا كان همهم كله فى ان يكون لهم ازواج حسان بقطع النظر عن تحليهن بالمعارف والادب فاذا كانت المرأة تحسن المشى فى الدار وكلما ناولت زوجها شيا ابدت له التمنى كما تقول العامة فذلك هو المراد حتى اذا لبثت عنده سنة ورأى نفسه ان قد شرهت الى اخرى استعمل جميع الوسائل الى اشباع نفسه من هواها وهلم جرا الى ان يجتمع عنده فى الدار طائفة من النسآء الغيارى وطائفة من الاولاد الحمق فاذا كان ذا مصلحة مهمة سوآء كانت لنفسه اولغيره فاته ضبطها والقيام بامرها فذلك الجمال الذى شره اليه وتهافت عليه يكون سببا فى هلاكه لعمرك انه ما من رجل بمفرده ولامن رجال بجملتهم بل قوم بل امة اكثرت من النسآء الا وآل امرها الى الخراب ولاسيما النسآء المسرفات اللواتى يشرهن الى الديباج والحلى الفاخر والزيارات والاعجاب بمالديهن انظر الى مدينة كذا كيف اصبحت خرابا يبابا بعد ان كانت اعمر جميع المدن واوفرها ثروة وعزا وما ذلك الا لان اهلها انهمكوا فى النسآء واقبلوا على الشهوات واللذات فكانوا لايفكرون الا فى التسرى والتعرى فثل الله عرشهم واذهب عزهم فصاروا عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن تذكر وانظر الى كورة كذا واقليم كذا ومملكة كذا وجيل كذا وامة كذا فكلهم ذهبوا مدارج الرياح ولم يبق من يذكرهم لا فى الغدو ولافى الرواح وما ذلك الا لانهم اكثروا من النسآء واستهتروا فى حب السلاح وظنوا انهم لم يخلقوا الا للسفاح والنكاح فغفلوا عن العدو وكان لهم بالمرصاد فادركهم وهم لا يستطيعون دفاعا عن انفسهم فدمرهم اى دمار واذاقهم اى خسار وما شى باهون من الاستدلال على صحة ما قلناه

فانا وجدناه فى جميع تواريخ الامم فاذا بحث فى هــذه الكتب عن سبب انقراض دولة اليونانيين والرومانيــين ودولة العرب فى الاندلس ودولة الفرس والكلدانيين والهنود وجدت الامر كما قلناه فان تلك الامم كانت تتوغل فى حب النسآء وتقبل على القصف والخلاعة والغنآء والطرب فيقيض الله تعالى لهــا امة متوحشة جافية فتسطو عليها وتذلها وتنزع منها الملك وهذه حكمة من المولى عز وجل يرشدنا بها الى الصواب والتفكر فى عواقب الامور فان كل ما يحدث فى الكون ينطق بلسان فصيح عن قدرته تعالى وتصرفه فى الخلق فما ينبغى لنا والحالة هذه ان نترقب منه الوحى فى كل يوم فيمــا قدره علينا ولكن علينــا ان نقيس امورنا بامور غيرنا وحينئذ نعلم منقلبنا فاما ان ظننــا انا لا نصير مثلهم لكوننا فى ارض غير الارض التى كانوا فيها او لكون لساننا غير لسانهم فذلك هو الضلال بعينه ولقائل هنــا ان يقول ان الفســاد فى ممالك اوربا اكثر منه فى غيرهــا اذ من المسلم ان الفواجر فيهــا اكثر من الفواجر فى الممــالك الشرقية ولا سيما ان شرب المسكرات هنالك حـــلال ومع ذلك فان دول اوربا عزيزة تزداد فى كل حين سطوة وشانا والجواب ان وجود الفواجر عندهم هو من قبيل ما تحتــاج اليه الطبيعة كالاكل والشرب والدفء فى وقت البرد مثلا لا للانهماك فى هواهن والباسهن الديباج والاستبرق فاذا فرضنا ان فى باريس ثلثين الفا او اربعين الفا من هولآء النســآء لزمنــا ان نلاحــظ انه يوجد بها مائتــا الف من الاعزاب فيذهبــون اليهن كما يذهبون الى مواضع الاكل سوآء هذا ما تقرر عندهم واستحسنوه وان كان فى نفس الامر حراما لكنه لم تجر العادة لاحد من كبرائهم واغنيائهم ان يبنى له دارا رحيبة ليملأها بالنسآء الجاهلات ثم يستولدهن اولادا حتى مخلوعى القلوب فالام هــنالك ترشح ابنها للعــلم والادب والفضائل قبل ان ترسله الى المكتب فيتعلم منها ومن معلمه ايضا انه يجب عليه اولا احترام والديه والسعى فى تعــلم صنعة ينفع بها نفســـه ووطنه وبلاده ودولته وملكه

فهما تاقت اليه نفسه من الصنائع والعلوم يجد له فيه مغنما فيتعلم ويجد ويكد وهو معتقد بانه ماعدا نفع نفسه وذويه يجب عليه ان ينفع بلاده ايضا حتى اذا انشئ مستشفى للمرضى مثلا اومكتب للفقرآء او مأوى لهم كان هو من جملة من يعين عليه فتراه يمشى الى المكتب وهو مسرور مستبشر بانه عضو من اعضآء قومه وناسه ولابد من انه ينفع وطنه يوما من الايام فكم من فرق بين من يربى هكذا وبين من يفزع ليله ونهاره من العفريت من اجل ذلك ترى اولاد الافرنج عزيزة النفوس وهم على صغر ولهم نشاط وخفة ومبادرة بخلاف الاولاد فى الممالك الشرقية الماهولة بالجن والعفاريت على كثرة مساجدها وعلمائها فانك ترى الاولاد فيها ثقالا بطاء متقاعسين متراخين وكل ما يفعلونه فهو عن تكلف فاذا تسلم احد منهم ان يكتب سطرا واحدا ظن انه قضى وطره وحلب الدهر اشطره فلم يبق عليه الا ان يكتب رقاعا لاستخدام الجن وذلك هين لانه كما ان فى المكاتب معلمين يعلمون ان البآء لها نقطة من تحت والتآء لها نقطتان من فوق كذلك يوجد فى الدكاكين والبيوت كثير من الخوجات قد اختصوا بهذا العلم الجليل اعنى جمع الجن * هذا من جهة تربية الاولاد فى بيوتهم وفى المكاتب اما من جهة تعليمهم الصنائع والتجارة فلعمرى ليس فى الممالك الشرقية طريقة يعتمد عليها فى ذلك فكل من ملك الف قرش مثلا واراد ان يتعاطى البيع والشرآء فما هو الا ان يستاجر دكانا وينضد فيه بعض المتاع وان كان اميا لايقرا ولايكتب ولايعرف من امور التجارة شيا ومن اراد ان يتعلم صنعة لازم معلمه مدة غير محدودة فربما لبث معه سنة اواقل حتى اذا خطر بباله انه مهر فى الصنعة فارق معلمه فراق المعلوض المبارى وفتح دكانا تجاهه وليس الحال كذلك فى اوربا فان من قصد التجارة فيها لزمه ان يمكث مدة طويلة فى مكتب بعض التجار المعتبرين ليعرف احوال البلاد التى تجلب منها البضائع واحوال التجار وترتيب دفاتر الحساب وضبطها وماناسبه

ذلك فالتجارة عندهم هي فن من الفنون العظيمة والتجار عندهم اعتبار زائد وهم مشهورون غالبا بالصدق والامانة والضبط ولاسيما الذين يرسلون البضائع او يجلبونها فشانهم اعظم من شان الملازمين للدكاكين ومن حسن ترتيب البيع والشرآء عندهم هوانك اذا اردت شرآء شي في دكاكينهم وجدت سعره مرقوما عليه سواء كان كثيرا اوقليلا فلاتحتاج معه الى المقاولة فتشتري مايرمك وانت مطمئن الخاطر لعلمك ان الثمن الذى دفعته فيه هو مايدفعه غيرك بخلاف العادة هنا فانك لاتكادتشترى شيا من تاجر الا وتحسب انه غبنك فيه لانه اذا كان المتاع يساوى مائة قرش تقاضاك مائتين فتقول له غيرك يبيعه باقل من هذا فيقول غيرى ليس عنده من هذا الصنف وانما عنده مايحاكيه فتقول خذ منى ثمانين فيحلف انه اشتراه بمائة وخمسين فاذا رآك قد اعرضت عنه وكدت تفارقه قال انى مضى على خمسة ايام ولم ابع شيا وان على ان ادفع اجرة هذا الدكان واجرة دار وعلى ايضا مؤنة عيال فاكراما لك ومراعاة لمقسامك ابيعه لك بقيمته الاصلية وبغيرذلك لايمكنني فتقول له زدتك خمسة قروش فيطوى المتاع وياخذ فى الدمدمة والبربرة والثرثرة فاذا فصلت عنه وقصدت غيره ناداك بصوت عال تعال تعال فانى اريد الاستفتاح منك هذه المرة وفى المرة الآتية ان شآء الله تعوض على ماخسرته فهذا لايسمى عند الافرنج بيعا ولاشرآء وانما يسمى قمارا بل القمار دونه ضررا مع ان هولآء المقامرين لو دروا احوال التجارة لكانوا يعلمون ان الصدق فى البيع انفع لهم فانه يرغب المشترين فى التردد عليهم اما الاحتيال والغبن فينفرهم عنهم اما من اراد ان يتعلم صنعة ما فى بلاد الافرنج فيلزمه ان يمكث عند معلمه سنين معلومة فبعض الصنائع يحوج الى سبع سنين وبعضها الى خمس وفى السنة الاولى يلزم المتعلم ان يصرف على نفسه من ماله اومال اقاربه مثلا فلايكلف معلمه شيا وفى السنة الثانية له ان ياكل ويشرب عند معلمه وهكذا الى ان يتقن صنعته وياخذ شهادة بذلك

من معله وانت خبير بان الصانع الحاذق اذا عمل شيا متقنــا باعه باضعاف القيمة التى يبيعه بها الاعفك الخرق ولنضرب لك عــلى ذلك مثلا فنقول ان الافرنج يصنعون مناظر للنباظر و يغشونهــا بالصدف فيبعون الواحدة منها بنحو مأتين وخمسين قرشا واهل الاستانة والقدس الشريف يصنعون من هــذا النوع مواعين كثيرة نحو الاسكملات والمســارج ويبيعون الواحدة منهــا بنحو ثمن المنظرة مع ان صدف اسكملة واحدة يغشى مائة منظرة فى الاقل وما ذلك الالجودة الصنعة واتقان العمــل وقس عــلى ذلك ما يصنع من الخشب والحديد وسائر المعــادن ومن العــادة انه متى كثر النــاس فى مكان كثر فيه خيرهم وشرهم فربمــا تكافأا وربمــا غلب احد همــا عــلى الآخر وفى الغــالب فان الخير مكثور فى جانب الشر فمن شر كثرة الاجتمــاع فى المــدن وخامة الهوآء ودنس المنــازل ويقابله طيب العيش وكثرة وجود الاطبــآء ومواضع الادويــة والمستشفيات وهندمة الديار وحسن فرشها ومواقدها وكثرة مرافقهــا ومن عادة اهــل باريس وخصوصا فى هذه الاوقات ان الاغنيــآء منهم يبنون للكرآء ديارا رحيبة ساهقة بحيث تشتمل على غرف كثيرة فتتبوأها عدة رجال متزوجين مع عيــالهم وعدة اعزاب معــا ولايتضررون من ذلك فان نســآهم قد الفن الاختلاط بالرجال وليس مجرد الاختــلاط عندهم حاملا للرجال عــلى الغيرة والا لمــا كانت النســآء يبعن و يشترين كالرجال سوآء فلهذا السبب ترى ديار باريس كلها كأنهــا صروح تسر الناظر اليها ولاسيمــا انهــا مبنية من الحجر واذا كان فيها ديار قديمــة غير متناسبة كأن تكون دار منها كبيرة اوصغيرة ولم يكن لاصحابها قدرة عــلى تجديدها اشترتها منهم الحكومة بقيمتها ثم هدمتها وانشأتهــا عــلى منوال الديار الاخرى اما فى الندرة فالغــالب ان يكون لكل رجــل متزوج دار ولهذا كانت ديارها مختلفة المقادير والاوضــاع واذا قدمت دار بقيت كذلك الى ان يجددها صاحبها فان الحكومة لاتعنى بتسوية الديار بل تترك

ذلك لاصحابهـا واذا راى صاحب الدار مضطرا الى اكرآء شقة منهـا لغريب اكـراها فهم عـلى هذا بين المسلمين وبين الفرنسيس ولكن ديارهم فى اختلاف المقادير مثل ديارنا وعندى ان استقلال الرجل بدار له ولعيلته خير من مكثه بين عيـال كثيرة ولكن ذلك يوجب عليه كثرة المصاريف من نحو الفرش والخوادم ونحو ذلك الا ان الفرش والاثاث فى لندرة رخيص جـدا بالنسبة الى سعره فى غيرها فثمن اثاث دار واحـدة هنـا يكفى لثلاث ديار هناك اذ لايخفى ان معظم الاثاث والاقمشة فى الممالك الاسلامية مجلوب من البلاد الافرنجية واذا كان شئ مصنوعا فيها كان غاليا فانه انمـا يصنع باليد وعند النصارى يصنع بالآلات فقوة آلة واحدة منها تغنى عن مائة يد وهناك امر آخر اقوى فى الاقتصاد كبيرهم وصغيرهم وغنيهم وفقيرهم وهوانهم لايكثرون من الخدم فصاحب العيلة فى لندرة اذا استقل بدار لايكون عنده للخـدمة اكثر من امرأتين فهما تشتريان من السوق كل مايلزم وتطبخان وتنظفان الدار والاولاد وتفرشان وتوقدان النـار فى المواقد على كثرتها واكثر الناس هناك يستغنى بخادمة واحـدة اما الخـدم والحشم فلا وجود لهم الا عند الكبرآء بخلاف العـادة عندنا فان احـدنا اذا كان دخله الف قرش فى الشهر يستحى ان يمشى وحـده فى الاسواق فلابد له من خديم يمشى ورآءه وقد ترى فى ديار كبرائنا رجالا ضخاما عراضا طوالا يروعك قوامهم ويهولك قيـامهم وليس لهم شغل سوى مناولة فنجـان القهوة للضيوف فاغرب به من منظر وفى الحقيقة فان هذه القهوة صارت من المصائب وكاد استعما لهـا على هذا الوجه يحرمهـا اذهى داعية للاسراف كـيف وهى تقضى باستخدام رجل مخصوص لعملها وآخر لنا ولتهـا ثم الى اتبـاعها بآخر يتـاول قصبات الدخان فهذه ثلثة رجال قـد تعطلت عن الشغل النافع لغير موجب وكم لعمرى فى الدواوين الميرية من رجال معطلين لهـذا السبب عينه فهذه النفقات الخـارجة عن اللزوم لاتعرف الافرنج منها شيا ومن شـر كثرة

(الاجتمـاع)

الاجتماع ايضا بتباعد الحارات والمنازل بعضها عن بعض فتوجب على
الانسان المشقة والعناء ويقابلها كثرة وجود الحوافل ومعنى الحوافل
هنا كروسات اوعربيات كبيرة تسع عدة اشخاص فهى تسير
فى جميع اسواق المدن فى اوربا وفى شوارعها وضواحيها ايضا فاذا سافر
فيها احد مسافة ساعة دفع اجرتها نحو قرش ونصف فيستريح بها
من المطر والوحل وحر الشمس فى الصيف ومن مزاحمة الناس وغير
ذلك وشتان ما بين من يسير فيها وبين من يمشى فى الاستانة على رجليه
فمرة يصعد درجا ومرة يلاقى بهائم موقرة احمالا تمنعه من المشى ومرة
يتورط فى الوحل وقد طالما تمنيت والله ان يكون عندنا هنا بعض حوافل
فتقينا من المشاق والمتاعب وخصوصا من تعب السير الى بك اوغلى
الان بعض الناس يقول ان ذلك غير ممكن لعدم استقامة الطرق
وبعضهم يقول ان ذلك يغيظ الذين يقتنون الخيل للاكرآء ويحملهم
على الانتقام وبعضهم يقول ان الناس لاهمة لهم وبعضهم يقول انهم
لايبالون بالمشى والتعب فقد الفوه وعندى انه ليس لذلك من سبب
سوى سوء التدبير فانه مع وجود المال والاجتهاد يمكن تمهيد طريقين
اوثلثة لسير هذه الحوافل ومتى الف الناس السير فيها وذاقوا طعم الراحة
عرفوا حينئذ معنى التمدن وهذه المصلحة لاتعلق لها بالدولة اصلا وانما تتعلق
بجمعيات من الناس المتكسبين على حدتها فهى نظير مصلحة اكرآء
الخيل سوآء على ان كرآء الخيل هنا مع عدم دربتها على المشى غال
جدا فاذا قصد احد ان يركب حصانا من جوار اياصوفيا مثلا الى بك
اوغلى ذاهبا آيبا لزمه ان يدفع عشرة قروش فى الاقل فلوسار فى حافلة
لما دفع اكثر من ثلثة قروش اما اجرة الكروسات هنا فلايطيقها الا من
كان عنده خزائن قارون فاذا كان عيد اويوم جمعة بلغت اجرتها
فى اليوم مائة وخمسين قرشا فبهذا المبلغ بل باقل منه يمكن السفر من
باريس الى لندرة برا وبحرا وفى الجملة فان تمهيد الطرق ووجود هذه

الحوافل من اعظم اسباب الراحة والرفاهية وهي انفع من الحمامات ومن مواضع القهوة التي يجتمع اليهـا البطالون ومن العجب ان اهل الاستانة قد تنبهوا لمنافع القـابورات بعد ان كـانوا يخاطرون بانفسهم فى هذه الزوارق الميـادة ولم يتنبهوا بعد للحوافل لكن الحق فى ذلك عـلى اهل اوربا القـاطنين فى بك اوغلى لاعلى اهـل اسلامبول فكان يجب عـلى المجلس البلدى فى بك اوغلى ان ينشى حافلة ويجريهـا فى بعض المواضع ترغيبـا للنـاس فى انشـاء غيرها ولاشك انه اذا سافر الناس مرة فى هذه المحامل رغبوا فيهـا واكثروا منهـا ولكن من يبدأ بهـذا العمل ومن شر الاجتماع ايضا غلا الاسعار وضيق المعاش ويقابله اجتهاد الناس وكدحهم بمـا فيه تعمير بلادهم ففى باريس ولندرة يكسب الناس فى الليل كما يكسبون فى النهـا فان اسواقها ليلا ابهج منهـا نهارا وذلك لكثرة الانوار وكثرة تردد المـارة فاذا قارب الليل ان ينتصف قفلت الدكاكين وبقيت الانوار فى عمد الطرق ومواضع القهوة ثم انه حيث كانت بواخرهم متعددة تجول فى جميع البحار وسكك الحديد ممتدة فى بلادهم فى جميع الاقطار كـان جلبهم للمـاكولات والمشروبات غير منقطع فكلما اشتهته النفس من ذلك الفته على طرف الثمام مع توسط سعره خلافاً لمايظنه النـاس هنـا من ان ممـالك اوربا غالية الاسعـار تقضي بمصـاريف زائدة فهـذا وهم ناشئ من عـدم معرفة تلك البلاد اما جلب المـاكول والمشروب فى الممـالك الشرقية فغير مطرد فمرة تجد بغيتك منهمـا وثلاث مرات لاتجـد وذلك لقلة همة الناس وقلة البواخر وسكك الحديد ومعلوم ان الشي متى عز وجوده غلا فلذا كانت ممالك اوربا ارخص من غيرهـا وهناك طرق كـثيرة لتقليل المصروف عندهم منهـا انه اذا اشترى احد من تاجر شيا ايا كان لم يكن عليه ان يدفع اجرة نقله فـاهو الا ان يقول للتـاجر ارسل هـذا المتاع الى بيتى فى طريق كذا وقد اتفق لى فى لنـدرة مرة انى توجهت لاساهد النـاس طنل وهو قبو صنعه الانكليز تحت النهر وهو من

غرائب المشاهد فرأيت فيه صورة المحل بعينه مع منظرة خاصة بها فتاقت نفسى الى شرائها ولم يكن معى ثمنها فقلت للبائع فى نفسى ان اشترى هذه الصورة ولكن ليس معى ثمنها فقال لاباس انى ارسلها الى محلك قلت ان محلى بعيد من هنا نحو ساعة ونصف ولايظهرلى ان ثمن الصورة كثيرحتى يرغبك فى ارساله قال لوكان شلينا واحدا لما اردت ان يفوتنى قلت كم الثمن قال شلينان ونصف قلت ان محلى فى طريق كذا عدد كذا قال فى اى ساعة تريدها قلت فى ساعة كذا واذابه ارسلها فى الغد فى عين الوقت الذى ارسلته فهذا ضبطهم فى الاخذ والعطاء وهذا حرصهم على الكسب فقولنا الكاسب حبيب الله انما هو مصدق عندهم فقط وهذا الحرص وان يكن مذموما من جهة الا انه ممدوح من جهة اخرى فان الغاية منه عندهم ان يتقى به الانسان الاقامة فى الاماكن المعدة للبطالين والعاجزين فذلك عندهم من اكبر العيوب اما التكفف فممنوع قطعا بخلاف العادة عندنا فان التكفف ليس بممنوع بل لايعد من العيوب ولوكان عندنا مواضع للعاجزين لتابس بالعجز كل واحد حتى يدخلها واما ضيق المعاش من كثرة ازدحام الناس واختلاط بعضهم ببعض فيقابله كثرة نشاطهم واجتهادهم وحيلهم على تعميم موارد الثروة وتعلم الحرف والصنائع وتمهد طرق الاخذ والعطاء واستخراج منافع البر والبحر معا فتنعقد منهم جيعات لانشاء سكك الحديد مثلا ولتسيير السفن وفتح البنوك والمعامل والمصانع والمكاتب والمدارس وديار المرضى والتحف ونحوها فتدور الاشغال بينهم بالتعاون والتعاضد ويكفيك على هذا مثال واحد وهو ان الذين تعملون فى معامل مدينة منشستر بانكلترة يبلغون نحو نصف مليون من النفوس وكثير من افراد التجار بانكلترة يستخدمون فى اشغالهم ومصالحهم نحو خمسمائة نفس وقس على ذلك باقى الجيعات اما فى الممالك الشرقيه فالناس لاتعتمد الا على خدمة الدولة فهى عندهم مورد المعاش ومصدره وهى الذريعة

لتحصيل العز والجاه والشرف ومعلوم ان خدمة الدولة محصورة في وجوه قليلة من وجوه العمل وانها لايمكنها ان تستخدم جميع الناس فاوسع ابواب نفعها انما هو الخدمة العسكرية وهي بالنسبة الى كثرة رعيتها كالقطرة الى البحر وخصوصا اذا لم يكن عند الدولة معامل فتضطر الى ان تشترى المهمات الحربية من البلاد الاجنبية فهب ان الدولة تستخدم في الخدم العسكرية ثلثمائة الف وفي غيرها ثلاثين الفا فهذا المقدار باجمعه لايساوى مقدار المستخدمين في معامل منشستر فمن ثم كانت هذه المدينة وحدها جديرة بان تسمى دولة ومع كثرة الاشغال في الممالك الافرنجية وتعدد الوسائل للكسب فان في كل سنة يهاجر منهم الى ممالك اميركا المتحدة مئات الوف وحيثما بدا لهم باب معاش اوسع من الباب الذى هم فيه قصدوه والشاهد على ذلك تكاثرهم في الممالك الاسلامية والمسلمون سوآء كانوا من الترك اوالعرب لايقصدون الا بلاد الاسلام بل ربما آثروا الفقر في وطنهم ومسقط رأسهم على الغنى في غيره ومن الامثال المشهورة عندهم الغربة كربة والغربة مضيعة الحسب وهلم جرا فاذا كنا لا نفارق الوطن ومالنا فيه معامل ولاموارد ثروة وما لنا في البحر سفن وكل تاجر منا لا يستخدم في مصالحه غير يديه ورجليه وكثير منا يتعاطون البيع والشرآء وهم اميون فمن اين يأتينا الغنى والاقتدار جير أنه ما احد يعلم ما معنى لفظة العز حتى يشاهد احدى مدن الافرنج حيث يرى تاجرا واحدا يستخدم في محله المخصوص بالشغل كثيرا من الحساب والكتاب وفي معمله خلقا من الصناع ماعدا ماله من الحصص في البنوك وسكك الحديد والبواخر وغير ذلك ومع هذا فلا يكون عنده في منزله من الخدم والحشم ما يكون عند احدنا اذا كان دخله في الشهر خمسين ليرة فقط ولايكون عنده هذه الحلى والجواهر والتحف التي يتفاخر بها صاحب الخمسين وانما ينفع بلاده اذا ادب لصنع مأدبة فيها فينفق على ديار المرضى والمكاتب وعلى تزيين المدينة وتنظيفها

وتنويرها وعلى اغاثة الفقرآء والمحتاجين بصورة مخصوصة غير صورة التصدق فى الطرق فانهم يزعمون ان ذلك يبعث الناس على البطالة والكسل والتكفف وقرع الابواب وما ارى الحق الامعهم فالاولى عندى ان تجعل الفقرآء والعاجزون فى ديار مخصوصة وتجرى عليهم ارزاق من اهل الاستطاعة ومن كان منهم قادرا على العمل الزمه بحسب طاقته ثم يوخذ ما يعمله ويباع ويجعل زيادة فى معاشهم وقد طالما ادهشنى ماييننا وبينهم من الفرق فى هذا الامر فان الاب عندهم يلزم ابنه ان يشتغل ببعض المهن والحرف وهو دون البلوغ فيكدح نهاره كله مع بضاضة جسمه ونعومة يديه حتى يحصل شيا يتقوت به بل البنات ايضا يعملن ويجهدن ليلا ونهارا فى الدكاكين والمعامل وغيرها فقد قرات ان بنتا نحيفة كانت قائمة بمعاش امها فى عمل عيدان الكبريت فكان كل من يراها يرق لها والعادة عندنا ان الوالد يسلم ولده يتاما من الشعر او دعاء ويغريه بالقعود على قارعة الطريق وهو مكرر لذلك الدعاء وربما كان ملحونا وقد اتخذوا اسماء كل من الاولياء والصالحين واصحاب الكرامات ذريعة للشحاذة وهو مغاير للسياسة اولا آداب وقد اعترض علينا احد الاصحاب الالباء لما حررناه من هذا الفرق فقال ما مرادك من هذه الفصول التى تذهب فى الريح عبثا فقد كتبت اولا شاكيا من وجود الخوجات الذين يضحكون على الحمق ويستحلون اموالهم فهل افاد كلامك شيا قلت الظاهر لا قال بل الظاهر والباطن انه لم يفسد فان عدد هولاء الدجالين قد زاد فى هذه الايام ثم كتبت ايضا شاكيا من عدم وجود الحوافل فهل رايت شيا منها قلت مارايت قال ولن ترى ثم كتبت تشكوا من جهل النساء وعدم تربية الاولاد وتهاون الاباء وغير ذلك فهل حدث تغير فى شئ من هذه الاحوال قلت بل ارى ان الناس قد زادوا جهلا وغباوة فانى سمعت اليوم عن بعض جيراننا انه يريد ان يزوج ابنه وهو لم يبلغ بعد اربع عشرة

سنة فتعجبت من شناعة هذا الامر وقلت في نفسي لوكانت الدولة تمنع الزواج في هذه السن لفعلت ما تثاب عليه وفي الحقيقة فانى ارى القوم كالاطفال القاصرين الذين لايعقلون ولايميزون الخير من الشر ومن كان شانه هكذا كان لابد له من ولى يدبر اموره وما احد اولى من الدولة في تدبير امثال هؤلاء نعم انه قد جرت العادة في البلاد الحارة احيانا بان يزوج الغلام اذا بلغ هذه السن الا ان الاستانة تعد من البلاد الباردة كاوروبا فابن اربع عشرة سنة فيها هو بمنزلة ابن تسع سنين بمصر واغرب من ذلك انه ما احد من اصحاب والد هذا الغلام العازم على الزواج بين له سفه رأيه فهل امثال هؤلاء الناس يحسبون اصحابا او احبابا قال اذا كانوا هم على هذا الراى فكيف يسفهونه قلت اعوذ بالله كيف يمكن لوالد شفوق ان يفعل هذا بابنه قال دع عنك النظر في احوال الناس وانتقاد افعالهم فانك لا تقدر ان تغير من اخلاقهم شيا ولو كنت اماما او زعيما في الضبطية اوذا كلمة في مجلس الشورى لصح لك ان تمنى نفسك بهذه الامانى وانما انت ناظم كلام مرة وناثره اخرى فكيف تطمع في اصلاح اهل الاستانة وهم لايقرؤن كلامك قلت انى اقول لك الحق ولا اكتمه عنك وهو انى اكره الترجمة من كلام العجم فاكتب هذه الفصول تخلصا من عذاب الترجمة وكذلك اطمع في ان كلامى لابد وان يؤثر في الناس يوما من الايام ومن الواجب على كل انسان ان يودى ماعنده من النصيحة على قدر مايستطيع قال اما الترجمة فاقر معك بانها من الحرف المشؤمة ولاسيما ترجمة الفصول السياسية فان لها اسلوبا مخصوصا من اساليب الكلام وهو مخالف لاسلوب كتب الادب والتاريخ واما النصيحة فان كانت في الحقيقة نصيحة فاداؤها فرض ولكن من اين تدرى ان هذا الكلام الذى تقوله في انشاء الجوافل وتربية الاولاد وتعليم النساء ونحو ذلك يعد من النصيحة وليس من التزييف اذ كثيرا مايشتبهان فهل سمعت بان

احدا استصوب مقالك ورام الزيادة منه قلت لعمرك انى اذا كتبت شيا لا اسأل الناس عنه هل اعجبهم اولا ولعلى لوسألتهم ايضا لم اطلع على الحقيقة فان آراء الخلق متفاوتة فما يظهر لبعضهم حسنا يظهر للبعض الآخر قبيحا قال فاذا اتيتك بسبعة شهود عدول يشهدون بان كلامك الذي انكرت به وجود الخوجات واستقبحت به بعض العادات لم يفسد شيا فهل تقنع بقولهم قلت اقنع واذا به ابرز من جيبه نحو محضر قد كتب فيه انا فلان بن فلان اشهد بان كلام صاحب الجوائب فى الخوجات لم يفد شيا بل ولن يفيد وكتب بجانبه انا فلان بن فلان اشهد بان كلام صاحب الجوائب فى تربية الاولاد وتعليم النساء كان كطنين الذباب على الشراب لم يكترث له احد من القارئين والسامعين وهكذا الى السابع فى المطالب السبعة التى اوردتها وهى تربية الاولاد وتعليم النساء وحض الناس على الاشغال النافعة العمومية من جملتها الحوافل والصدق فى المعاملات ومن ضمنها صحف الاخبار وانكار تدجيل الخوجات والتاسف على جهل العامة وذم البطالة والترددين على مواضع القهوة فمظلم على هذا الامر وايقنت بان التمادى فى الكلام لاينتج عنه سوى تفويق سهم الملام فاضربت عن هذه الفروق ورجعت الى شانى الاول وهو الترجمة وذمها وهذا آخر عهدى بالفصول والفضول *

فى اصول السياسة وغيرها

الاصل فى السياسة ان تكون الدولة عارفة باحوال رعيتها فتعاقب منهم اهل الشرور المفسدين وتكافى اهل الخير المحسنين فالركن الاول عملت به جميع الدول اولا لتاديب المسئ من حيث هو مسئ وثانيا لتسلم هى من شرهم وهو الباعث الاقوى والركن الثانى بقى غير معمول به الا ما ندر فان الدولة متى عرفت ان احدا من رعيتها اخترع شيا نافعا لها اوللمملكة اومهلكا لعدوها فربما عينت له وظيفة ينالها او اكرمته برتبة اونيشان

فاختلط هنا الخير بالشر ولاغرو فان الخير كثيرا ما يكون امرا نسبيا وذلك لاختلاف اهوآء الناس وتباين اغراضهم فلا يكون الخير خيرا مطلقا الا اذا اتفقت الاهوآء وهيهات ومن فروع الركن الثانى ان تكون الدولة باحثة عمن لهم مزايا طبيعية وملكات غريزية وهم على صغر فتربيهم فى مكاتبها الى ان ينبغوا فى ملكاتهم او تحث الاغنياء على تربيتهم اذ لايحتمل ان الدولة تجشم هذا الامر لما فيه من فرط المشاق والتكاليف مثال ذلك انك ترى كثيرا من الاطفال بعضهم يميل الى الرسم والتصوير وبعضهم الى البنآء وبعضهم الى التقدير والهندسة فامثال هؤلآء ينبغى لمشايخ القرى وامنآء المدن ان يلاحظوهم ويعتنوا بتربيتهم على صورة مستحسنة اذ من المعلوم انه اذا كان لاحدهم والد فقير لايقدر على تربيته يبقى ما به من الملكة كالعدم وهذا الامر وان تعذر ايصاله الى درجة الكمال الا انه لايتعذر اصلاحه وترقيته الى درجة ينتفع منها انتفاعا ظاهرا وما اراه شبيها الا بمعادن الارض فان قلب كل مخلوق معدن لمنقبة من المناقب منذ الصغر * والاصل فى وظائف الدولة ان تكون عامة يشترك فيها كل من كان جديرا بها من رعاياها الا انه كثيرا ما يقع ان خدمة الدولة المتضلعين بامورها يقصرون هذه المنافع على ذويهم والمنتسبين اليهم فانهم يرشحون اولادهم مثلا للجدارة بها بما لايقدر غيرهم على مجاراتهم فيه فتصير هذه المنافع موروثة لهم وهذه الطريقة شائعة عند جميع الدول وهى من وجه عدل ومن وجه ظلم فوجه كونها عدلا ان وظائف الدولة لاينبغى تخويلها الا لمن كان مستحقا لها ووجه كونها ظلما قصرها على اشخاص معلومين فاذا حصل تدارك لفرع الركن الثانى اعنى تربية من لهم مزايا خلقية حصل التساوى فى احراز تلك المنافع وبهذا الاعتبار نستدل على ان رجال الدولة لايهمهم هذا ولذلك كان مهملا عند جميع الدول فان دول اوربا مع بلوغها فى السياسة والادارة اقصى درجة من النظام لم تلتفت الى

الاطلاع على هذه الحقيقة وفي الجملة فانه لايمكن لدولة من الدول ان تصل الى حد الكمال وليس كمالها الا امرا نسبيا فما دامت اشباحنا تغتذي بالاغذية الكثيفة ونفوسنا تتقلب في الاهوآء المتغايرة والانحآء المتباينة وفي كل يوم يعرض عليها احوال متعارضة واطوار متناقضة فالكمال منا بعيد والامد بيننا وبينه مديد ومما يجب ايضا فعله على الدولة ان تعرف ماعند غيرها من الامور النافعة لتجيبها في بلادها كما يجب على رعيتها ان يتفحصوا ماعند رعايا الدول الاخرى من الصنائع والحرف ليعلموها منهم ومع ان الدولة الاسلامية في عهد الامويين والعباسيين بلغت غاية العز والفخر لم يهمها ان تعرف ما كان عند دولة الصين من اسباب الترقي والتمدن وهذا ابن بطوطه الذي جال في مشارق الارض ومغاربها روى لنا كثيرا عن شعوذة الهند وصعود سحرتها الى الجو وعن امور خسيسة رآها في الصين ولم يرو لنا ان اهل الصين كانوا يعرفون صنعة طبع الكتب وعمل البارود وغيره فلو ان الدولة العباسية عرفت مثلا ان اهل الصين كانوا يحسنون الطبع لحرصت على نقل هذه الصنعة الى ممالكها فكنا اليوم آمنين مما وقع في الكتب الجليلة من تحريف النساخ فلاهي عنيت بطبع الكتب ولاوضعت قانونا لنسخها . استمر هذا التحريف الى يومنا هذا فكان من الواجب على كل دولة من الدول الاسلامية ان تضبط هذه الحرفة الخطيرة فلا تاذن في تداول كتاب الا بعد تصحيحه ومقابلته وهذا الفساد افشى مايكون الآن في الاستانة فالظاهر ان الناس انما ياخذون العلم من بطن هرشى او من قفاها فياله من اهمال واغفال ويالها من حال اختلال واعتلال مع ان اصلاحها ايسر مايخطر بالبال * والاصل في الزواج ان يكون للرجل امراة واحدة واعظم شاهد على ذلك هو ان الله عز وجل لما خلق آدم عليه السلام لم يخلق له الا حوآء واحدة مع ان الارض اذ ذاك كانت محتاجة الى كثرة النسل والذرية اكثر من حاجتها الآن الا ان الناس

اتخذوا المرأة من بعد ذلك متخذ القميص فكما ينبغي تبديل القميص عند مايعرض عليه وسخ او وهي كذلك ينبغي تبديل المرأة عند عروض علة من العلل عليها او عند تنصل شبابها او تغير حسنها وعلى ذلك انقسمت اهواء المبتلي بازواج كثيرة ووهت قوته وكثرت همومه وقلت جدارته لمباشرة المساعي العظيمة فهمه كله في ارضاء ازواجه والتسوية بينهن وربما عاش بينهن وهو منفق على حياته من احداهن وما ذلك الا من سفهه وبطره فمثله كمثل الباحث عن حتفه بظلفه ومع ذلك فانه متى اصابه ضر من احدى الضرائر عمد الى بعض الرقائين والمتكهنين والمدجلين بدل عمده الى طبيب يداويه اولبيب يهديه فاذا اردت ان تعرف قدر ما يحسنه المرء من الاعمال المفيدة والمساعي الحميدة فاسال عن قدر ما عنده من النساء فعلى قدر كثرتهن تكون قلة جدارته وعلى قدر قلتهن تكون كثرة استطاعته * والاصل في خلق الانسان ان يكون اشرف من جميع المخلوقات لان الخالق سبحانه خصه دونها بالنطق والعقل والفكر والتميز وسخر له جميع الحيوانات والان له الحديد وعرفه بمسالك البراري والبحار الا ان هذا الشرف لايتم له الا بعد ان ياخذ في النطق والتفكير فاما في حالة كونه لا يسمع منه الا البكاء والصراخ ولايرى منه الا القذر والنجاسة فاولاد الحيوانات خير منه لان ولد كل حيوان اذا بلغ سنتين يكون مميزا لضره من نفعه وليس كذلك الطفل الذي بلغ تلك السن فانك اذا ادنيته من النار تهافت عليها اومن علو شاهق رمى بنفسه منه وهو معنى قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا فتى بلغ هذا الضعيف اشده نسي خلقه وظن ان لن يقدر عليه احد فياخذ في التجبر والتكبر وفي اذى الناس والافساد بينهم فتراه من جهة سلطانا عاتيا ومن جهة اخرى ملكا ساميا وماشي من المخلوقات كلها يرى فيه هذا التفاوت والتباين كما يرى في الانسان وماشي من الحيوانات يضر بني آدم قدر مايضر بعضهم ببعض والذي اعتقده ان الانسان مفطور على

السوء والشر واعظم دليل على ذلك هو انك اذا خليته وطبعه من دون تربية وارشاد لم يهتد الى معرفة خالقه فيعمى عن اتقان صنع العالم وعن ابداع الكواكب ويعبد بقرة لانتفاعه بلبنها او ثعبانا لخوفه من ضرره وقد لاحظت غير مرة ان صفات الانسان الذميمة في جميع اللغات اكثر من صفاته الجيدة واذا كان له صفة من النوع الاول وجدت لها الفاظا كثيرة مرادفة لهما خلافا للنوع الثاني مثال ذلك لفظة النميمة والقت والقتوة والسعي والنماس والقانوس فهي ليس لها نقيض ونحوها التاريث والتأريج والتحريش والفتنة والغيبة وما ترى له صفة حميدة الا ورايت في مقابلتها عدة من الصفات الذميمة هذا اسلوب جميع اللغات * والاصل في المعاشرة ان تكون مبنية على هذا الاصل العظيم وهو ان تصنع لغيرك ما تريد ان يصنعه غيرك لك فاذا سلك الانسان على هذا الاصل لم يعد بينه وبين غيره خصام ولا نزاع ولكن هيهات فان كل واحد منا يعتقد ان الدنيا انما خلقت له حتى لو رايت انسانا طوله ثلثة اشبار تبين لك منه انه مستعد لمغالبة الجبارين اذ قد غرس في الطبيعة البشرية ان يتظاهر الانسان بما ليس فيه فاذا كان ضعيفا تكلف ان يرى الناس انه قوي واذا كان معدما تكلف ان يريك انه ملىء غني واذا كان عاجزا عن تدبير منزله وادارة اموره جعل يعيب احوال غيره بل ربما انتقد احوال الدول ومن اقامهم البارى تعالى على سياسة العباد فيقول لو كانت الدولة تفعل هذا الامر لكان انفع او ان الدولة لم تصب فيما فعلته فاساس الرشد والهدى ان يعرف الانسان نفسه ومن لم يعرف نفسه لم يعرف شيا * والاصل في التمدن ان يكون زائدا في راحة الانسان وغبطته ومعارفه وادبه وتحسين اخلاقه الا انه في الواقع صار زائدا في تعبه وتكثير همومه واشجانه وقد كان الناس في القدم يكفيهم القليل من الرزق ولا يطمحون الى الحصول على كل ما يمكن وجوده في الاقطار والامصار فاصبحوا الآن منهومين باحراز جميع ما يسمعون عنه في بلادهم وغير بلادهم

فلا بد للتمدن الآن عندنا من ان يكون عنده شي من مصنوعات فرنسا وشي من مصنوعات انكلترة وشي من تجارة الهند وشي من شيلانها وشي من فخار الصين وشي من بسط العجم وشي من جلود مراكش وهلم جرا حتى تصير داره عبارة عن راموز ما في الدنيا باسرها وا كثر ما نرى هذه النهمة في اهل الاستانة فان اهل اوربا يقتنعون بما يوجد في بلادهم فقط لكنه ايضا متعب لكثرته فانهم قد اخترعوا لكل شي آلة فاذا جلست على مائدة الطعام مع احد من اغنيائهم المترفين رايت على المائدة نحو عشرين آلة مما يمكن الاستغناء عنه الا ان اثاث ديارهم على اسلوب واحد لا يتعدونه اما اهل الاستانة فلما لم تكن عندهم صنائع كثيرة احتاجوا الى جلب المصنوعات من الخارج مع تمسكهم بعاداتهم القديمة وحرصهم على استعمال ما هو من مصنوعاتهم وبيانه انك اذا دخلت دار احد من الاغنياء هنا وجدت عنده كثيرا من الكهربا لقصب الدخان وكثيرا من الاراكيل ومشكاآت على نسق عادة بلاده ثم كراسي وموائد ومرايا وصورا على نسق عادة الافرنج فيكون التمدن عند الذين ليس عندهم صنائع انكى وامضر وادهى وامر وعلى هذا فكان ينبغي اولا الدبيب في تحصيل الصنائع قبل الطفرة الى التمدن المفضي الى الاسراف والتفاخر فاما ان نحرص على الصنائع ثم نتمتع بما يحصل منها واما ان نترك استعمال مصنوعات اوربا الا فيما لا بد منه اذ يستحيل على اهل بلد مثلا بل مملكة ان يصنعوا كل ما يصنعه غيرهم وذلك امر طبيعي لان كل بلاد قد خصها البارى تعالى بشئ تميزت به عن غيرها فقد خص انكلترة مثلا بكثرة معادن الحديد والفحم فكان كل ما يصنع عندهم من الحديد ومن الآلات التي يتوقف صنعها على قوة البخار اهون وارخص فهذا امر لا يمكن تغييره ولكن اذا انتظرنا ان ياتينا من انكلترة السمن والجبن والشمع والمخلل مع كثرة ما عندنا من الماشية فذلك يكون شينا علينا ونقصانا عظيما في التمدن

فمهما تجد فى ديار الاغنياء من التحف النفيسة والرغائب الجليلة فلايكون سادا لهذا الخلل والحاصل ان من مقتضيات التمدن ان المتمدنين فى مدينة اومملكة لاياخذون من الممالك الاجنبية الاماكان تحصيله من بلادهم متعذرا وهذا شان الافرنج الآن فان جميع الاثاث والملبوسات التى يستعملها اهل فرنسا مصنوعة فى بلادهم ومعاملهم وكذلك الانكليز ولايكاد ياتى شى من لندرة الى باريس الا ما كان من قبيل الخصائص الطبيعية لكننا نحن ياتينا السمن من الروسية والارز من ايطاليا والبطاطس من مالطة والسيكار من اميريكا والتنوق من الهند والزيت من مرسيلية والشمع من عدة جهات باوربا ونحو ذلك مما لابد منه ولااستغناء عنه فهل يستحيل علينا عمل مثل هذه الاشياء فى بلادنا ام هرمت ارضنا فصارت عقيما وبقيت بلاد الافرنج فتية فمن تفكر فى هذا حق التفكر استعظم اهمال اهل بلادنا وتقاعسهم عن اسباب التمدن غاية الاستعظام وود لو انه يبقى صائما ولاياكل شيا مجلوبا من بلاد الاجانب لاجرم لو ان احدا من اهل باريس علم بان الخبز الذى ياكله هو من صنع احد من الروس اوالانكليز لجهل اهل بلاده بعمله لعافه ونحن من يصنع لنا خبزنا هنا والسكاكين التى تقطعه بها ومن يبيعنا الآنية التى نشرب بها والصحون والموائد والكراسى حتى ظروف القهوة التى نفتخر بانها من خصوصياتنا اليس صناعها وباعتها من الاجانب بل صار فخرنا ان نشتريها منهم فان من عنده هذه الاشياء يتيه على من هو محروم منها مع ان وجودها عنده معرة عليه وعلى اهل بلاده ايضا فيا للعجب ثم ان التمدن هو من الالفاظ التى ليس لها مرادف لكثرة ما اشتمل عليه من المعانى فتارة يكون مفهومه العلوم والمعارف والفنون وتارة يدل على الصنائع والحرف والكد فى اسباب المعيشة والتجارة وتارة على التادب والتظرف والتكيس والبشاشة وحسن استقبال الناس وتارة على الضبط والتدقيق فى المعاملة واعطاء الاجرة والذى عليه الافرنج قاطبة ان

التمدن صفة مشتركة بين الرجال والنساء فلهذا كانت نساؤهم مشاركات لهم فى الاعمال والمساعى فهن يبعن ويشترين ويتعاطين الفنون والصنائع ويكدحن فى امور المعاش وذلك اغراهن بطلب السياسة ايضا فانهن طلبن مشاركة الرجال فى مجلس الشورى فاذا فرضنا صحة دعوى الافرنج تعين علينا ان نقول ان التمدن عندنا لا يمكن ان يكون صفة مشتركة اذ هو مقصور على الرجال فقط فان نساءنا لا يحسن عمل شئ وما اظن بعولتهن يحولون عن هذه العادة لكونها مبنية فى زعمهم على شرف العرض وعلى هذا نقول انا لا نحصل من التمدن الاعلى شطره فقط وهنالك فرق آخر بيننا وبين الافرنج وهو ان الافرنج يسعون ويجدون فى الليل كما يسعون ويجدون فى النهار على حد سوى ولاسيما فى ليالى الشتاء الطويلة وهذا عندنا متعذر فليالينا باجمعها تذهب فى الكلام الفارغ والاحاديث عن الجن والعفريت فهذان ركنان عظيمان قد فاتانا من اسباب التمدن على مقتضى اصطلاح الافرنج اعنى سعى النساء وتكسبهن والسعى فى الليل فاما ان نقول انه لا يمكن لنا مجاراة الافرنج فى التمدن اونقول ان تمدنهم فاسد اما من ظن ان تعلم اللغات الافرنجية ولاسيما اللغة الفرنساوية هو السبيل الى التمدن فهو فى ضلال عظيم فان تعلم هذه اللغات اعظم مانع من تعلم الصنائع لان من تعلم اللغة الفرنساوية مثلا استنكف بعدها من ان يعمل بيده فى صنعة ما لانه يحسب الصنعة شائنة من شرف مقامه وانما اللائق به ان يكون ترجمانا اومترجما فكان لابد لنا اولا من التواطىء على مفهوم التمدن حتى ناخذ فى اسبابه اخذا صحيحا فان الشروع فى شئ مرتب على معرفته واعظم اسباب التمدن المراد منه العز والمنعة والغبطة والسعادة ان يكون اهل المملكة على مذهب واحد ولسان واحد ولهذا كان لمملكة فرنسا شان عظيم من قديم الزمان حتى الآن فان اهل هذه المملكة يبلغون اليوم ثمانية وثلثين مليونا وجميعهم لهم لسان واحد وليس فيهم من

(البروتستانت)

البروتستانت سوى مليونين حتى لوكان البروتستانت عشرة ملايين لما غيروا شيا من احوال سياستها وذلك لان روساء هذه الطائفة الروحيين لايتداخلون كثيرا فى الامور السياسية وليس لهم تسلط على الرعية بخلاف مالوكان سكان المملكة ثلثين مليونا مثلا من البروتستانت وفيهم عشرة ملايين من الكاتوليك فان هولاء العشرة ابدا يعملون على مقاواة الثلثين وعلى مغالبتهم ومعاداتهم كما نرى الآن فى اهل ارلاند فانهم لايزالون ناصبين العداوة للانكليز لان الكاتوليك يعتقدون انهم هم الاصل والبروتستانت فرع منهم فيانفون من الطاعة لهم وما يزيل هذا الفكر من عقولهم سوى تهذيب الاخلاق والوصول الى الدرجة القصوى من التمدن اذ من امعن النظر فى حقيقة الحال تبين له انه لاينبغى ان يكون بين سكان مملكة واحدة ووطن واحد معاداة ناشئة عن الفرق فى الاديان والمذاهب اذ لوشآء ربك لجعل الناس امة واحدة ولهذا قال الله تعالى لا اكراه فى الدين ولم يوجب الاسلام على اهل الذمة سوى الجزية وهو امر هين فان جميع الدول الان توجب الجزية على كل من رعيتها ومن الدخلآء فيهم بل توجب عليهم ايضا الخدمة العسكرية وبهذا يظهرلك ان شرع الاسلام ارفق بالرعية من غيره وبهذا الاعتبار اعنى باعتبار ان فرق المذاهب لاينبغى ان يكون سببا للعداوة والشقاق كان ملوك المسلمين فى الزمن القديم يستخدمون النصارى واليهود جريا على سنة غيرهم ايضا فان سيدنا سليمان عليه السلام لما اراد بنآء الهيكل فى اورشليم بعث الى ملك صور وصيدا يطلب منه صناعا ماهرين فى البنآء والنقش وصنعة النحاس وغيرها فاجابه الى مطلوبه وفى هذا العصر نرى فى اوربا جمعيات كثيرة متالفة من الكاتوليك والبروتستانت واليهود على مصالح عمومية نافعة لجميع الناس وحسبك ببيت روشليد مثالا اذ لا يخفى ان هذه العيلة من اليهود ومع ذلك فانهم يمدون بالمال جميع الدول هذه هى حقيقة التمدن اعنى

ان يكون الناس متعاونين على امورهم المعاشية من دون التفات الى مباينتهم في تدينهم وتعبدهم اذ المقصود من كل دين الحث على مكارم الاخلاق والابتعاد عن الشر الا ان الجمهور الاعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة كما قال المامون لانظر لهم في الامور ولااستضاءة لهم بالعلم فاتخذوا فرق الاديان وسيلة الى الشر والفساد كما جرى في الحرب التي تسميها الافرنج حرب الصليب وذلك حين حشدوا مشاة وركبانا لاستخلاص القدس الشريف من ايدى المسلمين فكانت نتيجة ذلك التهوس سفك دماء عباد الله لغير طائل وجل هذه الشرور ينشأ من استعلاء الروساء الروحيين ومن حبهم الرئاسة فيحرضون الجهلة من الرعية ويوسوسون اليهم على خلاف مراد الله تعالى وخلاف مراد الدول ولهذا كانت دول اوربا تراعي خاطر هولاء الروساء وتتملق اليهم لتامن من غوائلهم لان التمدن في اوربا وان يكن منشورا في المدن والامصار الا ان عامة سكان القرى لم يزالوا تائهين في مهامه الجهل فغاية التمدن عند هم ان يكون كل واحد منهم مقبلا على صنعته وحرفته ومتقنا لها فالحداد مثلا لايدرى شيا من امور الدنيا سوى مايخص الحديد وقس على ذلك ولاسيما انهم يسمعون من روسائهم ان الدولة تكرم الاساقفة والمطارنة وانها تعتمد على كلامهم في مجلس الشورى وفي الحقيقة فان روساء الكنائس في اوربا مجارون لوزراء الدولة في الامور السياسية وفي المعارف والتدبير وبذلك حصلوا على الجاه والغنى فانت ترى على هذا ان اكرام الدولة لهولاء الروساء صار سببا في ابقاء العامة في ربقة الجهل والغباوة ولايمكن لها ان تحيد عن هذا الا اذا رأت الرعية جميعا متمدنين غاية التمدن حتى لايقولوا انها خرجت عن الدين فيعمدوا الى محاربتها ولايمكن للرعية ان يتقدموا في التمدن ما داموا يعلمون ان روساءهم الروحيين اشبه بالوزراء وانهم ركن الدولة فهذا دور دائر بين الدولة والرعية في كل مملكة كاثوليكية لانا قد قدمنا ان

روسآء البروتستانت اقل تداخلا فى الامور الدولية من غيرهم فهمهم كله ان تبقى رعيتهم على مذهبهم وان يبتعدوا عن مذهب الكاتوليك وهم روسآء الكاتوليك ان يبعدوا رعيتهم عن البروتستانت والدولة معا ولهذا كانت سياسة فرنسا اصعب من سياسة بروسية وذلك اوجب على دولة فرنسا ان تنتبه له وتعنى به وذلك بعد ان صار عدد رعايا بروسية مقاربا لعدد رعايا فرنسا فتلخص اذا ان كل سياسة لابد من ان يلحقها صعوبة ما اما من اختلاف سكان المملكة فى المذهب او فى الارآء ومادامت الدولة تخشى من نفس رعيتها فتنة وشغبا فلايمكن ان يكون عندهم تمدن تام لان عاقبة هذه الفتن اضعاف الدولة وتقوية اعدائها عليها فان قيل ان وجود طوائف عديدة مختلفى الجنس والمذهب فى مملكة واحدة من شانه ان يكون باعثا لهم على المنافسة والمفاضلة وهو من اسباب التمدن والعمران قلت ان المنافسة والمفاضلة لاتتوقفان على هذا الاختلاف بل على وجود قوم من البشر وان يكونوا من اب واحد وفى قرية واحدة بل فى بيت واحد فحيثما وجدت فئة تباشر عملا فى مكان ما تصدت لمعارضتها فيه فئة اخرى مجاورة لها ذلك تقدير العزيز الحكيم وهو انفع للوطن لانه مانع من الاحتكار ومهما يكن من امر هذه المنافسة على هذه الصفة فلن تبلغ مبلغ الخلاف فى الدين فان هذا عند الجهلاء اعظم باعث على تفرق الكلمة والراى وشحن القلوب بالمشاحنة انظر الى اتساع مملكة الهند وعظمها وفرط غناها وخصبها وكيف تسلطت عليها فى اول الامر جماعة من تجار الانكليز وما ذلك الا من اختلافهم فى الدين فان هذه المملكة كانت منقسمة الى عدة ولايات وايالات منها ما كان فى حوزة المسلمين ومنها ما كان فى حوزة الهنود الوثنيين وكان احد الفريقين يتمنى انقراض صاحبه مع كونهم فى ارض واحدة فلما دخلت الانكليز بلادهم ضربوا احد الفريقين بالآخر ومازالوا يستولون على قطر من تلك المملكة بعد قطر حتى دخل

فى ذمتهم مائة وخمسون مليونا من النفوس فاحسب هذا المقدار ان كنت من الحاسبين فان قيل ايضا اذا كان اتحاد الجنسية واللسان والدين من شانه ان يزيد فى عز المملكة وفى تمدنها فما بالنا نرى مملكة اسبانيا متاخرة عن ممالك اوربا مع ان سكانها من جنس واحد وعلى مذهب واحد ولسان واحد وهى فى الكبر تقارب فرنسا وارضها مخصبة قلت ان الممالك والدول هى مثل الاجسام فقلما رايت جسما سليما من العلل فعلة اسبانيا هى الجهل والغلو والوساوس وذلك صيرها الى هذه الحالة وتفصيل ذلك ان ممالك اوربا لما كانت تائهة فى قفار الجهل والغباوة ولم يكن لها سوى النخوة والتفاخر والتعاظم كانت اسبانيا معادلة لها الى ان قام نابوليون الاول وذلك منذ سبعين سنة تقريبا فغير سياسة اوربا واضعف دولة البابا ورؤساء الكنيسة وفتح عيون اوربا لاشياء جديدة فالذين استفادوا من منهاج سياسته عظم شانهم بعد ذلك وكثرت فيهم اسباب التمدن ومعلوم ان فرنسا كان لها من ذلك النصيب الاكبر والحظ الاوفر وبقى اهل اسبانيا تلك المدة كلها وهم عاكفون على صنم الوساوس والاضاليل ورضوا بالخمول فلو كانوا اقتفوا آثار الفرنسيس وجدوا فى اصلاح سياستهم لكانوا اليوم من اعز الامم الا ان دولة البربون كما هو معلوم عند جميع الناس دولة قاهرة متحكمة فلا يعنيهم فى امور السياسة شئ سوى ان تكون رعاياهم خاضعة لهم على اى وجه كان وان يكونوا هم نائلين رضى رؤساء الكنيسة اما مملكة ايطاليا فانها كانت من قبل منقسمة بين عدة امراء وولاة بربونيين فلم يكن من المحتمل ان تتم على سياسة واحدة وان كان اهلها من جنس واحد ولهم لسان واحد فلم يكن بها من دولة عادلة منتظمة سوى دولة سردينية الا انها لصغر بلادها بقيت كانها خاملة وحيث صارت ايطاليا الآن دولة واحدة مع تجردها عن الجهل والوساوس واستقلالها بامورها صار كل واحد يترقب انها تصير فى المستقبل دولة عزيزة الشان

متينة الاركان واما اوستريا فانها كانت عرضة لخطرين عظيمين احدهما كون اهلها مولفين من اجناس مختلفة فكانوا ابدا فى خصام وشقاق والثانى انها كانت تؤثر رضى دولة رومية على رضى رعيتها القائمين بنصرتها فكانت تلاقى فى سياستها عناء فادحا فلما رات ان ذلك لايمكن به انتظام الحال وراحة البال عمدت الى التقرب من رعيتها والى ارضائهم بتنظيمات سياسية حسنة فالفت مابين الجرمانيين وغيرهم وادخلت فيهم قوانين مرضية واصولا عدلية بهما التأم شملها وشعب صدعها بعد ان اشرفت على خطر عظيم من تقوى دولة بروسية فهذه دول اوربا باجمعها قد فطنت الى ان تعديل السياسة هو الذى يجب ان يكون مدارا لعز المملكة وهنا بحث فان فى هذه اللفظة اعنى التعديل اصعب معانى التمدن لانا اذا اعتبرنا التمدن عبارة عن كثرة الصنائع والحرف واتساع التجارة لم يختلف فى فهمه اثنان ولكن متى جئنا الى تعديل السياسة صعب علينا المراد منه لانا نرى بعض الدول القوية قد تعدى على بعض الدول الضعيفة وتذلها وربما استولت على قسم من بلادها ثم يختلف الناس فى هذا التعدى كما جرى على دولة الدنيمرك عند محاربة دولتى اوستريا وبروسية اياها ولكن مهما حصل الخلاف فى فهم السياسة المنتظمة بالنظر الى الخارج فان فهمها بالنظر الى داخل المملكة واضح لايقبل التاويل اذ كل من له ادنى المام بالسياسة يقر بان سياسة الدولة العليه فى داخل ممالكها هى الآن احسن وانفع مما كانت فى الايام المتقادمة وذلك حين كانت ترسل واليا جاهلا متكبرا الى احدى الولايات فاول ما يستقر به عرش العظمة والسؤدد وينفخ بين يديه فى بوق التبجيل والتعظيم يلقى الرعب فى قلوب الناس ويحملهم على الاعتقاد بان فى قبضته حياتهم ومماتهم فلم يكن لاحد من الرعية ان يتقرب اليه الا بصاحب دخانه او بحامل ابريقه وكان كل من خدمته واعوانه اميرا على الناس له سطوة فيهم وباس فاين تلك السياسة فى تلك الايام المدلهمة من تنظيم

المجالس والمحاكم فى هذا العصر ومن اختيار الولاة من اهل الرشد والرفق والمجاملة والمداراة بحيث صار كل منهم يعلم انه مسئول عن كل مايصنعه ومطالب بكل مايبتدعه فهذا امرلايجهله احد ولايمكن لمتصف ان يجحده وعلى هذا نقول ان هذا التعديل الذى جرى من الدولة العلية فى سياستها مضافاً الى سعة ممالكها وخصب ارضها والى غبطة حال رعيتها من النصارى من شانه ان يزيل مابينهم وبين المسلمين من الخلاف اما كون النصارى فى حالة حسنة فهو ايضا من الامور المعلومة وله عدة اسباب احدها سعة الممالك المحروسة كما تقدم والثانى شمولهم بالرفق والعدل فصاروا آمنين على ارواحهم واموالهم وعرضهم والثالث كونهم من اصحاب الكد والاجتهاد طبعا حتى كادوا يستقلون بامور التجارة فما لهم فيها من منازع اومزاحم سوى من النصارى الاجانب اعنى سكان اوربا ولوانهم سلموا من هولاء لكانت خيرات الممالك المحروسة كلها تحت تصرفهم فانت ترى ان تكاسل المسلمين عن امور المعاش صارسببا فى غنى النصارى وراحتهم ومانحن لهم على ذلك بحاسدين ولكن غابطين فمن ظن ان المسلمين فى هذه الممالك اورعايا الدول الاجنبية هم احسن حالا وارفه عيشا من النصارى رعية الدولة العلية فهو جاهل متعصب ولورايت ما تقاسيه رعايا تلك الدول فى بلادهم من جهد العمل والكد والنصب لما خامرك فيماقلناه ادنى ريب وبقى الكلام على تمدن الروسية وسياستها وحال رعاياها فنقول انه مع كثرة ما فى بطرسبورغ من رجال اوربا فما احد منهم يعرف شيا من سياسة هذه الدولة وماينقلون عنها شيا ذا بال وهو دليل على ان امورها مكتومة عن الاجانب حتى انها اذا اشاعت شيا فانما يكون المراد به تغرير السامع فربما اشاعت عن نفسها انها خائبة وهى فائزة اومهزومة وهى غالبة ومع ذلك فان اصحاب الجرنالات يحاولون ان يوهموا على الناس فى معرفتها فمرة يروون عن مرسوم صدر بخصوص كركها ومرة عن

تعريفة الاسعار وانهم الا مخادعون فسياسة الروسية لايكشفها الاحوادث الايام لاحوادث الاقلام ثم ان كثيرا من الناس وخصوصا الذين خالطوا منا الافرنج فى بلادهم وغيرها يرون ان من مستلزمات التمدن ان يكون للانسان حرية فى كل شى اذ لايكون تمدن حقيق من دون حرية تامة الاان مفهوم الحرية غيرمتفق عليه بعد اذ هى تابعة للعادات فاهل الاستانة مثلا لايرون للانسان ان يماشى زوجته ويثوا كلها فى موضع مشهور ولا ان يركب معها فى كروسة فهذا الامر عندهم من اكبرالعيوب اذ لم تجر العادة به لا لانه مخالف للطبع والشرع ولا لان فيه محذورا من وجه ما بل هو عندى اولى واوجب لان الرجل اذا مشى مع زوجته امنت المرأة من سفاهة بعض السفهاء الذين يتعرضون للنساء للتلهى بهن فمرة يبادرونهن بالكلام الفاحش ومرة بالغمز ومرة بالقرص وقول من يدعى ان الناس لايعرفون المراة هل هى زوجة الرجل اواجنبية عنه ليس بشى وانما هو محض مكابرة لاستحسان العادة وهولاء الذين يرون هذا الراى الذميم يستحسنون ما يقع فى الموضع الذى يقال له زهورى من كلام الفحش والخنى من اللاعبين مع ان هذا الموضع منتاب للنساء والاولاد وصفته ان بعض اللاعبين فيه يلبسون لباس النساء وياخذون فى الرقص مع التخنث والتانث ثم فى المحاورة مع سائر اللاعبين بصوت يشبه صوت النساء وبحركات تنبه حركاتهن مع التعمد لطلب التزوج اولطلب تبديل ازواجهن وما اشبه ذلك مما يدل على حيل النساء وفى خلال المحاورة يسمع من كلام الفحش مايقشعر منه كل ذى ادب ومع ذلك فانك تسمع للرجال المتفرجين والنساء المتفرجات قهقهة عالية اعجابا بما سمعوا وكذلك يستحسنون طواف النساء فى الكروسات فى كل يوم جمعة من شهر رمضان المبارك واجتماع الرجال لمشاهدتهن وتفصيله ان النساء يركبن فى هذه المحامل ويقصدون ساحة بايزيد ويدرن فيها مقبلات ومدبرات الى وقت الغروب فحينئذ

اولوا البطالة والسفاهة للزو اليهسن والتلهي بين عدة ساعات مع
ان هذا الشهر انما خصص للعبادة والتذلل لعزة الرحمن لا لبطر النسوان
ومن الواجب على كل مخلوق ان يخصص وقتا معلوما من اوقاته
ليخلو بنفسه مع خالقه وليفكر فيما فعله فان راى انه قد فعل خيرا
طلب من الله عز وجل ان يثبت قدمه فيه او شرا اناب اليه منه
واستغفره ولهذا خصصت اوقات الصلاة وايام الجمعة وشهر رمضان
ولهذا ايضا نرى الاديان جميعها قد فرضت يوما معلوما لعبادة البارى
تعالى والتماس طاعته وتوفيقه فكون يوم الجمعة فى شهر الصوم يخصص
للتفرج على النسآء هو عندى من اغرب الامور واغرب منه ان الخطباء
وائمة الدين لاينبهون عليه ولايسعون فى ابطاله فانظر الى استحسان
الناس ما قبح من العادات والى استقباحهم ما يحسن منها وكذلك
يستحسنون العزف بالآت الطرب فى موضعى قهوة فى طاوق باثار
حيث تباع المسكرات فى حانات مخصوصة فترى فى ذينك الموضعين
وفى هذه الحانات ارذل الناس والأمهم وحسبك انه فى يوم دفن المرحوم
فواد باشا الذى حزنت عليه جميع الاجانب كانت آلات الطرب معزوفا
بها فى هذين الموضعين فهل هذا يعد من الحرية الملازمة للتمدن
لاجرم ان الحرية امر حسن يتمناه جميع الناس الا انها متى آلت الى
انتهاك الادب وجب منعها وكذلك يستحسنون وجود الغلمان فى الحمامات
وكل انسان يعلم المقصود من هذا الوجود وكل ينكر فى قلبه اشتهار
هذه العادة وما تكاد تكلم احدا فى هذا الامر الا وتلا عليك منه قصصا
طويلة ومع هذا فان قلت له ان مما شاة الرجل زوجته لاتشينه قال لك
لعل الناظر اليها يحسبها امرأة فاجرة ولكن كيف يخطر هذا القول
ببال هذا الناظر ولايخطر بباله ما يشبهه حين يرى شابا يماشى غلاما
فاذا كان كذلك تعين على الانسان ان لا يماشى احدا لان مما شاة الرجل
ايضا لرجل مثله تبعث على سوء الظن لان اسباب الفساد كثيرة والانسان

مفطور على السوء كما قدمنا اولا فاما ان يظن الناظر اليهما انهما سائران الى احدى الحانات او الى احد الحوانيت او الى احد الحمامات او غير ذلك ثم انى اذا كنت استحسن مماشاة الرجل لزوجته فى الطرق فليس المراد بذلك المخاصرة ولا ان المرأة تتوكأ على الرجل كانه عكاز لها ولا ان يكون الرجل حاملا لشال زوجته او مظلتها او كلبها كما تفعل الافرنج فانى مادمت اتكلم بهذه اللغة الشريفة فلن تزايلنى شهامة العرب وانما المراد زيادة الالفة بين الرجل وامرأته ولاسيما ان اهل الاستانة قد تقربوا الآن الى مايستحسن من عادات الافرنج وليست هذه العادة مخلة بالاداب ولا بمكارم الاخلاق وما اراها الا مبدأ التمدن فى المأوى الا ان العادة فى جميع البلاد تتوقف على كبرآء الامة وعليتها فهم الذين ينهجون هذه المناهج للعامة فما دامت كبراؤنا تانف من مماشاة ازواجهم فان العامة لاتقدم عليها فان قلت اذا كنت تعلم ذلك فما لك تضع الكلام فى غير محله فهل تحسبن ان الكبرآء يسمعون كلامك ويعدون عن عاداتهم التى الفوها منذ احقاب عديدة قلت ليس على حمل الكبرآء على استصواب مقالى وانما على ان اعرض عليهم ما اراه صوابا فان قبلوه او انكروه فهم اولوا الامر والنهى ولى ايضا ان ارجو ان سائر كتاب الجرنالات فى الاستانة يساعدوننى على ادخال العادات الحسنة والاقلاع عن العادات السيئة فان هذا الوقت مطاوع لذلك فنحن مندوبون الى اغتنام فرصته ولقد سمعت من غير واحد من المسلمين استحسانهم لاكرام الافرنج نسآءهم واقرارهم بانهم جائرون على نسآء انفسهم ولكن يقولون ان نسآء الافرنج جديرات بهذا لكونهن مترشحات له منذ الصغر فكانهم يقولون ان نسآء المسلمين لما كن عطلا من التربية والآداب كن غير جديرات بالاكرام فنقول لهم فى الجواب ان تربية النسآء لاتنزل من السمآء وانما هى من عناية الرجال بها ولاسيما ان الرجال هنا لايتزوجون الاحديثات السن فلم لايربونهن وهن فى هذه

السن حتى يصلحن لما تصلح له نساء الافرنج وحاصل الكلام ان تمدن هذا العصر يقضي علينا بان نخلع عنا تلك الخشونة التي درنت على طباعنا واخلاقنا وان نبتدىء بالعادات الحسنة من اهلنا وذوينا فقد ندبنا الى الرفق بالقوارير وليس لصادعهن من عذير* ثم ان العادة والتمدن كثيرا ما يتجاولان في ميدان الزمن فيغلب احدهما الآخر فمما غلبت فيه العادة عندنا على التمدن هو عدم مماشاة الرجل لزوجته في الطرق او ركوبه معها في كروسة واحدة على ما مر في الجوائب السابقة مثال ذلك اذا اراد احد ان يتنزه يوما مع اهله في بعض المنازه ككاغد خانه ونحوها فانه يلزمه ان يكترى لها كروسة بمائة وعشرين قرشا فتركب فيها هي وخادمتها اوجاريتها ويركب هو في زورق يكتريه بنحو ثلثين قرشا فاذا وصلا الى هنالك وحان وقت الطعام اكل كل منهما ناحية وربما مضى النهار كله من دون ان يكلمها كلمة واحدة بخلاف ما لو سار معها في زورق او بالحرى في حافلة (اومنيبوس) فانه لا يصرف والحالة هذه الا نحو هذا المبلغ فان قلت ان مماشاة الرجل لزوجته ليس من التمدن في شي قلت قد اسلفت ان التمدن له معان كثيرة ومن جملتها حسن المعاشرة والالفة ومعلوم ان عيشة الرجل مع زوجته على حالة المجانبة والمباعدة والنظر اليها بعين الاحتقار والاستصغار من صفات الهمج لا المتمدنين لا بل ان مرجع هذا الاحتقار يؤل الى المحتقر لانه يدل على خسة زوجته ودناءتها ولؤمها مع ان الانسان يانف من أن ينسب اليه انه حاز متاعا رخيصا او دابة معيبة فكيف يفتخر بما عنده من المتاع ويخجل من مصاحبة امرأته والحاصل ان هذه العادة الذميمة قد اعترضت بيننا وبين تمدن هذا العصر وهي وان حسنت في الايام الخالية فهي اليوم غير حسنة لان همة الدولة العلية مصروفة الآن الى تعليم الصبيان والبنات معا فالاولى لنا ان نبتدى نحن بحسن معاشرة الازواج من قبل ان نضطر اليها اضطرارا ونجبر

عليها اجبارا ومن ذلك اي من العادات المانعة من التمدن عدم الخروج ليلا لعدم الانوار في الطرق ولك ان تجعل المسألة دورية فتقول ان عدم الانوار مسبب عن عدم خروج الناس وكيفما كان فهو مغاير للتمدن لان هذا الخروج ان كان للتلهي والمشي وسماع الات الطرب اكسب الانسان سرورا ونشاطا وصحة وان كان للعمل اكسبه المال وكل من المال والصحة يعين على التمدن ولايكاد شي يستتب بدونهما ومن العجب ان يسكن احد في مدينة كبيرة تحوى نحو اكثر من نصف مليون من النفوس ولايتاح له في الليل ان يخرج من داره ولو ان الدولة صرفت ما تنفقه من ثمن القهوة في الدواوين الميرية على تنوير الطرق لكان اولى فانا لا نرى القهوة مستعملة في دواوين اوربا وان هي الا سرف وسبب للكسل والبطالة واذا كان لابد من عدها مصلحة فهي مصلحة خصوصية وتنوير الطرق مصلحة عمومية والعمومي مقدم على الخصوصي هذا وانا نرى بك اوغلى مزينا بالانوار اثناء الليالي كلها فما المانع من ان تكون الاستانة مثله وما الفائدة من ترتيب المجالس البلدية ومن تحرير مئات من القوانين والقواعد لها وليس لنا في الطرق حافلة واحدة ولا فانوس واحد ومن ذلك اتخاذ الزوارق على هذه الهيئة المعروفة لاهل استانبول خاصة وسائر زوارق الدنيا على هيئة اخرى فان قيل ان زوارق استانبول مجعولة للخفة والسرعة وهي فائدة توازن مافيها من الخطر على راكبها قلت لعمر الله ليس من طبع الناس هنا السرعة او مراعاة الوقت فان احدهم ليمكث في موضع القهوة عدة ساعات وهو ناظر الى سحب دخانه فهلا حرص على السرعة في غير ركوبه الزورق وعلى ذكر السرعة يحسن ان نورد هنا قضية الكتابة على المائدة على وجه الاستطراد فانها اولى من الكتابة على الركبة ولاسيما اذا كان الكاتب مولفا فانه يجعل المحبرة عن يمينه والكتب التي يرجع اليها عند التاليف عن شماله وهو ممسك للقلم بخلاف

الكتابة على الركب كما يفعله كتاب الدواوين وجعل المحبرة فى موضع عال فان الاستمداد منهما والحالة هذه متعب اى اتعاب ولاسيما اذا احتاج الى مراجعة كتاب اذ يتعين عليه ان يترك القلم ويضع الكتاب فى حضنه فان قيل ان الحروف التركية مخالفة للحروف الافرنجية فلابد من كتبها على الركب قلت ان هذه اللابدية منشاها العادة فقط لا الممكن ولا المستحيل ولو جرب الناس ان يكتبوا على المائدة لما وجدوا من صعوبة سوى فى اول الامر فقط ولقد طالما تعجبت من براعة الذين يكتبون منا وهم وقوف خطا حسنا مع ان الافرنج لايمكنهم ان يكتبوا فى هذه الحالة حرفا واحدا الا ان الكتابة على المائدة اسلم واصون للورق ولعلها اوفق للصحة ايضا ومن ذلك شراء العبيد والجوارى فهذا اعظم الاسباب المانعة من التمدن لان هذا الجيل مشحون بالاضاليل والوساوس والاوهام ولايزال حديث الجوارى فى الجن والعفريت بما فيه افساد لعقول الاولاد الصغار فمهما يكن الولد نجيبا فانه يعرض من سماع كلامهن هذا مع غلاء اثمانهن وقلة الفائدة من خدمتهن وملازمتهن للتبخير والرقية فى كل شهر والا فياخذن فى الدمدمة والزمجرة والتكسير حتى يعدن جنا فى الحقيقة فيبين الله ان وجود هولاء الجوارى اكبر مانع للتمدن اما الاكثار من السرارى البيض فقد ذكرناه غير مرة فلايلزمنا الآن اعادته وانما نقول انه هو ايضا من موانع التمدن فليلحق بهما والحاصل ان هذه العادات وما يشبهها بمنزلة حجر عثار فى طريق التمدن ولايستحيل علينا اصلاحها او ازالتها فهى مثل الديار القديمة التى اشترتها الدولة من اصحابها ودكتها اذ الازالة اهون من الانشاء ومما غلب فيه حديث التمدن قديم العادات طبع الكتب فى المطبعة السلطانية وغيرها وقد طالما ظن المتعصبون ان طبع الكتب الدينية لايجوز فاليوم نرى القرآن العظيم يطبع كغيره من الكتب الفقهية والشرعية وانت تدرى مايرتكبه النساخ من التحريف القبيح فاليوم

خف هذا الخطب الا ان احوال المطبعة بقيت غير منتظمة حتى الانتظام لانها متوقفة على المالية وليس لها صندوق خاص بها وقد كان ينبغى ان تكون مستقلة بامورها وفى كل سنة اوسنتين يجرى حسابها مع مامورى المالية ولانها ليس فيها من اشكال الحروف سوى شكل واحد وهو هذا الشكل الذى تطبع به الجوائب فهو مستعمل للمتون والشروح والحواشى وغيرها وهو قصور ظاهر مع اشياء اخر يدريها من تبصر ودرى وخبر ومن ذلك ضرب النقود الحسنة من الذهب والفضة بدل تلك النقود القديمة الخسيسة فصارت نقود الدولة الآن احسن من نقود فرنسا الا ان نقود فرنسا فى بعض ممالك الدولة اكثر تداولا وشهرة من نقود الدولة وهذا امر لايسوغ فى ممالك اوربا اعنى لا يسوغ فيها تداول نقود اجنبية الا اذا كانت على معيار نقود المملكة كنقود ايطاليا وفرنسا مثلا فانها لما كانت على شكل واحد وقياس واحد ابيح التعامل بها فى كلتا المملكتين على التبادل ومن ذلك اتخاذ الجسر الذى يعبر عليه الى غلطه واتخاذ البواخر التى تسير على التعاقب فى البوغاز وبذلك امن الناس من اخطار الزوارق ومن ذلك تنظيم المكاتب والمحاكم وتعديل القوانين فى وجوه كثيرة من وجوه السياسة والتجارة الى غير ذلك من الاصلاحات التى لاينكرها احد ومعلوم ان تمدن الممالك الافرنجية لم يستتب بها مرة واحدة وانما حصل بها على التدريج وبهذا الاعتبار نومل انه يكمل عندنا مع بذل الجهد واخلاص السعى بعد سنين قليلة لان الاخذ فى التمدن الآن اسهل مما كان فى الازمنة السابقة فنسال الله عز وجل ان يطيل بقاء مولانا وسلطاننا المعظم ويويد دولته العلية حتى تستتب فينا جميع اسباب التمدن والعمران وتصير بلادنا مضاهية لبلاد اوربا بل افضل اذ هى فى الفطرة اعظم واجل وابهى وامثل ولكن ينبغى لنا ان نكون مساعدين للدولة على اتمام مقاصدها كما ان رعايا اوربا تساعد دولها فتلك اعظم وسيلة

لاتمام التمدن

في بعض احوال تخص النساء

قد طالما خطر ببالنا ان نسرد مقالة في احوال النسآء ولاسيما حين لا نرى في الجرنالات اخبارا مهمة كهذه المرة فان معظم مافيها تكرير لما تقدم ذكره واذا هو حسن في اصله فترجمته الى العربية تاتي غير حسنة لان الله سبحانه وتعالى قد خص هذه اللغة بمزية البلاغة والاختصار كما انه ترك لغات الاعاجم للاسهاب والتكرار فمثل كتاب اللغات العجمية مثل الطفل اذا ناولته تفاحة او دماما فانه يقضي النهار كله وهو يلعب بها فرحا مسرورا فاي خبر بلغ كتاب الاخبار من العجم يطربهم ويعجبهم ويحملهم على تكراره والتشاغل به الى ان يحدث غيره ومثل الكتاب بلغتنا هذه الشريفة مثل رجل رزين وقور ملي فاذا اهديت اليه درة نفيسة لم يزد على ان شكرك عليها ووضعها بجانبه وهناك امر آخر وهو ان كتاب الاخبار غالبا انما يوجهون همهم الى ملء الجرنال باي كلام كان سوآء كان مفيدا او غير مفيد وقل من يهمه غير ذلك وفي الجملة فوجود هذه الصحف خير من عدمها وانما كان ينبغي ان تهذب وتنقح اذ خير الكلام ماقل ودل ولكن هكذا اصطلاح القوم وهذا الذي الفوه وتابي الطباع على الناقل هذا وانه حين كان يخطر ببالنا سرد تلك المقالة كان يخطر ايضا قولهم كل شي مهم ما خلا النسآء فكنا في هذه الحال كمن يقدم رجلا ويوخر اخرى لكنا فكرنا من بعد ذلك ان الفائدة الحاصلة من المقالة تكون ككفارة عما ينسب الينا من الاسآءة فيها فاستخرنا الله ان نقول انه قد تقرر في عقول بعض الرجال ان المرأة اذا تعلمت القرآءة والكتابة والحساب وشاركت الرجل في رأيه وهمه ومصلحته كان ذلك ادعى الى حملها على محبته وصداقته والى ابعادها عن خيانته وغشه اما اولا فلان مطالعة الكتب ومعرفة اخبار الناس الغابرة والحاضرة تكسبها الفضائل والمراد بالكتب هنا

المفيدة المحتوية على تهذيب الاخلاق والحض على المكارم والمحامد وتعريف كل مخلوق بما يجب عليه لخالقه ولابناء جنسه خصوصا ولسائر الادميين عموما وذكر من سلفوا من افراد الرجال الذين سنوا سنن الفضل وارشدوا الى سبيل الخير لا الكتب المشتملة على صدح البلابل وادارة الاقداح وحيل النساء ومن مات عاشقا ومن عاش معشوقا والثانى ان المرأة اذا شاركت الرجل فى رأيه ونيته وعمله اعتقدت بانها مقيدة بان تساعده وتعينه على مصالحه وتهتم بشانه فى حالتى حضوره وغيابه وزاد ذلك فى محبتها له لان المحبة لا تمكن بين شخصين الا اذا كانا متشاركين فى السريرة كما هو معلوم وعلى هذا فكلما رايت شخصين متآلفين الفة اكيدة فاعلم بان بينهما سرا قد الف بينهما والثالث ان مشاركة المرأة زوجها فى تعبه تبعدها عن كثير من الاهوآء التى تستغوى المرأة الملازمة للبطالة وتحثها على الاشتغال بما يكسبها الذكر الحسن عند الاباعد والاقارب فاذا سمعت اليوم ان واحدا من الناس يحمدها على فعل ودت ان يحمدها اثنان فى الغد على فعل آخر ماعدا ما فى هذه الحال من الراحة للرجل بخلاف ما اذا كانت المرأة غير مشاركة زوجها فى هاتين الحالتين اعنى الراى والتعب فانها تعتقد حينئذ ان الله تعالى لم يخلقها الا للفراش واذا كان الامر كذلك فما يهمها شئ الا الزينة والتزجيج والتحفيف والتخطيط والتصفيف والتكحيل والتاشير والتخضيب والخوض فى دواعى الحسن والتحسين والاعجاب بما عندها من الحلى واللباس فيحوجها ذلك الى التبرج واظهار الزينة واللهو وما اشبه ذلك والويل لمن كان له امرأة على هذه الصفة والذى يساعد المرأة على هذا خصوصا هو ما اذا كان لها جارية فتكلفها حينئذ اشغال البيت وتجلس هى لمحادثة النساء اللاتى يزرنها او تخرج هى لزيارتهن فتقضى اوقاتها كلها فى الاحاديث الفارغة والحكايات المغوية ومن الرجال من يعجبه ان تكون امرأته دائما متزينة متحلية ظنا بان هذه

للزينة لمجرد ارضـآئه واجابه بنآء على ان الرجل اذا ارضى زوجتــه بما تشتهيه من الملابس والحلى لم يعد لهـا ارب الا فى ارضـآئه مكافأة له على جميله ومنهم من لايرى لزوما لهـذه الزينة فى جميع الاحوال ولكن عند الاقتضآء كوقت الزيارة مثلا او فى الاعياد فاما من لا قدرة له على الاسراف فانه يضطر الى ايثار هـذه الحالة اضطرارا وان كان ذلك لايخطر للمرأة ببال ثم ان هؤلآء الذين يرون تعليم المرأة القرآءة والكتابة لازما يرون ايضـا انه لا مانـع من معاشرتهـا الرجال ومحادثتهـا لهم ومواكلتهـا وملاشاتها اياهم وهو مبنى عـلى عدة اسباب احدهـا ان شريعتهم لم تنههم عن ذلك فاذا حظروا النسآء عنه فانمـا يفعلونه غيرة عليهن وقد كان انفراد النسآء عن الرجال فى بلاد اوربا فى الزمن القديم عادة عامة فلم يكن يجتمعن مع الرجال الا نادرا حتى ان نسآء النصارى فى برالشام الى اليوم اذا ذهبن الى الكنيسة جلسن منفردات وبينهـن وبين الرجال حائل من شبابيك ونحوها كالذى يوضع على كوى ديار الاستانة الثانى انهم يعتقـدون ان المرأة اذا كانت متـادبة عاقلة فلا تزيدها مخـالطة الرجال الا ادبا وعقلا فان العقل كما قيل مطبوع ومسموع وهذا الثـانى لايحصل الا من المعاشرة والمذاكرة وما دامت المرأة لاتكلم الا امرأة مثلها فلايتـاتى لها ان تطلع على احوال الناس وان الكتب وان كانت مشحونة بالافادات والاخبار الا انهـا لاتؤثر فى مطالعها تاثيرصوت الحى الثالث ان المرأة اذا كانت قد حصلت من قرآءة الكتب معـارف تؤهلها الى المشاركة فى الكلام والراى عظم شانهـا عند الرجال فـلم يكن من المحتمل انتهاك حرمتها بالمراودة والمغازلة او انها هى تبذل عرضها لهم حالة كونها تعلم انهم يحترمونها ويعظمون مقـامها فابتـذال المرأة عرضها للرجال لايكون الا من سخافة العقل والطيش الرابع ان معاشرة النسآء للرجال فيه اقتصاد عظيم فان الرجـل المتزوج مثلا اذا احضر

زوجته لدى نأوره لم يكن عليه ان يجعل فى حجرتها لأنها ما يجعله فى حجرته لأنه سوآء كان من اكل اوشرب اونور اونار اوخدمة بخلاف ما اذا اتخذ حريما فانه يلزمه حينئذ مضاعفة هذه الاشيآء واتخاذ الحريم على هذه الصفة يكلف نفقات باهظة ولاسيما فى الاستانة فان صاحب الدار يلزمه ان يتخذ خدمة لنفسه ولزوجته خوادم مخصوصات بها ولاسيما اذا كان الرجل ذا زوجتين ولعل هذا الاشتراك فى المصروف هو اقوى الاسباب التى حملت الافرنج على الاشتراك فى المعاشرة لانهم لاصبر لهم على تحمل النفقات لكثرة مايطلب منهم من المال فى مصالح متعددة تؤول الى تعمير الوطن فهم يحاولون تخفيف النفقات فى بيوتهم ما امكن الخامس انه متى ساغ معاشرة النسآء للرجال حصل منها الحرية للرجل كما يحصل للمرأة فاذا تعمدت المرأة خيانته من هذا الوجه فبازائها هو من نفس عملها السادس ان ترخيص النسآء فى معاشرة الرجال سهل للمرأة ان تتعاطى من الاشغال والاعمال ما تتعاطاه الرجال ففى باريس ترى النسآء اللآتى يبعن فى الدكاكين اكثر من الرجال وهن اللواتى يقبضن ثمن مايباع لا الرجال وفى لندرة ترى النسآء مستخدمات فى مواضع متعددة حتى ان آلات التلغراف فى جميع انكلترة تكاد ان تكون مخصوصة بهن فانها من الاعمال الهينة لابل تجد منهن فى المعامل الشاقة مئات الوف وقس على ذلك سائر مدن اوربا وفى الجملة فالمرأة فى بلاد الافرنج معادلة للرجل فى معاطاة الاعمال على قدر معادلتها له فى القوة والجلد فكل مايتعلق من العمل بباشرته ومن كانت على هذه الحالة فقلما يخطر ببالها الاشتغال بدواعى العشق والهوى والجموح فى الشهوات مما هو من شان النسآء البطالات فان البطالة شر الرذائل ولاسيما بطالة النسآء فان فراغ ايديهن عن العمل يشغل السنتهن بالاباطيل وقلوبهن بالاهوآء الزائغة فلاشئ يصون المرأة عن الرذيلة ويدنيها من الفضيلة اكثر من العمل مع ان فى العمل

فوائد اخرى من جهة صحة البدن فالذين يتعودون البطالة والكسل هم أكثر الناس عللا وامراضا ولاتصغ الى من يقول ان العمل تعب والبطالة راحة وان الراحة ادعى الى الصحة من التعب فان الراحة لايستطيبها الانسان الا من بعد التعب ومن قضى يومه اجمع بالبطالة فلا يمكن انه يكون مستريحا واقسم بالله العظيم انه لاشئ اوجع لقلبي من ان ارى رجلا يقضى نهاره كله فى التنقل من محل قهوة الى محل آخر او فى اللعب بالنرد والشطرنج والورق وان كان امرا غنيا عن العمل واذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى فى حق النساء اوجب للوم لان بطالة المرأة آفة من الآفات المستعاذ منها فاعوذ بالله من من امراة تقعد خائضة فى حديث جيرانها وفيما ياكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون وفيما هو عندها وليس عندهم اوفيما هو عندهم وليس عندها او فى ان تقول انى خصصت من المزايا بكذا وفقت على سائر النساء بكذا ثم اعوذ بالله من رجل يقصر يده عن العمل ويطيل لسانه فى اعراض الناس ويتثاءب ويتمطى وكلما حرضته على الكد قال لاينبغى لى ولايتأتى والجواب من الفريق الآخر الذى يحظر النساء عن القرآءة والكتابة ان النساء من طبعهن وطباعهن وطبيعتهن المكر والدهاء والغش والخيانة والمداهنة فلا ينبغى الركون اليهن بشئ ولا الاعتماد على رايهن فانهن ناقصات عقل ودين والويل لمن يودع سره عند امرأته او يطالعها فى امره كيف يفعل فانها لا تلبث ان تبوح بسره للجيران وتفضحه عند البعيد والقريب وفى الحقيقة فان المراة عدو الرجل فى زى صديق وكلها شر فما يكاد يحدث فى الكون شر الا وهى اصل له وهذا امر مسلم تشهد له جميع التواريخ القديمة والحديثة ومن ظن ان امرأته تحفظ عليه سره اوعهده اوعرضه لاجل حلى يزينها به اولاجل ملاطفة يعاملها بها فقد ضل ضلالا مبينا اذ هى لايرضيها شئ الا الخيانة

والغدر فمهما احسنت اليها ومهما اسديته اليها من الرفق واللين فلغير فائدة فلابد من رجوعها الى جبلتها الاصلية التي فطرت عليها فاذا رايتها مرة ساهية اومفكرة فاعلم بان فكرتها تجول في ذلك ولهذا كان غالب الرجال يختارون ان يشتروا نساءهن بالعين لكي يظهروا لهن انهن في قيمة المتاع الذى يباع ويشترى لاان يتزوجوا بنات الحرائر فانهم عند ذلك يضطرون الى مجاملتهن وملاطفتهن وملاطفة اقاربهن جميعا فان المراة اذا علمت ان اباها او احدا من اهلها ينتصر لها ويجيرها من زوجها زادت شرة وسفاهة فلاتقف عند ذلك على حد وكلما عن لها وجه الخيانة قالت اني سائرة لمشاهدة امي وابي فتتخذ اباها وامها وسيلة لتنفيذ مرامها بخلاف ما اذا كانت اسيرة مشتراة بالدرهم فانها تعدم هذه الوسائل فتذل بعض الذل وتسكن في بيتها قال اما اكثارنا منهن فليس من شغفنا بهن ولا من حرصنا عليهن اذ هن لدينا بمنزلة المتاع وانما هو لتضرب بعضهن ببعض ولتلق بينهن الغيرة والتنافس في اظهار ذلهن وعبوديتهن لنا والمسابقة الى طاعتنا وخدمتنا ومن كان له زوجة واحدة فلا تلبث ان تنشز عليه وتنبذ طاعته ظنا منها بانه محتاج اليها ولايجد عنها غنى ومهما يكن من الاكثار منهن او من الاقتصار على احداهن فلا ينبغي للرجل ان يماشي امراته في الاسواق او ان يركب معها في كروسة واحدة اوان يؤاكلها او يشاربها اوان يطيل مجالستها ومحادثتها لكيلا تظن انه مفتقر اليها وكلف بها ولاعيب في استانبول اكبر من ان يرى الرجل ماشيا مع امراته في طريق واحدة والعيب كله ان يركب معها في كروسة او يجلس بجنبها في سفينة وكلما دخلها رجل اوخرج منها يصفه لها ويطلعها على حقيقة احواله كما يفعل ذلك بعض ذوى السخافة والركاكة المفتخرين بمحادثة النساء والمتلهين باخس الاشياء فاما تعليم النساء القراءة والكتابة فاعوذ بالله اذ لا ارى شيا اضرمنه بهن

فانهن لما كن مجبولات على الغدر كما تقدم كان محصولهن على هذه الملكة من اعظم وسائل الشر والفساد اما الكتب فانهن لا يقرأن منها شيا الاما كان مخصوصا بالعشق وحيل النسآء وسوآء اردت او لا فانهن يجلبنها من اقصى محل فى الارض ويحفظن عن ظهر القلب كل مافيها واما الكتابة فاول ماتقدر المرأة على تاليف كلام بها فانه يكون رسالة الى زيد ورقعة الى عمرو وبيتا من الشعر الى عزب وشيا آخر الى رجل آخر فمثل النسآء والكتب والكتابة كمثل شرير سفيه تهدى اليه سيفا اوسكير تعطيه زجاجة خمر فاللبيب من الرجال هو من ترك زوجته فى حالة الجهل والعمى فهو اصلح لهن وانفع ولوشآء الله تعالى ان يخلقهن كالرجال فى جودة العقل وصواب الرأى وحب الفضائل لفعل الا انه تعالى لم يخلقهن كذلك بل جعل للرجال فضلا عليهن ومزية فالرجال هم القائمون بامور الدنيا وهم الذين يسوسون الناس ويحكمون بينهم ومنهم ذووا الامارة والسيادة والعلم والجهاد والبنآء والحرث وعمران البلاد وغير ذلك وليس للمراة نصيب من هذا البتة وانما هى متاع لحفظ متاع البيت ووعآء لصون مادة النسل لاغير ومع كونهن يعلمن هذا من انفسهن حق العلم فكثيرا ما يحاولن ان يتشبهن بالرجال بل يتكبرن عليهم فاف للرجل الذى يرى امرأته انه عديلها او انه عاجز عن شرآء غيرها او ان فيها من المزايا ما ليس فى اخرى سواها وآخر الكلام ان التذلل للمرأة والركون اليها ينافى الحزم والرجولية هذا رأى جميع العقلآء فاجاب زير النسآء قائلا ان قول خصم النسآء ان المكر والدهآء والغش والخيانة من طبعهن وطباعهن مبنى على انه اخذ امراة خائنة مداهنة وقاس عليها جميع النسآء اذ لسنا نسلم بان جميع النسآء على هذه الصفات الذميمة على انا لوسلمنا ذلك لما كان الا فى حق النسآء العاريات عن الادب والمعارف وهن اللواتى يعتقدن بانهن مخلوقات للفراش فقط لانهن لم يربين فى التقوى والفضائل فنشأن على الفطرة الاصلية

فيدل ان تتصور امرأة قد بلغت من العمر خمسا وعشرين سنة مثلا وهى جامحة فى ميادين الخلاعة والهوى ثم تخذها مثالا لجميع النسآء تصور بنتا بلغت سبع سنين فقط وتصور ما هى عليه من الخفر والادب والحيآء فاذا اخذتها واحسنت تاديبها وتربيتها وعلمتها القرآءة والكتابة والحساب وبعض ما يليق بالاناث ان يتعلمنه من الصنائع كالخياطة والتطريز الى ان تبلغ خمس عشرة سنة ثم زوجتها ذا اخلاق حسنة وتربية كاملة مثلها فلا يحتمل فى الامكان انها تخونه وقس على ذلك سائر البنات فتكون خيانة النسآء اذن من عدم تربيتهن لامن طبيعتهن اما قوله ان تعليم النسآء القرآءة والكتابة اضر شىء بهن اذ يحملهن على مكاتبة الرجال فنقول ان العلم والتعليم هما فى نفس الامر نور العقل وهما بمنزلة المصباح الذى يحمله السارى ليهتدى به فاذا لم تأمن المرأة على حمل هذا النور لم يكن لك ان تأمنها على حمل اى نور كان مخافة ان تحرق البيت به ويلزمك ايضا ان لاتأمنها على ابرة مخافة ان تفقأ عينك بها فقل لى بحقك واصدق فى المقال ايما اجمل بالمرأة ان تتعمد مطالعة بعض الكتب المفيدة وتقول هذا اشارة الى آية كريمة اوحديث شريف او واقعة مشهورة اومثل سائر ام تقول ان ضم طرفى الفرجية اشارة الى تمنى الوصال او اصلاح النقاب من ورآء اشارة الى امر ناظرها بالاتباع اوان امالة التمسية من جهة الى جهة يشير الى كذا وكذا فلعمرى ان حصول النسآء على ملكة القرآءة والكتابة وعلى الادب والمعارف هو اجمل شى بهن وهو اشوق للرجال من الجمال والحلى والجواهر فالادب للمرأة يغنى عن الجمال لكن الجمال لايغنى عن الادب لان الجمال قصير العمر لايدوم لاحد مدة عمره كله فاذا زال جمال المرأة ولم يكن لها من الاخلاق الحسنة والصفات المحمودة ما يسد مسده عدت من سقط المتاع وما عدا ذلك فان ادب المرأة يؤثر كثيرا فى اخلاق اولادها اذ البنت الصغيرة متى رأت امها مقبلة على مطالعة الكتب وضبط امور البيت

والاشتغال بتربية اولادها جديها الشوق الى ان تكون مثل امها بخلاف ما اذا رات امها مقبلة على التزين والتبرج واضاعة الوقت بالاحاديث الفارغة والزيارات الغير اللازمة فانها تخيل ان جميع النسآء كذلك وانها حين تبلغ مبلغ النسآء تفعل فعل امها وتزيد شيا وقد نرى كثيرا من البنات اللواتى اهملت تربيتهن وتاديبهن متى بلغن مبلغ النسآء فما يخطر ببالهن شئ الا الزواج وكلما مضى عليهن يوم من دون سماع خبر عن فتى عازم على الزواج حسبته عاما وكلما رات احداهن عجوزا مقبلة ظنت انها انما جآءت لتخطبها لبعض الشبان اى شاب كان فشتان مابين هذه وبين من تعتمد على معارفها وآدابها وتعلم ان الناس جميعا يكرمونها ويلهجون بذكرها لاجرم ان جهل النسآء واهمال تربيتهن على صغر هو الذى يحملنهن على ارتكاب الفساد والشر والشطط والضلال والوساوس فمن ذلك كونهن يعتقدن ان هولآء الخوجات الدجالين هم قادرون على كل شئ استغفرالله واعوذ به من الجهل فمنهن من تذهب الى احدهم وتشكو اليه عقمها وانها اذا مات زوجها وهى على هذه الحالة تحرم من ميراثه ومنهن من تشكو اليه ان زوجها يعشق جارية لها اوانه قد اتخذ عليها ضرة فيضحك عليها ببعض خطوط يخطها لها فتاخذها وهى معتقدة بان فيها سرا فاذا لم تجد منها نفعا قصدت غيره ولايخفى ان كتب هذه الخطوط لايكون الابدفع اجرة وافية عليها وقد بلغنى عن بعض الامرآء انه غاب عن داره وترك فيها زوجتين له فلما استطالتا غيابه صارتا تتنافسان فى بذل المال للخوجات لسرعة حضوره فكانت هذه تنفق من جهة وتلك من جهة اخرى حتى بلغت نفقتهما خمسمائة كيس تماما فلم يرد باخس النسآء ان يسمع من زبرهن كلاما فى حقهن فى شهر رمضان المبارك لاعتقاده ان الكلام فيهن فى هذا الموسم الطاهر غير لائق مع انه كان اسبق الناس الى منازلتهن فى سوق التحف والى

مشطهن وقرصهن ومرشهن ومرسهن وملشهن وهو من جملة الافعال البشرية المتناقضة فان الانسان لا يستقر على شان كما ان من يحامى عن حقوقهن ويحترم مقامهن لا يتهافت على مداعبتهن وممازحتهن بمثل مايتهافت به المحتقر لهن والمزدرى بهن فلما ان ءان وقت الكلام للزير المذكور استمر فيما اشار اليه اولا من جهل النسآء فقال نعم ان جهل النسآء ليرميهن فى مهالك عطبة واضاليل مشومة فان المراة اذا كانت جاهلة لاتقف على حد من الزيغ والهوى والمنكر والوساوس والاوهام فتحرم ماحلله الله وتحلل ما حرمه الله وكلما رأت رجلا مخالفا للناس فى لباسه ظنت انه قادر على تنويلها اربها بل لو رأت رجلا مجنونا يمشى فى الاسواق عريانا ظنت ان فيه سرا الهيا فهرعت اليه وحرصت عليه وشكت له ما نابها من زوجها وجيرانها ولهذا كثر اليوم المدجلون المدلسون المغيرون لزيهم واطوارهم وسمتهم وهديهم اذ رأوا حرفتهم هذه انفع لهم من العلم والاجتهاد فاذا سألتهم عن كدهم ورزقهم قالوا انا نعيش من رزق الله اذ لا صنعة لنا ولا احتراف فالله سبحانه وتعالى يلهم بعض النسآء الخيرات فيقصدننا ويعطيننا شيا ولكن مابال هولآء الخيرات لايقصدن هولآء الخيرين الا فيما يتعلق بامر الزواج والطلاق واتخاذ الضرائر والحبل والانبآء بالغيب فهذا يقرب من الكفر اذ لايعلم الغيب الا الله عز وجل فلو كن متصفات بالعلم والفضائل لما اضعن اموالهن على امثال هولآء الدجالين بل كن يسعين فى ارضآء بعولتهن وتربية اولادهن كما هو واجب عليهن ويفوضن امرهن الى الله سبحانه فهو الذى يعطف قلوب ازواجهن عليهن ويمنعهم من اتخاذ الضرائر والتسرى عليهن لكنهن ابين الا ان يجعلن لله شريكا فى القدرة والتاثير فقل اعتمادهن عليه وثقتهن به فكلما نابهن امر اسرعن الى احد هولآء المحتالين وسكون اليه بثهن وبثثن سكواهن واستخبرنه عن العاقبة والمآل فسآء الجهل صاحبا وبئس الضلال مركبا الا وان الجهل لاغيره هو

الذى اغراهن بالاكثار من الحلى والملابس الفاخرة والسرف فى النفقات والتبرج والبطالة والخوض فى الاحاديث الفارغة لعمرك ليس الماس بمخلص نصحا ورأيا وليس الياقوت يرشد الى اوضاع الزوج ولا الزمرد يرب للاولاد فهذا كله متاع فان وزينة فارغة فليست زينة المراة الحقيقية سوى الفضائل والادب ولا يمكن الحصول عليها الا من الكتب والعلم وفضلا عن ذلك فان المرأة اذا كانت جميلة كانت غنية عن الحلى واذا كانت قبيحة لم تكن الجواهر جمالا لهما كما قيل ليس الجمال بمئزر فاعلم وان رديت بردا ان الجمال معادن ومناقب اورثن حمدا فهل يتأتى لعاقل ان يقول ان النساء انما خلقن لاتخاذ الجواهر والبطالة لا لتعلم القرآءة والكتابة اما قولك ان المرأة متى تعلمت القرآءة والكتابة فاول شئ تفعله هو ان تكتب رسالة الى عاشقها فهو من اكبر الاضاليل فان المراة الفاضلة المتأدبة لايكون لها عاشق اذ هى تعلم ما يجب عليها لله ولزوجها ولابويها فاما اذا كانت شريرة فلاتعوزها الفرصة لاتخاذ عجوز بدل الرسائل فان العجائز الجاهلات هذه صنعتهن ولقد علمنا من التجربة وما بعد التجربة شاهد ان المراة اذا كانت مولعة بالمعارف وبقرآءة الكتب المفيدة تكون اقل حيلة ومكرا من المراة الخالية عن ذلك وتكون ايضا اقل كلاما فان المعارف تشغلها عن ارتكاب الامور المنكرة فكلما رايت امراة جاهلة بطالة فاحكم بانها كثيرة المكر والكلام فلايكون لها شغل سوى فى الحديث على اللبس والزينة وخلب عقول الرجال فى محبتها وكيد زوجها ومن خالفها فمن ثم تقصد امراة بطالة مثلها وتفاوضها فيما دبرته واضمرته فاذا خرجت من عندها وعلمت انه بقى فى خاطرها شئ لم تذكره قصدت اخرى واخرى وهكذا فتقضى اوقاتها بالبطالة والضلالة ولاسيما اذا كان عندها جارية مكلفة بتدبير منزلها فانها تلقى عليها جميع امور البيت وتسرح فى طلب الحديث الباطل فاى الرجال هداك الله يرضى بان يكون له زوجة مثل هذه وايهم لايريد كبح النساء

عن غوايتهن وشهواتهن ولا كابح لهن الا المعارف فاما ان ظننت العصا كافية لهن من بعد ان عودتهن على الحلى والحرير والسرف فى التفقسات والمفاخرة بالرياش والمتاع فقد اخطأت ظنا وابديت افنا وانما يصح هذا فى البلاد التى تتكلف فيها النسآء اعمال الرجال من نحو الحرث والحصد والطحن والخبز على ان النسآء اللآتى يباشرن هذه الاعمال غير محوجات ازواجهن الى التوبيخ والتقريع فضلا عن العصا ولعمرى انهن احسن حالا واهنا عيشا معهم من نسآء الجواهر والحلى (قال الزبر) ورب قائل يقول كيف يمكن ان النسآء اللآتى يباشرن الحرث والحصد والطحن والخبز والغسل وغير ذلك من الاعمال الشاقة يكن اسعد حالا واهنا عيشا مع ازواجهن من النسآء المحطيات بالملابس الفاخرة المتجليات بالجواهر الباهرة الراقدات على فرش من النعام الطاعمات فى كل يوم عشرين لونا من الطعام الذائقات جميع بقول الارض وثمرها وفاكهتها ولحومها والبانها ومسمناتها ومسمنات البحر معا الخارجات فى هوادجهن كانهن على سرر مرفوعة وفرش منضودة فلا يعرضن وجوههن لحر الصيف ولا لبرد الشتاء ولا يخطر ببالهن غير الرفاهية والهنآء والتنعم والصفآء فايديهن لا تزال ناعمة وبشرتهن براقة واسنانهن حادة ومعدهن لهاضمة وبذلك تبقى صحتهن معتدلة فيزددن حظوة عند ازواجهن وطول عمر وتمتع وهل العيش الا هذا فهل من الممكن ان يقاس الفقير بالغنى والشقى بالسعيد وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم كاد الفقر يكون كفرا فان شان الفقير ان يكون ابدا شاكيا متدمما متظلما مجدفا اى مستقلا لعطآء الله تعالى وبما يعرض له من الفاقة والاحتياج الى اللوازم الضرورية ما تختل به صحته ومتى اختلت صحته اختل عقله ومتى اختل عقله اختل دينه فنعوذ بالله من الفقر ونستعين به على الغنى فان الغنى يبنى المساجد لله ويبنى للناس المكاتب والمستشفيات ويغيث الارامل و يربى اليتامى وينفع جميع العباد فيحصل

على سعادة الدارين ويغتنم الاجر والثواب من الخالق عز وجل والمدح والثنآء من المخلوق ويالهسا من غبطة قلنا هذا صحيح من وجه فانك اذا عنيت بالفقير انه المحتاج الى بذل مآء وجهه فى السؤال والتكفف فهذا لاشك مذموم وكذا ان عنيت بالغنى انه السخى المتصدق المتبرع بفعل الخيرات وسد الحاجات فهذا محمود عند الله والناس الا انى لا اسلم بان النسآء اللواتى يساعدن ازواجهن على الاعمال فقيرات وكذا الرجال الذين يكدون بايديهم لتحصيل معيشتهم وانما الفقير هو المتبطل المتعطل الذى يقضى اوقاته فى اللعب والحديث الباطل على انى اقول انه لا يكاد يكون فقير الا من الكسل ولا لذة فى العيش الا مع العمل فالعمل على هذا لا يحسب نصبا ولا شقآء كما ان البطالة لا تحسب راحة ولا هنآء لا جرم ان اشق الناس من لزم الكسل والبطالة وركب الغواية والضلالة ومن الثابت المعلوم ان النسآء العاملات يكن اصح ابدانا من النسآء البطالات المترهلات واطول اعمارا واكثر اولادا فحظوة المرأة الحقيقية انما هى ان تعاون زوجها على اعماله واشغاله وتعيش معه بالوفاق والرفآء ومتى جلسا للطعام المكتسب من كد ايديهما وعرق جبينهما وحولهما اولادهما استطيباه واكتفيا به وحمدا الله على ما رزقهما من فضله واهتما من بعد ذلك بقضآء الواجب عليهما والله سبحانه وتعالى يبارك فى عملهما ويوفقهما الى الخير والفلاح فهذا هو الحظ وهذه هى السعادة ومما نسب الى سيدنا سليمن عليه السلام انه قال لكسرة خبز مع الوئام خير من جدى حنيذ مع الخصام واعود فاقول ان الفلاح مثلا او صاحب الصنعة اذا كان عيشه مع زوجته على الصفة التى ذكرتها هو اسعد حالا من الغنى المشتت الافكار ما بين ان يكون زائرا مرة ومزورا مرة اخرى ولاسيما اذا كان اسير دنياره ولا يرعى ذمة جاره الاوان تلك المائدة الصغيرة المشتركة بين المتعمل الكاد على عياله وبين زوجته واولاده وتلك القدر التى يتعاونان على

طبخها لاهنأ وامرأ من تلك الموائد الكبيرة التى يخصصها الاغنياء ويفردونها ويفرزونها بعضها لانفسهم واقرانهم وبعضها لحريمهم وبعضها لبنيهم وبعضها لبناتهم وبعضها لعبيدهم وبعضها لجواريهم فهذا كله عناء الروح وتعب النفس وقلق الفكر الا ان سبحانه وتعالى لم يخلق الناس كلهم على سحنة واحدة او حالة واحدة وما انا ممن يزدرى بالغنى اذا كان يصرف فى وجهه اعنى فى البر والاحسان واغاثة المحتاج اذ الغنى فضل من المولى تعالى ونعمة الا انه فى الغالب يوقع صاحبه فى محن شهوات مضنية وفتن اهوآء مردية وشجن مطامع مغوية حتى تذهب عنه لذة القناعة ويضل عن عمل الخير وقد قال البوصيرى رحمه الله

والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

وقد يصعب على الغنى الغوى ان يفطم نفسه عن الشهوات حالة كون الغنى ثديا دارا للهناء فينبغى للبيب ايها الحبيب ان لاياخذ دائما بظواهر الاشياء فانه يزل ويضل بل ينبغى له ان يعمل فكره فيما ورآء ما ينظره فما ترى من خروج النساء وتبرجهن وصلفهن وتالقهن بالحلى والجواهر والملابس ليس دليلا على غبطتهن ولو كن حاصلات عليها فى ديارهن لما كن يكثرن من الخروج والزيارات والتلهى بالبطالة فمن المحال ان يحصل الانسان على غبطة تامة من دون ان يباشر عملا ينفع به نفسه وذويه واهل بلاده فما عمل هولاء النساء البطالات الغاويات المتشهيات المسرفات اللاغيات الراغيات ليلا ونهارا (قال الزبر) ومتى اجتمع بالمرأة السرف والبطالة والجهل كانت وبالا على زوجها وعلى اهلها بل على اهل البلد جميعا لكن الجهل اصل كل فساد ورذيلة فان المراة العاقلة اللبيبة تجتنب البطالة كما تجتنب الدآء وتنكر السرف كما تنكر البلاء وللسرف حد يقف عنده المسرف كما ان للبطالة موانع وعوائق تحوج صاحبها الى الاقلاع عنها سوآء اراد ام لم يرد وقد يستوى فى البطالة جميع الناس فى المنام وكذلك المسرف

والمقصد يستويان فيه الا ان الجهل ليس له حد وليس النوم ايضا بمانع منه فان المرأة الجاهلة اذا رأت فى منامها شيئا انزلته منزل الوحى والالهام فاستخرجت منه معانى تزيدها ضلالا وغواية فتكون اليقظة والنوم عندها على حد سوى بل ربما كانت رويا النوم عندها أكثر تاثيرا وابلغ فضلا من روية اليقظة فتهرع الى احد الخوجيات ليفسر لها مناميها فيزيدها ضلالا على ضلال وخبالا على خبال ولايزال دابها التشاؤم والتطير والتفاؤل بكل ما تراه وماتسمعه وبما يوسوس به اليها خناسها حتى تسكر من الغواية والهوى ويكل عنها حد كل انذار ونصيحة ويهون عليها كل فظيعة وفضيحة ومن تاثير الجهل ان بعض النساء هنا يعتقدن ان من العلل والامراض ما هو كاور اى كافر فيقصدن بعض القسيسين ليداويهن منه ويروى عن واحدة منهن زعمت ان فى ولدها علة من هذه فاخذته الى باباص بجوار بايزيد فاخذ ماء ونفخ فيه ثم سقاه الولد وغسل به وجهه واعطاها شمعة صغيرة على سبيل البركة فرجعت وقد اعتقدت اعتقادا تاما بان ابنها شفى واشاعت ذلك فى جميع المحلة من دون نكير وهذا الامر ثابت لاشك فيه فتعالوا ايها المومنون وانظروا ماتفعله المومنات اللواتى يغسلن البن وغيره بدعوى انه يتنجس من ايدى النصارى ثم يستشفين بماء قسيسيهم تعالوا ايها المسلمون وانظروا ما تفعله المسلمات الغاويات اللواتى لم يبلغهن قط قوله تعالى فى سورة المائدة آية ٥٦ وقوله تعالى قل لا اقول لكم عندى خزائن الله ولا اعلم الغيب وقوله وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الاهو وقوله قل لا يعلم من فى السماوات والارض الغيب الا الله ومايشعرون وقوله ام عندهم الغيب فهم يكتبون وقوله اعنده علم الغيب فهو يرى وقوله وما كان الله ليطلعكم على الغيب وقوله اطلع الغيب ام اتخذ عندالرحمن عهدا تعالوا انظروا الى هولاء اللواتى دابهن اتخاذ ادوية للحبل وخرزات للحبة وتمائم لكشف الضر وتعاويذ لاقبال الحظ ولم يسمعن قط قوله تعالى

امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء وقوله ايضا واذا مرضت فهو يشفين وقوله وماتخرج من ثمرات من اكمامهـا وماتحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه وقوله والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون وقوله قل من يرزقكم من السماء والارض تعالوا انظروا الى هولاء المسرفات المرحات الفرحات ولم يخطر ببالهن قط قوله تعالى والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقوله ايضا ان الله لايحب المسرفين وقوله ولا تمش فى الارض مرحا وقوله ان الله لايحب الفرحين وهذه الافعال السمجة انما يكثر وقوعها فى دار الاستانة دار الكياسة والادب والظرافة واللطافة دار العلوم والمعارف والدراية والنجابة دار الهدى والرشاد والقصد والسداد فاظنك بغيرها من بلاد الاناطول ولقد بلغنى من الصدوق ان نساء محلة من محلات الاستانة يمرجن الآن ويمرجن فى حديث بقرة تكلمت وذلك ان غلاما كان يقود بقرة فالتفتت اليه وقالت له اذهب الى ابيك وقل له يتوضأ ويجئ فانى اريد ان اطلعه على امر فذهب الغلام واخبر اباه فاقبل يسعى الى البقرة فقال لها ما الخطب قالت فليستعد الناس لشر عظيم فانه فى عيد الاضحى تكون ملحمة عظيمة قال الراوى فقلت لاحداهن تلك ملحمة الضحايا فما على الناس من باس واخبرنى آخر ان خاتونا جليلة الشان خيل اليها انها فى الشهر الرابع من حبلها ولم تحس بحركة الجنين فانطلقت الى احدى القوابل فجعلت القابلة تلكز بطن المرأة وتصفر للجنين فلما لم تر الخاتون فائدة من اللكز والوكز سارت الى باباص فسقاها من الماء المطهر وقرأ عليها بعض كلمات واذا بالجنين قد ارتكض فى بطنها فرجعت مسرورة مستبشرة واساعت ذلك عند معارفها فيا للعجب مابال نساء النصارى لايقصدن ائمة المسلمين وعلماءهم للاستشفاء بهم (قال الزبر) ولكن ما بالى اليوم النساء خاصة على الجهل دون الرجال والحال انه لولا جهل الرجال وغباوتهم سوء ظنهم وزيغهم لما وصلت

النسآء الى هذه الدرجة من الجهل والا سترسال الى الا حلام والعقائد الفاسدة وتضليل الخوجات والاستشفآء بالقسيس فالحق فى ذلك كله على الرجال اذ كان يجب عليهم ان يعلوهن ويهذبوهن ويطلعوهن على الحقائق لا ان يحملوهن على الاعتقاد بانهن مخلوقات للزينة والفراش فقط وهذا ايضا جواب عن زعم من زعم ان النسآء اصل جميع الشرور فان الحق فيه على الرجال ايضا اذ من المعلوم ان النسآء لا تحارب ولا تقاتل ولا تصول ولا تسطو بل ولا تخدش احدا وانما تطلب من الرجال ان يفعلوا ذلك والرجال من سفههم وهواهم وقلة تدبرهم فى عوقب الامور يلبونهن ويطيعونهن ويهلكون الاموال والارواح ويخربون البلاد فى حبهن فكم من سفيه التى نفسه فى تهلكة لاجل غمزة عين واهلك جاره لاجل ابتسامة او اشارة بالحاجبين فاذا كانت المراة تدعو الرجل الى السفاهة والغواية وهو يلبيها فايهما الملوم مع ان الرجل ابدا يفتخر بانه حكيم رشيد لبيب وما يعجبه فى الدنيا باسرها غير تدبير نفسه فتأمل هداك الله فى ظلم الرجال لانهم لم يكفهم الا ستبداد بالامارة والسيادة والحكومة والولاية والسياسة حتى نسبوا الشر والفساد كله الى النسآء وبرأوا انفسهم عما ياتونه من ذلك اما قولك انكم تشترون النسآء وتنزلونهن منزلة المتاع فلعمرى ان هذا القول ليس بقول رجل رشيد لانك اذا كنت انت تشترى امراتك وغيرك ايضا يشترى امرأته فمن يتزوج بنات الاحرار واذا كان لك بنت فمن يتزوجها وبعد فاسمح لى ان اسألك سؤالا وجيزا ولايكن سببا للغضب ما بيننا فقال الرجل سل مابدا لك فقال الك زوجة قال نعم قد اشتريتها مذ عهد قريب وهى صبية قال اذا شئت ان تتحقق صدق قولى فعلمها القرآة والكتابة على سبيل التجربة وبعد ذلك اذا رايت ضرر هذا التعليم اكثر من نفعه فعد على باللوم والتفنيد وان شئت فبالصفع ايضا والا فكن لى من الشاكرين وقد نرى اناسا كثيرين يسافرون فى البرارى والقفار

ويخوضون البحار لاجل التجربة والاختبار فما عليك من بأس اذا باشرت هذه التجربة وانت فى دارك واكتم ذلك عن جارك فطفق الرجل يفكر ويقدر ويعمل رأيه ويدبر حتى قال له سافعل ذلك ان شاء الله ثم تفارقا مفارقة الاخوين وكان الزير اشد فرحا بقبول هذه النصيحة وافرعينا فلما ان عاد الرجل الى بيته سأل امرأته هل تريدين ان تتعلمى القرآة والكتابة فقالت لا اريد الاما اردت ثم جعلا يبحثان عن امرأة معلمة ويسألان كل معارفهما عنها فكان الناس يضحكون من كلامهما فقال الرجل فى نفسه ياللعجب ان بلدنا يحوى كل ما تشتهيه الانفس من الحرام والحلال فكيف لايوجد فيه امرأة تقرأ وتكتب فلما اعيته الحيلة اراد ان يعلم امرأته شيأ آخر فخطر بباله ان يعلمها العزف بالة من آلات الطرب التى تلائم النسآء كالقانون مثلا فرجع الى البحث عن تحسن هذا الفن فلم يجد حتى قيل له ان نسآء الافرنج يعلمن العزف ولكن على آلتهم التى يقال لها پيانو فقال ماتطربنى نغمات الافرنج ولا موجب للحصول على ما لايطرب ثم زاد به القلق والحيرة لعدم وجود من تقرأ وتكتب ومن تعلم الموسيقى وجعل يخوض فى هذا الحديث مع كل من يحادثه حتى انكروا عليه هذا الامر وظنوا ان به لمما فتجانبوا عشرته وملوه وكادوا ان يخرجوه من محلتهم فرجع الى الزير وهو يقول اصلحك الله ايها الزير المشير السديد التدبير لقد القيت بينى وبين جيرانى العداوة والبغضآء وكدت اكون عندهم صاحب بدعة ثم اطلعه على القصة والشان فقال له الزير لاباس هون عليك فانى كنت علمت زوجتى القرآة والكتابة والالحان خفية فانا ارسلها الى زوجتك لتعلمها ولكن فليكن هذا الامر مكتوما عن الجيران الى ان يهتدوا لما ينفعهم ويجتنبوا ما يضرهم ويظهر عندهم فضل تعلم النسآء فان قومك لايكادون يفقهون حديثا فسر الرجل بذلك غاية السرور وشكره على هذا السعى المبرور

في الذوق

الذوق في الكلام كالذوق في الطعام في ان كلا منهما منشاه الالفة والعادة فمن قلة الذوق المعنوى انه لم يوضع في لغة من اللغات لفظة خاصة به ويضده وانما يذكر اهل المعاني والبيان شيا من آثارهما فيقولون مثلا هذه استعارة حسنة وهذا تشبيه بديع او هذه استعارة مستهجنة وهذا تشبيه بعيد ولا يقولون ان ذلك من الذوق وعدمه مع انه هو مدار ذلك وليس لغيره مدخل فيه لان الشاعر الذى يرتكب مايخل بالذوق ربما كان اعلم اهل زمانه باللغة وبكلام العرب فاتيانه والحالة هذه بما يروق النقاد ناشي من العلم والذوق واتيانه بغير ذلك من عدم الذوق لا من الجهل فمن عدم الذوق في شعر شعرآء هذا العصر ان احدهم يبتدى قصيدته مثلا بالتشبيب في امراة ثم يذكر اوقات الوصال ثم الهجر ثم عدوان الزمان وتقلب الايام والاحوال وحرمان اللبيب وفوز الجاهل ثم ينتقل الى الغزل بمذكر فيصف محاسنه ويفضله على الشمس والقمر والنجوم ثم ينتقل الى وصف الخمرة ومجالس الانس والطرب واختلاس اللذات واغتنام فرص المسرات ثم ينتقل الى ذكر مفارقة الاحباب وتجرع غصص النوى وذكر الطلول والربوع والبرق والسحاب والصبا والتعلل بنفحاتها والترقب لاوقات الوصال وكل ذلك بكلام بليغ وتعبير فصيح من دون ضرورة ولا اخلال بشي من قواعد اللغة العربية فالشاعر الذى مارس هذا الاسلوب لايرى فيه عيبا بل ربما عاب مايخالفه من اساليب غيره وهكذا ترك اهل المعاني والبيان من يتعاطون الشعر يهيمون في كل واد وانما نشوا في نقد بعض الفاظ وامسكوا بتلابيب قائلها وذلك كانتقادهم لفظة مستشزرات في قول امرى القيس غدائرها مستشزرات الى العلى ولم يعيبوا عليه قوله اذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتها شقها لم يحول مع انه من السماجة بمكان ولو انه قال وعنى وجهها لم تحول

لكان ابلغ لان ذلك يدل على انها لم تنشا ان تحرمه من النظر الى وجهها فى تلك الحالة وحاصله انه كان يرى وجهها فى الليل لبهائه وضيائه ومهما يكن من السماجة فى كلام امرئ القيس فان الذوق سجية راسخة فى العرب الاولين انظر الى الشنفرى الذى عاشر الذئب العملس والارقط الزهلول والعرفاء الجيأل فانك لا تجد فى كلامه شيا خارجا عن الذوق وكذا المعلقات وغيرها مع ان العرب كانوا خالين عن العلم وانما هى محض ملكة فيهم وانظر الى كتاب الافرنج الذين بلغوا فى هذا العصر من المعارف والتمدن ما بلغوا فلا تكاد تجد احدا منهم ذا ذوق هذا التيمس الذى هو عند الانكليز بمنزلة نوابغ الزمخشرى ومقامات الحريرى عندنا بينا هو يخوض فى امور سياسية دقيقة ومقاصد دولية انيقة اذا به يطبل بذكر القطن والانوال والمعامل او يزمر بذكر الفحم والمجارف والمواقد والمناقل وانظر الى كتاب الاخبار من الفرنسيس تجدهم يسفون ويدنقون ويسهبون ويخلون فياخذون فى معنى مبتذل ويكسونه الالفاظ الضخمة الطويلة الحوشية فتسمع منهم جعجعة ولا ترى طحنا فكل خمسة اسطر من كلامهم يغنى عنها فى العربية سطر واحد وما ذلك الا لان الانكليز الفوا الكلام على القطن والفحم والمعامل والفرنسيس الفوا الاسفاف والاخلاء فلا نقول ان ذلك صادر من جهلهم بل من عدم ذوقهم ولو قال احد بالعربية مثلا انى فى هذا الصباح الذى لاحت تباشيره وعم سروره وفاح عبيره واشرقت شمسه وسمل انسه وغرد طائر هنائه وخفقت بنود صفائه وحق له ان يذكر فى كل سفر بسطر وكل مجلة تحرر شربت مسهلا ولزمت بيتى معتزلا افيكون ذلك كلاما وهل يغضى النظر عنه احد ممن سلم ذوقه وصفا طبعه فينبغى ان تكون الالفاظ مطابقة للمعانى فما كان من المعانى مطروقا مبتذلا خسيسا فلا يليق به ان يكسى الالفاظ الطنانة فانها تزيده هجنة وهولاء الافرنج مع تبحرهم فى الفنون واتقانهم

للصنائع لم يفطنوا الى هذه المناسبة فالعجب لقوم يقيسون الارض والسماء وليس لهم لكلامهم من قياس فان اعترض احد هنا بان العرب ايضا قد الفوا اسلوبا فى الشعر والانشاء لا يستحسنه غيرهم وهو فى نفس الامر معيب فانهم اذا مدحوا بليغا قالوا انه يفتض ابكار المعانى واذا مدحوا اميرا ابتدأوا بذكر محاسن امراة او غلام وبالتشوق اليه او اليها ومثل ذلك خروج عن الذوق اذ ليس من مناسبة بين الامير والمراة قلنا فى الجواب ان قول بعض العرب يفتض ابكار المعانى ليس بطريقة عامة يستحسنها منا كل اديب فربما عده بعض ادبائنا حسنا وعده البعض الآخر خشنا وهذا هو الفرق بيننا وبين الافرنج فان الاخلاء والاسفاف والتكرير والمماطلة عند الفرنسيس والانكليز طريقة عامة يستحسنها كل واحد منهم فان لغتهم مبنية على هذا من الاصل اما اصطلاح العرب على الابتداء بالنسيب قبل المدح فهو وان يكن طريقة عامة الا ان له وجها وذلك ان اقوى الاسباب الباعثة على الشعر انما هو فراق الاحباب لا يعلم الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها ولما كان هذا الامر كثير الوقوع عند العرب لان دابهم الرحيل والتنقل من مكان الى مكان شحذوا بذكره اذهانهم فى مطالع قصائدهم ثم خلطوه بوصف محاسن المحبوب والتغزل به فمن هذا الوجه ساغ وحسن ولو فرضنا ان العرب كانت تسكن المدن ولا تفارقها لما كان لذكر الطلول والظعائن معنى نعم اذا بالغ الشاعر فى وصف المراة التى فارقته كان يقول انه يتمنى ان يكون بعيرا تحتها او انه يشفق على البعير من ثقل اردافها او ان لها ماكمة كالطود او اردافا كالتيار او انها تسق الشريب جيما كؤوس ريقها عاد ذلك سمجا لاجرم ان ذوق الانسان ليتغير بحسب ما يطرا عليه من العوارض ويدور مع الحوادث فالاحداث والشبان مثلا يرتاحون الى المبالغة واللغو والفحش والكهول والشيوخ يأنفون من ذلك فلا يستحسنون من الكلام الا ما كان خاليا من الشوائب وعلى

هذا نقول انه لا يمكن وضع حد معلوم للذوق اذ هو مبنى على العادة والالفة وهما مختلفان وانما يمكن التقرب منه كما يمكن التقرب من معرفة حسن العادات من قبحها بسلامة الطبع وصفاء السجية *

﴿ فى صنعة الزجاج ﴾

يروى فى التواريخ القديمة ان الفينيقيين وهم سكان صور وصيدا كانوا اول من اخترعوا صنعة الزجاج وسافروا الى البلدان الشاسعة حتى انهم وصلوا الى جزيرة بريتانيا اعنى بلاد الانكليز ولم يزل اهل جزيرة ارلاند التابعة لانكلترة يدعون الى الآن انهم من نسل الفينيقيين ولذلك دعوا انفسهم فى هذه الايام الفنيان ويجل الاركان التى يصنع منها الزجاج هو الرمل مع اضافة بعض اجزاء اليه فياليت شعرى هل بقى اليوم فى رمل صور وصيدا هذه الصلاحية وهل فى طاقة جمعية بيروت العلية ان تبحث عن هذه القضية ام لا فاذا علمت ان الرمل لم يزل رملا والتراب لم يزل ترابا والهوآ هواء كان عليها ان تسعى فى اخراج منافع هذا العنصر من المجهول الى المعلوم فان قيل ان الجمعية لم تزل حديثة عهد وليس فى طاقتها استحضار الآلات اللازمة لهذه الصنعة قلنا ان المقصود من عرض هذا الامر على مسامعهم انما هو ليكون على ذكر منهم الى وقت الاستطاعة لا انهم يباشرونه الآن ولكن المهم لانتظام شملهم واستحكام عزائمهم هو ان يراسلوا جمعيات العلوم فى باريس ولندرة ويطلبوا منهم المساعدة اى مساعدة كانت فلعل بعض الخيرين فى المدينتين المذكورتين يرتاحون الى الاشتراك معهم بل الاولى ان يرسلوا معتمدا من قبلهم الى اوربا بتوصية مخصوصة من طرف القناصل توسيعا لدائرة اعمالهم وتيسيرا لمقاصدهم والا فان اقتصارهم على الاعضاء من البلاد المشرقية يبطئ بهم عن الوصول الى المقصود وحيث ان الجمعية قد استصوبت هذا المقصد اعنى نشر فوائد العلوم فى سورية وهو فى نفس الامر صواب تعين عليها ان تأتى هذه المسعاة

الجيدة من جميع ابوابها وان تتشبث لادراك بغيتها بجميع اسبابها وكما قلنا سابقا نقول الآن انه ينبغي لعزيمة الجمعية ان تكون منعقدة على ابراز فوائد العمل الحاصلة من العلوم لا على ذكر العلوم وحدها فان العلم بلا عمل مثل الشجرة بلا ثمرة ومثل النهر بلا ماء وكذلك تمنى ان نعرف هل من الممكن صنعة الفخار الجيد الذي يكون من ضمنه اتقان عمل الصحون والاوعية الصينية ام لا فانا نظن ان هذه الصنعة سهلة لا تتوقف على بذل اموال كثيرة ومساع عظيمة فهاتان الصنعتان اعني صنعة الزجاج وصنعة الفخار لازمتان لاهل سورية كل اللزوم ولا محيد للجمعية عن السعي في نشرهما لاهل وطنها ولولا ان بلادنا كانت في الاصل معدنا للزجاج لما حرصنا هذا الحرص على اعادة حدوثه فيها ونرجو ان كلامنا في هذا لايقع عند الجمعية موقع الانكار اذ ليس لنا مارب فيه سوى نفع الوطن *

﴿ في العادات ﴾

قد ذكرنا اولا تاثير العادة في الناس فلا باس هنا في الزيادة من هذا المعنى بالنظر الى مخالفة الافرنج لنا في حلق الشوارب واللحى فنقول ان هذه العادة عندهم من اشنع العادات ولا سيما اذا كان الرجل طاعنا في السن وقد تشنج وجهه وتخدد فانه يكون من دون شوارب ولحية في هيئة القرد ولاسيما ايضا اذا كان من ذوى المراتب كان يكون مثلا قاضيا او مطرانا فاذا جلس القاضي على كرسي ليحكم بين جماعة قد تحاكموا اليه وهم من اصحاب اللحى زادت الشناعة وكذلك اذا رايت مطرانا على منبر يخطب في اناس ملتحين فانك تسخر منه ويخيل لك انك في احد الملاعب التي تجرى فيها الخزعبلات والمضحكات فهذا الذي تسخر منه حين تراه منتوفا على هذه الصورة اذا رايته معملا الموسى في ازالة شعره من وجهه اعجبك حذقه وصنعته وكذا اذا حدثك واخبرك باخبار الممالك والامم فتزعمه من جهة لبيبا حكيما ومن جهة

اخرى احمق معتوها وما ذلك الامن العادة التى غلبت على عقله واغرب من ذلك ان عامة اوربا قد شعروا بقبح هـذه العادة منذ سنين قليلة فصاروا يرخون لحاهم وشواربهم وقد عاد اليهم ماكان فارقهم من علامات الرجولية وسمات الحسن ولكن بقى القبح والاناثية ملازمين لذوى المراتب العالية المستخدمين فى خدمة الدولة برا وبحرا وللقضاة ووكلاء الدعاوى ولذوى المراتب الدينية ايا كانت اما المستخدمون فى خدمة الدولة فمع مشاهدتهم ملكهم ذا لحية وشوارب او ذا شوارب فقط لم يزالوا محافظين على هذه العادة وذلك بامر رئيس دولتهم نفسه فكانه يزعم انه هو غير محتاج الى شرف الحلق فسواء حلق اولم يحلق فهو ملك مطاع واما اصحاب المراتب الدينية فانهم على خلاف عادة المسيح ورسله عليهم السلام فانهم جميعا كانوا ملتحين وكذلك كان اباء الكنيسة المتقدمون كلهم كانوا على هيئة الرجال المتزينين باللحى واما القضاة وغيرهم ممن ينظرون فى الاحكام والشرائع ولم يقوموا هذا المقام الا لحدة اذهانهم وسعة معارفهم فنسالهم سوالا واحدا وهو ما الفرق ما بين ان يحلق الرجل شاربيه وحاجبيه فان كلا منهما نبت فى وجه الانسان بالقوة الطبيعية ولو لم يرد الخالق عز شانه ان الشوارب تكون زينة للرجل لما نبتت فها انت ايها القاضى الذى تظهر اسرار الحقائق من تحت الحروف الملفوظة والمرقومة وتكشف عن الدقائق الشرعية بثاقب ذهنك قد صرت اسيرا لعادة قبيحة مذمومة بكل لسان فاما ان تزيل تشنج جلدك وتعود غلاما امرد واما ان تلتحى وها انت ايها الاسقف الافرنجى الذى تطيل الكلام على الرق والعبودية وتقول انه من بعد الشريعة المسيحية لم يبق عبودية فى الناس نراك اول اسير لعادة بلادك مع علمك بان اساقفة الشرق جميعا سواء كانوا موافقين لك فى المذهب او مخالفين متحلين باللحى ومهيبين فى اعين الناظرين اليهم فما الفائدة اذا من مطالعة التواريخ ومعرفة احوال الممالك اذا كانت عادة

المرء تغلب على عقله هذا التيس الذى لايزال يسمع له دوى وصراخ هائل على التمدن والظرف والكياسة فيقول تمدن اوربا واوربا المتمدنة وكياسة الافرنج والافرنج الكيسون لم يخطر بباله قط ولن يخطر ان تحلى الرجل بالشوارب واللحية هو اول علامات التمدن وها ان الافرنج جميعا كبيرهم وصغيرهم وحاضرهم وباديهم مع تبحرهم فى اللغات والفنون حتى انهم استنبطوا من نقوش المصريين القدماء كلاما ولغة لا يقدرون على التطلق بالعين مع ان الشاة تنطق بها وما ذلك الا من العادة وانظر الى عادة النساء عندهم فى انهن يبقين كما خلقهن الله من دون تبييض ولا تحمير ولا تزجيج ولا تكحيل ولا تحفيف ولا تخضيب ولا تنتيف ولا حلى ولا تأشير مما لا غنى عنه لنساء البلاد الشرقية اذ يزعمن ان الحسن الطبيعى وحده غير كاف فى فتنة الرجال فلا بد من زيادته مما يوجد فى الدكاكين الا ان نساء الافرنج يتخذن شعور الاموات واسنانا عارية وتفليات للثدى وعظامات وعنايتهن بهذا الاخير اشد من عنايتهن بتحسين الوجه فانظر الى فرق العادات ومن عادتهن ايضا ان يكشفن عن اذرعتهن وصدورهن فى الولائم والدعوات ويحسبن ذلك ركنا لازما من آداب الدعوة اما الرجال فى الولائم والدعوات فانهم يلبسون شبه جبة لها ذنبان من وراء يرقصان كذنابى الطائر فلا نقول ان نساء الشرق عاهرات لكونهن يستعملن الزينة والتبرج ولا ان نساء الافرنج فاجرات لكونهن يكشفن عن صدورهن ولا ان رجالهم جهلاء لكونهم يحلقون لحاهم ويرقصون من ورائهم اذنابا وانما نقول ان العادة زينت لكل قوم ان يتمازوا باحوال وصفات عن غيرهم وما دام الانسان مقيما فى بلاده وسالكا سبيل قومه يصعب عليه ان يحول عن عادته وانما يسهل عليه ذلك حين يرى بلادا اخرى وقوما اخرين فحينئذ يتبين له حسن العادات من قبيحها هذا ومع علمنا بان كلامنا لا يؤثر فى الافرنج ولا فى غيرهم وان العادات التى الفها الناس منذ

اعصر متقادمة لا يسهل استئصالها ولاسيما اذا استندت الى رواية دينية كلحس الاصابع بعد الطعام مثلا الا انا لا يمكننا السكوت عنها حالة كوننا معتقدين بان التسديد بالرذائل والتمهيد للفضائل هو وظيفة كل من يكتب صحفا تنشر ومقالات تؤثر ولاسيما حين نرى ان ابطال بعض هذه العادات سهل لايحتاج الى مشقة وذلك كمنع النسآء من استعمال البياض والحمرة فى جلودهن فان ذلك متوقف على امر بعولتهن فقط وهم المطالبون بذلك وكمنع الاولاد من الكلام السفيه والحركات المخلة بالاداب ومن تعاطى الدخان ومن مداومة الاكل وخصوصا الفواكه المتعفنة ونحو ذلك مما لاصعوبة فى اصلاحه وهنالك عادات اخرى قبيحة عامة للرجال والنسآء وهى تنظيف المناخر بالاصابع فى حضور الناس والتجشؤ عند الطعام والشراب واسترجاع النخامة عند الكلام والتثاؤب والتمطى وكل ذلك يمكن اصلاحه بدون معاناة ولا يمكن العذر عنه ومما يعد من العادة ايضا التخويف بالجن والعفريت مع انه قلما خلا بيت من بيوت الاستانة الا ويتلى فيه كلام الله تعالى فما بال الجن ينتابوننا ليلا ونهارا ولاينتابون بيوت اليهود والنصارى افيمكن لعاقل ان يسكت عن هذا ام يرجى الخير من الاولاد الذين يربون على هذا الخوف ام يصلح الجندى للقتال واسم الغول يطن فى اذنيه فى الغدو والاصال

﴿ فى الصنائع ﴾

كل من عاشر الافرنج ودرى احوالهم درى انه ليس من فرق بيننا وبينهم لا فى العقل ولا فى الفهم ولا فى الذكآء ولا فى الحجى ولا فى الفطنة ولا فى الادراك ولا فى القريحة ولا فى الحفظ ولا فى الذهن ولا فى القوة المفيدة ولا فى القوة المستفيدة ولا فى شئ آخر من الخواص الطبيعية بل فضلنا عليهم فى هذه الصفات ظاهر ظهور الشمس فان الافرنج مهما بلغوا الآن فى المعارف والفنون فهم فى العقل والفهم دوننا اما فى الذوق فانهم دوننا بمراحل شاسعة ومن اعظم الشواهد الدالة على

فضلنا عليهم هو ان كثيرا من العميان منـا قد نبغوا فى الفنون والعلوم والفوا تآليف يعجز عنهـا بصراؤهم وحسبك بالمرحوم الشيخ القويسنى وهو ممن عاصرناه مثـالا فلا حاجة الى ذكر منـاقب ابن سيده وداود البصير وابى العلاء المعرى وغيرهم وما علمنـا ان احـدا من عميان الافرنج بلغ من العلم ما بلغ اولئك وانما برع علينا الافرنج فى هذا العصر فى الصنائع اليـدوية والحرف المعـاشية وذلك من ترتيبهم وانتظـام احوالهم فان من اراد ان يتعلم منهم صنعة مالزمه ان يمارسها عند استاذه الى ان يتقنها فلا يخرج من عنده الا بشهـادة منه وبذلك تم لهم حفظ الصنائع ووقايتها من الخلل خلافا للعـادة عندنا فان من تعلم منـا مبادى الصنعة فى سنة او سنتين ظن انه قد اتقنهـا فيخرج من عند معلمه ويفتح دكانا مقابلا لدكانه وياخذ فى مغايرته ومفـاضلته باجرة اقل ممـا ياخذه معلمه وهكذا يفعل فيه من يتعلم عنده فلا تزال الصنـائع عندنا تتدلى وعند الافرنج تترقى وقس على ذلك التجارة ومعلوم ان التجارة والصنائع هما اصل ثروة البلاد فلذا يستحيل علينـا ان نجارى الافرنج فى ثروتهم وغناهم ولما صار هذا الامر اعنى انحطـاط شان الصنائع فى الممـالك المحروسـة معلوما عند الدولة العلية ولاسيـما من بعـد فتح معرض سنة ١٢٧٩ ارادت ان تتدارك هذا الخلل فانشات مجلسا فى الباب العالى يعرف بمجلس الصنـائع وعينت فيه بعض ذوى الخبرة والدراية من جملتهم اثنان من مشاهير اهل حلب فى معرفة المنسوجات وهما الخواجه انطون خاطى والخواجه نصرالله بليط وكان المقصود من ذلك حث اهل الصنائع على تجويد ما يصنعونه بجعلهم متالفين على هذا الغرض وبجلب الادوات اللازمة لهم من الممـالك الاجنبية وبحمل ذوى الاستطاعة من ذوى الاموال على الاشتراك معهم فيقـال انهم جودوا صنعة ما يعمل من الجلود والنحـاس فجزى الله الدولة خير الجزاء فانهـا قد اخلصت القصد والسعى وبذلت جهدها فى ادراك هذه البغية الا انا

ما زلنا محتاجين الى ان نشترى ملابسنا واثاث ديارنا من البلاد الاجنبية وعلى كثرة ما فى بلاد الدولة من الشجر ولاسيما الجوز فلايوجد من النجارين فى الاستانة وغيرها من يحسن عمل كرسى واحد ولوكانت مثل هذه الاشياء ترد الينا من البلاد الخارجيه رخيصة الثمن لكنا نقول ان الصناع هنا يتهاونون فى عملها لرخصها لكنها انما تأتى الينا متلهة باسعارها وهناك ما هو اخف شانا من الكراسى وهو مما لا يستغنى عنه احد وذلك كمناديل اليد مثلا فانها جميعها ترد من الخارج مع ان القطن فى الممالك المحروسة كثير بفضل الله وكل من له ادنى معرفة بالنسج يحسن نسج المناديل فكيف يهمل ما يحتاج اليه كل واحد من اصناف الناس وينتظر جلبه من احدى فرض اوربا وشر من ذلك انه اذا كان احد من اهل الاستانة يحسن صنعة ما او تجارة فلما يكون من الروم والارمن او اليهود لا من المسلمين انظر مثلا الى الصياغة والجوهريين الذين جل كسبهم من ديار الباشاوات فانهم جميعا نصارى وانظر الى باعة الملابس المخيطة فى محمود باشا وغيره فلاترى من بينهم رجلا مسلما وانظر الى باعة اللولو ومن يقطعون الحجارة الثمينة ويجلونها فكلهم من اليهود وفى الجملة فان الصنائع الجليلة هنا محصورة فى النصارى واليهود وليس للمسلمين الا الصنائع الخسيسة فالذى يخطر ببالنا ان من وظيفة مجلس الصنائع فى الباب العالى ان يتلافى هذا الشر ولا يكتفى بما قد حصل من تجويد صنعة الجلود والنحاس وقبل كل شي ينبغى له ان يسعى فى احضار صناع ماهرين من اوربا ليعلموا غيرهم ممن اراد ان يتعلم شيا والا فلا يكون هذا التجويد حقيقيا فان الصنعة ينبغى ان توخذ من اصلها عن اربابها وقد آن لنا ان نرجو اتقان الصنائع فى الممالك المحروسة بترخيص الدولة الاجانب فى استخراج المعادن لانه اذا اوجد عندنا معدن الفحم والحديد بكثرة تيسر عند ذلك انشاء المعامل واتخاذ الادوات والآلات اللازمة فهذان المعدنان انفع

المعادن ومتى تم ذلك تعين على ابنآء الوطن ان يجدوا فى اتقان جميع الحرف والصناعات ولاسيما ان اكثر ما يرد الينا من مصنوعات الافرنج فانما هو نفاية ما عندهم اذ قد تقرر فى عقولهم ان البلاد الخالية عن الصنائع هى خالية ايضا عن العارفين بالمصنوعات فهم يموهون علينا بالالوان الزاهية التى اذا نضح عليها المآء مرة واحدة تغيب بالكلية وفى الحقيقة فان ما يباع فى دكاكين النصارى من مصنوعات اوربا سواء فى الاستانة او فى بك اوغلى فانما هو من سقط المتاع الا ما ندر وحينئذ يتعين على الشارى ان ينقد ثمنه مضاعفا ومع ان البيع والشراء فى اوربا فى غاية الترتيب والانتظام فان معظم اقمشة الحرير التى تجلب الى الاستانة انما هو من الصنف الذى تقول له العامة محمى فاذا نظرت اليه شاقك منظره ولكن لا بقآء له على الاستعمال ولو انك عاملت احد التجار هنا عدة سنين وربح من معاملتك له كثيرا فاذا اردت ان تشترى من عنده شيا معيبا باعك اياه ولم يحذرك منه وقد علمت بالتجربة انه على قدر طول معاملة الشارى للبائع يزداد البائع حرصا وشراهة الى غبن الشارى واتفق لى انى عاملت احد مجلدى الكتب من الارمن فاعطيته بعض كتب ليجلدها فجلدها واحسن تجليدها فاعطيته اخرى فجلدها ايضا فاسترسلت اليه واعطيته مائة نسخة من سر الليال ليحبكها حبكا من دون تجليد واذا به افسدها بلجمها فانه الح فى قطع اعلاها حتى وصل الى السطور فعاملت اخر وهو ايضا من الارمن واعطيته كتبا مفردة على سبيل الاختبار فجلدها تجليدا حسنا فسلمت اليه مائة واربعين نسخة من الكتاب المذكور ففعل بها كما فعل المجلد الاول وما احوجنى الى محنة هذين العرقوبين سوى قلة المجلدين من المسلمين مع بطئهم فى العمل فلكل كتاب عندهم اجل وهذا الامر ذكرته على سبيل الاستطراد لا انه موضوع هذه المقالة والمراد منه اظهار ان الصنائع والتجارة فى الاستانة من قبيل المجازفة فليس منها ما هو جار على

اصوله فكان من المناسب ان يكون فى شورى الدولة دائرة مخصوصة للصنائع وتكون اعضاؤها من الصناع الماهرين خاصة وبذلك تستتب هذه المصلحة المهمة اما شطط الباعة فى طلب الثمن فقد ذكرناه غير مرة فلاحاجة الى اعادته هنا وانما نقول ان ردعهم عن هذا الامر يكون ايضا منوطا بدائرة الصنائع تخليصا للناس من غبنهم *

﴿ فى العمل والبطالة ﴾

انى انجب من كل من يعرف القرآة والكتابة ويضيع اوقاته بالبطالة ولاسيما فى الصباح حين يكون الفكر صاحيا والعقل مستعدا لتصور المعانى الرائقة ولقبول الخواطر السائقة فترى كثيرا فى مثل هذا الوقت مترددين على موضع القهوة للعب بالنرد والورق وغير ذلك فما كأن الوقت يحوف من اعمارهم او ان اعمارهم مطوية فى الوقت جيران من فكر فى ان اعظم الملوك والسلاطين لو حشد بجميع جنوده وبذل جميع ممالكه لاسترداد دقيقة واحدة مما مضى عليه من عمره لما قدر عليه هاله الامر وحمله على ان يتبصر ان الوقت اجل شئ يصان عن الضياع فكل دقيقة منه ينبغى ان تخصص لامر يرضى الله وينفع الناس مع انى ارى اغلب الاشيآء فى الاستانة انما جعلت من الاصل لاضاعة الوقت عبثا فمن ذلك الزيارة فى الصبح لمجرد السلام والكلام فلا يخرج الزائر من عند المزور الا بعد ان تنضب مواد كلامه كلها فاذا فصل من عنده وخطر بباله شئ لم يذكره من قبل قصد شخصا آخر ليبلغه اياه اذ يرى ان كتمانه مضيعة له فاذا اجتمعا رجع الى الكلام الاول واعاده مزخرفا وعندى ان الزيارة فى الصبح لمجرد الكلام لم تكن معروفة عند العرب يدل عليه لفظ المسامرة اى المحادثة فان اصلها من السمر وهو الليل وظل القمر فلله در العرب ولله در من يقتدى بهم فان اضاعة اول النهار فى الكلام الفارغ عندى اثم كبير ومن ذلك البيع والشراء فان البائع لا يرضى ان يبيع الشارى شيا الا مع الاشطاط والشارى لا يريد ان يشترى شيا الا مع البخس فياخذان فى الجدال والخصام

من دون طائل فاذا لزم لاحد ان يشترى عدة حاجات فى وقت واحد اضاع من عمره فيهما عدة ساعات ومن ذلك السفر الى بعض مواضع الخليج فى البواخر فان المسافر بعد ان يصل الى الموضع الذى قصده لايجد باخرة اخرى يعود فيها الى المحل الذى صدر منه فربما اقام النهار كله ينتظر ورود الباخرة فلايكون منه الا القعود فى موضع القهوة مع الاوباش البطالين فيظنه من راه انه منهم وسبب ذلك ان هذه البواخر لاتسير من مكان الى مكان الا اذا كانت غاصة بالناس فتحمل الركاب على غصص الانتظار قبل ان تحملهم فكان ينبغى ان يجعل لها عدد معلوم فاذا حصل لها لزمها السفر ومن ذلك تفرق مايلزم للانسان من المؤنة والمتاع فى مواضع من المدينة متباعدة بعضها يقضى بمشى ساعة فاكثر مثال ذلك اذا كان احد مقيما بجوار اياصوفيا اوالسلطان احمد واراد يوما ان ياكل سمكا لزمه ان يمشى الى سوق السمك بقرب الجسر وربما سار الى هنالك ولم يظفر ببغيته فيحتاج الى المسير الى بك اوغلى ويا بعد ما بين الموضعين واذا لزمه شراء قلم ليكتب به اضطر الى الذهاب الى ساحة بايزيد وهلم جرا ومن العجب ان يسكن الانسان فى دار اجرتها خمسمائة قرش فى الشهر ثم اذا خرج منها وطاف مسافة ميل لم يجد شيا لياكله ولو انك حسبت الديار من عند يارى بطان الى جهة البحر المقابلة لقاضى كوى لزادت على ستمائة دار ومع ذلك فليس فيهما كلها موضع تباع فيه اطايب الماكول فكل ما فيها انما هو نفاية لايصلح الا لمن كان دابه الاسترإط والالتهام وانما توجد هذه الاطايب فى بك اوغلى فقط فيلزم الانسان على هذا ان يكون له خادم مخصوص لشراء مؤنته اليومية وذلك من سوء التدبير الباعث على اضاعة الوقت والمال فى غير ما ثرة وقد كنا استبشرنا بانتظام احوال الدكاكين والاسواق حين ترجمت لنا قوانين المجلس البلدى وما فى عزمهم ان يفعلوه من جهة اختبار ما يوكل وما يشرب وتحرى النظافة والوضاءة ونحو ذلك فلم نر الى الان

اثر العز عليهم فهلا يأتى احد منهم وينظر هذه الصحراء التى قدر علينا المقام بها افلا يوجد من جملتهم من راى بلدان اوربا وعرف مايلزم للمدينة الكبيرة المتفرقة الحارات والشوارع من الترتيب والتمدين ما الفائدة من كثرة القوانين والضوابط والقواعد والاصول اذا لم يعمل بها وينتفع منها فان خير الكلام ما افاد لاما اوصل دويا الى اذن السامع ودوارا الى راسه وكابوسا على بدنه فأما ان يقال انه ليس بالاستانة مجلس بلدى او انه يتعين عليه النظر فى ترتيب اسواقها ودكاكينها ولسنا نكلفه ان ينشئ لنا ملهى ومنتزهات كما فى بك اوغلى ولا ان يأذن لنا فى الخروج ليلا فانا قد الفنا الاعتزال والوحدة وانما نسأله ان يساوينا بسكان بك اوغلى فيما لا بد منه من الماكول والمشروب *

﴿ ملاحظة فى النجل ﴾

قال فى المصباح النجل قيل الوالد وقيل النسل وهو مصدر نجله ابوه نجلا من باب قتل وعبارة الصحاح النجل النسل ونجله ابوه اى ولده وفى كلتا العبارتين تلميح الى ان الجيم مبدلة من السين وعبارة القاموس النجل الولد والوالد ضد والرمى بالشئ والعمل والجمع الكثير والطعن والشق الى ان قال ونجله ابوه ولده والاهاب شقه عن عرقوبيه ثم سلخه وفلانا ضربه بمقدم رجله والارض اخضرت والناس شارهم والشئ اظهره اه قلت معنى الاظهار من معنى الشق فهو على حد شرح وبضع وهو اصل معنى النجل للوالد وهو ينظر الى اشتقاق النجيب من نجب الشجرة فقول الصحاح والقاموس نجله ابوه اى ولده تفسير باللازم وقد استعمل المصدر هنا للفاعل والمفعول وحق النجل بمعنى الولد ان يجمع على نجول لكن الكتب الثلاثة سكتت عنه والكتاب يجمعونه على انجال وكثير منهم يرى ان النجل ارق والطف من الابن وليس ذلك مرويا عن فصحاء العرب واعجب من ذلك ان اكثر اهل زماننا يحبون ان يتشرفوا بلفظة زاده من اللغة الفارسية فلا يعجبهم الابن ولا النجل اما اشتقاق

الابن من البناء فان اصله بنى وقيل بنو والمراد به ان يبقى ذكر ابيه وعليه اقتصرت فى سرالليال للعجلة اذ يحتمل ان البناء يرجع الى الاب اى ان الاب يبنيه اقيم البنى هنا مقام التربية *

﴿ فى خزائن الكتب ﴾

قد كنا شكونا من ان مواضع الكتب الموقوفة فى الجوامع وغيرها بالاستانة العلية لاتفتح الا ساعات قليله من النهار ماعدا ايام البطالة الكثيرة التى يتخذها حفظة هذه الكتب مما من شانه ان يقلل الانتفاع من المطالعة ويصعب على الطلبة المراجعة مع ان الواقف لم يقصد بوقفه الاتعميم الفائدة ثم بلغنا ان حفظة الكتب مجبورون على ذلك اى على الحضور فى مواضع الكتب بضع ساعات وعلى اتخاذ ايام البطالة لقلة مرتبهم اذهو لا يزيد على اربعين قرشا ومنهم من ياخذ ثلثين فقط فخطر ببالنا ان هذ المقدار انما عين لهم حين كانت اقة اللحم تساوى نصف قرش وكانت الناس تتعامل بالبارات فكانت الثلثون فى ذلك الزمان بمنزلة الثلثمائة الآن ففكرنا فى ذلك فراينا ان لحفظة الكتب عذرا فى عدم ملازمة هذه المواضع اذ ليس من العدل ان يضيع الانسان ساعات نهاره كلها حتى يحصل قرشا لا يكفيه لشراء الخبز وحده مع ان ادنى من يتعاطى الحرف بالاستانة فى هذا الاوان يحصل فى يومه عشرة قروش فاكثر وكذلك المؤذنون وائمة الجوامع فانهم داخلون فى هذا الحد والتعريف وهو فى الواقع ظلم شامل ورزء عائل اذ الواجب ان يكون تخصيص المعاش بحسب ما تقتضيه الاحوال والاوقات وقد رأينا ان جميع الدول فطنت الى الفرق مابين الاوقات الغابرة والحاضرة بالنظر الى كثرة النفقات وزيادة المطاليب فى هذ العصر فزادت فى اجر خدمتها بحسب استحقاقهم الا ان احوال استانبول مبنية فى الاغلب على العادة لاعلى مقتضيات الزمان فما زال الناس يتهافتون على زيادة النفقات كانها

هى عندهم من المبرات وقد زاد تعجبنا من حال قيمى الكتب مع ان ناظر الاوقاف الآن هو حضرة دولتلو خورشيد باشا وانهم لم يتواطأوا الى الآن على ان يشكوا له من قلة مرتبهم اذ لا نشك فى انه يسمع شكواهم وينصفهم لانه عالى الهمة سديد الرأى شهير بمعرفة مقادير الناس واجراء الحق والانصاف لا جرم ان زيادة اجرة حفظة الكتب تعود بالنفع على جميع طلبة العلم لان القيمين متى حصلوا على اجرة كافية اضطروا الى المكث فى مواضع الكتب عامة النهار واضربوا عن ايام البطالة فى الاعياد وغيرها فاذا اراد الطالب ان يطالع كتابا او ينسخه امكن له ذلك مع السهولة ثم خطر ببالنا امر اخر وهو ان مواضع الكتب لما كانت متفرقة فى المدينة وكانت المسافة ما بينها تقضى بالتعب والنصب مع خلو بعضها عن كتب توجد فى البعض الآخر كان المناسب ان تجعل مكتبة نورعثمانى مركز الطلبة فيجلب اليها من كتب المواضع الاخرى ما لا يوجد فيها وانما خصصنا هذا المحل دون غيره لكونه فى وسط المدينة ولكون موضع القراءة فيه اوسع من غيره وانور وينبغى ايضا ان يجعل فيه اربعة قيمين ويخصص لكل واحد خمسمائة قرش فى الشهر بحيث يشترط عليهم ان يلازموا المحل من الصباح الى المساء وهنا شرآخر وهو ان معظم الكتب التى لا تتكرر مراجعتها ككتب اللغة والادب مثلا تكاد تتلف فترى ورقها ملتصقا بالحبر وذلك من قلة فتحها ومن جعلها فى مواضع محجوبة عن الشمس فان اهل الاستانة قلما يراجعون هذه الكتب فمعظم مراجعتهم مقصور على كتب الفقه والمنطق فينبغى ان ينبه على القيمين بان يتعهدوا هذه الكتب بان يفتحوها فى كل يوم ويعرضوها للهواء واذا كان فى بعضها نقصان وجب ان يكمل من نسخ اخرى وفى الجملة فان الاعتناء بحفظ هذه الاسفار ضربة لازب وتعميم الفائدة من مطالعتها من اجل الرغائب وذلك لا يتم الا بتغيير هذه الطريقة المستعملة الآن ●

فائدة طبية

بات ثلثة رجال من جزارى اقسراى فى حجرة صغيرة وقد اشعلوا الفحم فى كانون فلما كان الصباح وجدوا ثلثتهم صرعى لاحراك بهم غيران فعلهم هذا لم يكن عن تعمد لاهلاك انفسهم كما يفعله بعض القانطين من رحمة ربهم فى البلاد الاجنبية وانما كان جهلا منهم بما للفحم من الضرر * قال بعض الاطباء ان فساد الهواء يكون عن اسباب مختلفة منها اشعال الفحم فى حجرة صغيرة فان فيه مادة كبريتية تنتشر فى جو المكان اذا احرق فيه وفى الجملة فانه لاينبغى لاحد ان يبيت فى كن فيه نار اى نار كانت وكذلك لاينبغى للمقرور جدا ان يصطلى على النار اصطلاء طويلا فان الانتقال من البرد الى الحر بغتة لا يخلو من الخطر وقد نقل عن بعض الاطباء انه دعى الى مريض كان قد بلغ منه الفحم المحرق كل مبلغ حتى يئس منه بالكلية فجعل الطبيب ينفخ فى فيه ثم فصده ولفه فى غطاء وصار يقلبه يمنة ويسرة حتى افاق وآخر كان قد عدم حسه وحركته بائر الفحم فغطسه الطبيب فى ماء بارد ثم وضعه فى فراش دفى قال وكثيرا ما يعرض لمن بهم ضيق الصدر ان يتضرروا من كثرة الانوار فعليهم فى هذه الحالة ان يواجهوا الهواء المطلق وكذلك يعرض احتباس النفس من اطفاء انوار الشموع والمصابيح وترك دخانها منتشرا واضر من ذلك البخار المحبوس فى نحو سرب قد فتح بعد سده مدة طويلة او بئر نزحت فلاينبغى لاحد ان يدخل مثل هذه المواضع الندية الا بعد ان يحرق فيها مقدارا وافيا من البارود فاذا اردت ان تعرف خطرها فاجعل فيها نارا تتقد اونورا فان انطفأت حالا فاياك من دخولها والا فلا بأس بحيث لاتطيل المكث فيها *

فى قوة الذاكرة

يحكى عن سينكا انه كان ينشد عن ظهر قلبه الفى بيت من الشعر مرة واحدة طردا وعكسا ولم يكن يخطى منها ولا فى حرف واحد ويحكى

ايضا عن سيروس قائد الجيش انه كان يدعو كل واحد من جيشه باسمه وكان متريداطيس متسلطا على ثلثة وعشرين جيلا من الناس وكان يخاطب كل جيل منهم بلغته وكان غلام من قورسيقة يلقى عليه اربعون الف كلمة منها ما كان بمعنى ومنها ما كان خاليا عنه فكان يسردها طردا وعكسا وكان دكطر والس يستخرج مكعب جذر الثلث حتى الى ثنتين مقاما من العواشر وكان مكلبابشى الطلياني قد طالع معظم الكتب التى الفت فى عصره فكان بعد ذلك يستشهد منها عن ظهر قلبه ويذكر الصفحة والفصل وموضوعه واسم المؤلف ويأتى بالكلام المستشهد به بلفظه وتركيبه وكان احد معارفه قد اعاره كتابا لينظر فيه فبعد ان اعاده اليه ادعى صاحبه انه فقده فكتبه له بشئ من حفظه حرفا حرفا مع انه لم يطالعه الا مرة واحدة حتى ادهش صاحبه وكل من سمع بخبره وكان رجل اسمه بولاقد قرأ بعض مؤلفات لفرجيل وغيره ثم فقد بصره لكنه بقى يعمل فكره فى حل المشكلات الهندسية وكشف غوامضها وفى اختلاف حركات النجوم السيارة وكان اذا استشهد عن معنى مما قراه يعين الصفحة والسطر وكان ينشد مؤلفا لفرجيل ولا يسقط منه حرفا وكان آخر قد حفظ ديوان ملطون فكان يسرده سطرا سطرا *

فصل فى الطبع

قد اختلفت الروايات فى اختراع الطبع فبعض المورخين نسبه الى مدينة متز وبعضهم الى استراسبورغ وهارلم وبعضهم الى فينيسيا ورومية وبعضهم الى فلورانسه وباسيل وفى رواية اوريان جونيوس ان مخترع الطبع هو يوحنا كستار من هارلم اول كتاب طبعه كان على وجه واحد وذلك فى سنة ١٤٤٢ وقال آخر لا شك ان الطبع على قطع الخشب كان معروفا عند اهل الصين قبل الميلاد باحقاب عديدة وكان ايضا معروفا فى بلاد اوربا عند الرهبان فكانوا ينقلون الكلام من ورقة الى اخرى على الخشب الا ان ذلك كان نادرا اما استعمال هذه الحروف مصفوفة

واحدا بعد واحد فلم يعرف الا فى متأخر الزمن اعنى فى القرن الرابع عشر وقال بعضهم اصل اختراع هذه الحروف ان شابا كان اسمه يوحنا فانسفليش ويعرف بغسانبورغ سافر مرة الى استرابورغ وكانت مشهورة يومئذ بانها سوق الكتب فاخذ يفكر فى احداث طريقة لتكثيرها فخطر بباله تركيب حروف وتحليلها ثم اجتمع برجل آخر فسبكاها وذلك فى سنة ١٤٤٠ ثم انشأ مطبعة وتفرق بعض من كان فيها فساروا الى ايطاليا فاشتهرت هذه الصناعة فيها وذلك سنة ١٤٦٥ وبعد اربع سنين اشتهرت فى باريس وبعد سنة واحدة اشتهرت فى اسبانيا وبعد خمسين سنة عمت فى اوربا وفى سنة ١٦٣٧ صدر امر من ديوان الانكليز بان لايزيد عدد الطباعين على اربعة نفر وانه بعد موت احدهم لا يقوم آخر فى محله الا باذن مطران كنتربورى الا ان هذا الحكم نسخ عند اثبات حقوق الاهلين وذلك سنة ١٦٩٣ وكانت الكتب تمتحن عندهم وينظر فيها وتنتقد وفى سنة ١٧٩٥ بطلت هذه العادة ايضا وامر بان تطبع اسماء الطباعين فى اوائل الكتب واواخرها فاما طبع الجوائب اى الاخبار الطارئة فاول ما اشتهر منها كان فى اكسفورد وذلك سنة ١٦٦٥ وكان ديوان الملك هناك لاجل الطاعون الذى وقع بلندرة فلما عاد الملك الى المدينة المذكورة سمى ذلك الجرنال كازتة وبقى هذا الاسم خاصا بجرنال الدولة فهو بمنزلة المونيتور فى باريس واصل اسم الكازتة منقول عن قطعة من الفلوس تعرف بهذا الاسم فى فينيسيا وذلك انه طبع فيها صحيفة تشتمل على اخبار مختلفة وكانت تباع بتلك القطعة فلزمها هذا الاسم ومعنى الجرنال باللغة الفرنساوية يومى اويومية وكان اشتهاره فى فرنسا سنة ١٦٣١ وفى جرمانيا سنة ١٧١٥ واول ما يصح ان يسمى بجرنال فى بلاد الانكليز من حيث اشتماله على اخبار عمومية هو ماطبع فى سنة ١٦٦٣ وفى سنة ١٨٥١ بلغ عدد الجرنالات المطبوعة فى لندرة مائة وتسعة وخمسين اشتملت على ٠٦٠ر٨٩١

اعلانا وبلغ عدد جرنالات انكلترة كلهما مائتين واثنين وعشرين اشتملت من الاعلانات على اقل من تلك وكان فى سكوتلاند مائة وعشرة اشتملت على ١٤١ر ٢٤٩ اعلانا وفى ارلاند مائة جرنال اشتملت على ١٣٨ر٢٣٦ اعلانا والاداء على كل اعلان فى جرنالات انكلترة وسكوتلاند شلين ونصف يدفعها صاحب الجرنال للميرى وفى ارلاند شلين واحد وعلى كل جرنال طابع ميرى ثمنه بنى واحد ففى سنة ١٨٥٠ بلغ عدد الطوابع بانكلترة ٢٧١ر٧٤١ر٦٥ وفى سكوتلاند ٠٤٥ر٢٤٣ر٧ بسعر بنى و ٣٦٤ر٢٤١ر٢ بسعر نصف بنى وفى ارلاند ٧٢٨ر٣٠٢ر٦ بسعر بنى و ٣٥٨ر٤٣ بسعر نصف بنى ووزن ما يطبع فى انكلترة من الجرنالات اليومية والاسبوعية يبلغ نحو مائة وخمسين طنا وفى باريس منهما نحو ما فى لندرة وفى اميريكا ثمانمائة جرنال منهما خمسون تطبع فى كل يوم واول جرنال اشتهر فيها كان فى سنة ١٧١٩ واول طبع بآلات البخار ظهر فى مطبعة التيمس وذلك سنة ١٨١٤ وكانت الآلة المفردة تطبع على وجه واحد فى كل ساعة الفا وار بعمائة صحيفة وعلى الوجهين نحو تسعمائة ثم اخترع مستر لتل آلة مزوجة فكان يطبع بها فى الساعة نحو اثنى عشر الف صحيفة وفى بلاد اميريكا آلة تطبع فى الساعة عشرين الف صحيفة مابين جرنال وغيره انتهى المنقول وانا اقول ان جرنال دولة الانكليز حين اشتهاره لم يكن يطبع فيه الا امور قليلة الجدوى كالقبض على بعض السراق وقصاص بعض المذنبين ونصب بعض المتوظفين مما لا يحتاج الى اعمال الفكر فى معان بديعة وعبارات بليغة ولاسيما ان السجع فى جميع اللغات الافرنجية غير معروف فى المنثور وهو وان يكن قد زاد اليوم تحسينا وتنظيما الا انه لا يحسب من الجرنالات التى يتكلم فيها على السياسيات على وجه التعليل والمناظرة وذلك كالتيمس والستاندرد والهرالد والدالى نيوز والمورنن بوسط والستار والصن ونحوها فان هذه بلغت الى اعلى درجات البراعة والبلاغة ومن العادة

عند هولاء المنشئين ان كل واحد منهم ينشي مقالة او اكثر على الاحوال الواقعة ويبنى عليها قواعد تنبئها فى المستقبل ويستشهد لها بالماضى ويسأل فيها ويجيب ويستحسن ويستقبح وينصح ويشير حتى تخاله واعظا خطيبا او شاعرا اديبا اومورخا لبيبا حتى ان الجرنالات العامية لابد وان يكون فيها شئ من ذلك قل او كثر وبغير هذا لايكون مجرد النقل عن آخرين جرنالا فان مجرد النقل وان يكن دليلا على الذوق فغير دليل على البراعة نعم اذا تميز الجرنال بصفة تخصصه من تحرى النقل ومن الترجمة من لغات شتى كجرنال غالنيانى مثلا فان ذلك يكون شافعا فى ترويجه شفاعة الانشاء والبراعة غير ان الحكم الغالب هو ان يكون صاحب الجرنال منشئا وناقلا لا ناقلا فقط وفى الجملة فينبغى ان تقر بفضل جوانبي الانكليز على غيرهم من جميع الجوائبيين وسبب ذلك ثلثة امور احدها انه لاتحريج عليهم فيما يرتاونه من الامور السياسية والاحكامية وغيرها وذلك من بعض قوانين بلادهم والثانى ان عندهم من يبلغهم الاخبار من جميع اطراف الدنيا فصاحب التيمس عنده كتاب فى كل مدينة مشهورة من مدن اوربا وغيرها وكلهم مهرة فى الكتابة والسياسة والثالث ان جوائب الانكليز افضل طبعا وورقا من غيرها اما جوائبيوا الفرنسيس فانهم وان يكونوا من اصحاب البلاغة والبراعة الا ان باعهم فى السياسيات قصير بالنسبة الى اولئك وليس عندهم ايضا مبلغون للاخبار مثلهم ولهذا جرت العادة عندهم بان يجعلوا نصف الجرنال لحكايات وقصص من كتب مشهورة ومثل هذا عند الانكليز منكر وانا ايضا انكره فان الجرنال غالبا يكون فى ورق اكبر من ورق الكتب فلا يحسن ان يجعل منه كتاب ولاسيما ان ورق الجرنالات الفرنساوية غير جيد فاذا علم هذا علم ايضا سبب ايثارنا النقل من جوائب الانكليز على ماسواها ولاسيما الفصول الطويلة التى تنبي عن علائق الدول بعضها ببعض وعما يمكن الحدس فيه فى المستقبل بالنظر الى دوام

صلتها وارتفاعها وانخفاضها ومابها من الداء ومالهما من الدواء فان كثيرا من هولاء الكتاب من اهل السياسة فضلا عن كونهم من اهل الدراية والكياسة وهذه الحوادث هى التى نعنونها بالحوادث الخارجية وهى فى الحقيقة الاخبار السياسية وان يكن حسبها بعض جهلة العرب من قبيل التاريخ لظنه ان الاخبار لابد وان تكون مودة بعبارة كان وحدث وجرى ووقع واتفق ونحو ذلك ❊ وكم من عائب قولا صحيحا ❊ وآفته من الفهم السقيم ❊ فأما الحوادث التى لاحدس فيها ولااعمال نظر وهى من قبيل كان وصار واخواتهما فهى التى اصطلحنا على تسميتها بحوادث شتى ولعلها تجب من لايتحمل لدقائق المعانى وبهر الافكار اكثر الا ان نسبتهما الى تلك كنسبة فلك صغير الى بارجة حيث مرقا التحقيق عن راكبه فى قاموس اليم سحيق وبر اليقين والتعويل محجوب عن عين ادراكه بغياهب التقليل من التعليل ❊

❊ فى الموسيقى ❊

قبل الدخول فى هذا الباب الحرج ينبغى ان استأذن اهل هذا الفن فى التطفل على الكلام فيه وان كنت لا اعد منهم غير انى عرفت منه ما يمكننى من معرفة المستقيم منه من غير المستقيم فأعلم ان لفظة الموسيقى يونانية منسوبة الى موسى احدى الالهات التسع التى تنسب اليها الفنون الظريفة كالعروض والشعر والغناء والرسم والتصوير ومرادفها فى العربية التلحين من اللحن وعرفه صاحب القاموس بانه من الاصوات المصوغة الموضوعة وحقيقة معناه امالة الصوت على وجه الترجيع والتطريب وجميع مشتقات هذه المادة تدل على الميل ومنه اللحن فى الكلام وحاصله ميل عن جهة الصواب وقد جاء هذا المعنى ايضا من لفت وعصد واصلهما اللى ومن لخ واصله الميل فى الحفر ومن لغز واصله الميل بالشئ عن جهته وكذلك اللحن الذى هو كالتعريض والكناية قال الشاعر ❊ ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ❊ واللحن يعرفه ذووا الالباب ❊ فكان المراد

به الميل عن جهة التصريح والايضاح ثم قيل منه حذف القول اى فهمته ويرادفها ايضا الايقاع وكان المراد به ايقاع الصوت على النغم ثم حذف المفعول قال بعض العلماء ان فن الموسيقى فضلة من المنطق اخرجها العقل بالصوت لما لم يمكن اخراجها بالقياس اه فعلى تأويل المنطق بالمعنى الاصطلاحى يكون المراد منه ان اركان هذا الفن ذهنية بناء على ان المتقدمين كانوا يتعاطونه بالسماع ويتلقونه بالذوق فيرسم السامع مايسمعه من الاصوات فى مخيلته وذاكرته دون مشاهدة علامات ورسوم تدل عليه وهكذا يأخذه التلميذ عن معلمه ويتلقاه بالترسم عن ظهر القلب والاتباع مع الملكة التى ترسخ فى مخيلته تلك الترجيعات ولهذا كان المعول عليه فى تحصيل هذا الفن ملكة الذوق اما الافرنج فقد جعلوا الان ترجيع الصوت وايقاعه داخلا تحت حس المشاهدة فدلوا عليه بنقوش ورسوم معلومة كما دلت الحروف على المعانى فلم يكن تحصيله متوقفا على ذاكرة وعظيم معاناة كما فى السابق وكاد يتساوى فيه الذكى والغبى فن عرف منهم مخارج النغم ورأى تلك العلامات امكن له ان يخرج عليها اى صوت كان واذا اجتمع منهم عشرون رجلا وكانت امامهم تلك النقوش رايت منهم متابعة واحدة ورد على هذا التأويل انه لوكانت الموسيقى فضلة من المنطق لكانت واحدة الاستعمال كما ان المنطق واحد الضوابط والقواعد على ان الناس متباينون فى هذه الفضلة مثل تباينهم فى لغاتهم وعباراتهم فان الحان العرب لاتطرب غيرهم بل هولاء ايضا مختلفون فان اهل مصر لا يطربون لالحان اهل الشام وغيرهم والحان الافرنج لاتطرب احدا منهم وعلى تأويل المنطق بالمعنى اللغوى وهو المراد هنا فقد جاء فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة النغم فضل بقى من المنطق لم يقدر اللسان على اخراجه فاستخرجته الطبيعة بالالحان على الترجيع لاعلى التقطيع فلما ظهر عشقته النفس وحن اليه القلب اه والمراد بقوله على الترجيع لاعلى التقطيع هو ان يكون الصوت

ممتدا يغنى به ويسال لامتقطعا كاصوات الهجاء فاذا كان فن الموسيقى والحالة هذه فضلة عن المنطق لزم ان نقول ان لكل جيل محاسن فى غنائهم مقصورة عليهم فقط كما ان لكل لغة محاسن فى عبارتها لا توجد فى غيرها والواقع بخلاف ذلك فان لغتى الهند والصين مثلا تشتملان على كثير من المحسنات مما لايوجد فى غيرهما مع ان انغامهم خالية عن ذلك اصلا * اما الحان الافرنج فلايطرب لها منا الا من الفها وهى على اربعة انواع الاول وهو احسنها مايتغنى به فى الملاهى مثل الموشحات عندنا مع مد الصوت وترجيعه وخفضه ورفعه وترقيقه وتفخيمه وترجيفه وفيه تدخل نبرات تدل على الحماسة والتحريض والتذمير * والثانى وهو قريب منه مايرتل به فى الكنائس ولايكاد يكون به ترجيف * والثالث مايتغنى به فى البث والمحزنات وفى هذا النوع يستعملون غناء رقيقا رخيما اشبه بالنجوى فمن يسمعه يلحن ما المراد به وان كان جاهلا باللغة كما اذا رايت شخصا مجهشا للبكاء فانك تعلم اجهاشه بالبديهة وان لم تعرف سببه * والرابع ما يتغنى به فى المضحكات والمحاورات وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النبر وتطريبه انما هو من حيث انهم يوقعون عليه الفاظا غريبة ويصلونه بحركات مضحكة ومحاكيات مختلفة فيضحكون فيه ويقهقهون ويبكون ويتثاءبون ويعطسون ويحاكون به قيق الدجاجة وزقزقة العصفور وغير ذلك وفى كل من هذه الانواع يستعملون المساجلة وهى مطربة جدا واكثرها فى النوع الاخير وكما ان لهم غناء مضحكا كذلك لهم رقص مضحك ينسى الثكلى حزنها * اما العرب فانهم يقولون ان الرصد يشجى والسيكاه يفرح والصبا والبياتى يحزنان وهلم جرا والفرق بين الفريقين من عدة وجوه احدها ان الافرنج ليس لهم صوت مطلق للانشاد من دون تقييد بتلك النقوش فاذا اقترحت على احدهم مثلا ان يغنى بيتين كما يفعل عندنا فى القصائد والمواليات من دون نظر الى تلك العلامات لما جاء بشئ وهو غريب

بالنسبة الى براعتهم فى هذا الفن لان الانشاد على هــذا النوع طبيعى وقد كان عنــدهم من قبل تلك النقوش فيــاليت شعرى ڪيف كان غناؤهم قبل ان نبغ غيــدو راتزو الطليــانى الذى رسم العلامات وهو حديث العهد * الثــانى انه اذا اجتمع منهــم عشرة مغنين مثلا وارادوا اخراج موشح اخذ بعضهم فى بعض اركانه من مقــام وبعض فى بعض آخر من مقــام آخر وهكــذا فاذا كانت الاغنيــة مثلا من الرصد غنى واحد جزءا من هذا المقــام بصوت جهير وآخر جزءا من النوى بصوت بين وآخر جزءا من الجواب بصوت عال فيسمعه السامع من عدة مقامات ويقــال له عندهم هرمونى ومعنــاه التألف اى ان الاصوات تتألف على الغناء من مقــامات ستى وفى هــذه الطريقة فوائد ومخــاسر اما الفوائد فلان السامع يسمع فى وقت واحــد نغمات مختلفة باصوات مؤتلفة فهو كمن يسمع قصيدة واحدة من جميع بحور العروض عــلى روى واحد واما المخاسر فلان السمع لايتمكن كل التمكن من ادراك جميع مخــارج الاصوات المتغايرة وعندى ان هذه الطريقــة عــلى الآلات احسن منهــا عــلى الاصوات * الثــالث ان غنــاء الافرنج هو مثل قرآتهــم فى انه لا يخلو عن حمــاسة وتهييج فضــلا عن التصبية والتشويق والترقيص وغنــاء الحمــاسة والتهييج هو الذى به ذكر القتــال واخذ الثــار والذب عن العرض وحماية الحقيقة فاذا سمعه الجبان ولاسيمــا من الآلات العسكرية هانت عليه روحه * اما غنــاء العرب فكله تشويق وتصبية واجد ربه ان يكون جامعــا لمعنى الطرب وهو خفــة تصيب الانســان من فرح اوحزن فاذا سمع احد منا صوتا اوآلة شغف قلبه الغرام فبدت صبــابته وحنت نفسه كما يحن الالف الى الالف حتى يصير عنــده آخر الفرح ترحا ولاغرو ان يصعــد منه الزفرات ويحدر العــبرات فان السرور اذا تفاقم امره وطما بحره وتكامل بدره دب فيه محــاق الشجن واختلط به الحزن حتى يستغرق صاحبه فى بحر من الوجد ويشتعل بنار من الهيــام وعلى

(ذلك)

ذلك جاء قولهم طربه وشجاه من الاضداد * الرابع ان الافرنج لا قرار لاصواتهم الاعلى الرصد نعم ان جميع الانغام لهـا مقامات فى آلاتهم بل توجد ايضا انصافهـا وارباعهـا الا مقـامين منهـا الا انهم لايقرون الاعلى المقام الاول وقد سمعت منهم الرهاوى والبوسليك والاصفهـان اما غير ذلك فلم اسمعه قـط بل قد سمعت منهم بعض اغانى نقلوهـا عن اغانينـا واوقعوها على آلاتهم فكانت كلها رصدا مع ان العساكر السلطانية هنا يخرجون على الاتهم جميع الاصوات اخراجا متمحضا متخلصا لايشوبه شئ واذا اخرجوا من الالحـان التركية شيـا كان ايضا متمحضا عن غيره فكيف هذا وقد والله طـالما وقفت السمع على ان اسمع منهم انغاما فغبت حتى اعترتنى الحيرة فانى من جهـة كنت ارى آلاتهـم بديعة الصنعة على كثرتهـا وافكر فى ان العلوم انتهت اليهم والفنون قصرت عليهم وان عندهم فى هذا الفن بخصوصه بدائع كثيرة قد فاتتنا على ما سبق ومن جهة اخرى رايت ان براعتهم كلهـا انمـا هى من مقام الرصد نعم ان هذا المقـام هو اول المقامات وانه يغنى منه فى مصر وتونس اكثر ممـا يغنى من غيره الا ان فضل غيره ايضـا لاينكر ثم افكر فى ان نايـنـا الذى هو مجرد قصبة خالية فى الظـاهر عن بديع الصنعة الظـاهرة فى آلاتهم يخرج منه من النغم ما لايخرج من آلاتهم الكثيرة المتنوعة ولاسيما هـذه الآلة المسماة بيـانو التى يبلغ ثمنهـا خمسين ليرة فاكثر ثم اعود فاقول لاغرو ان يكون قد فاتهم فى هـذا الفن محـاسن ودقائق كما فاتهـم ايضـا فى غيره وذلك ككثرة بحور العروض عندنا وكبعض محسنات الكـلام وكالسجع فى الكلام المنثور اذ ليس عندهم سوى المنظوم وهو فى الانشاء كالصوت المطلق فى الغنـا وكلاهما فاتهم وكعجزهم ايضـا عن النطق بالاحرف الحلقية مع استطاعتهم عـلى ان يطيروا فى الجو وقد سالت مرة احد اربـاب هـذا الفن منهم فقلت ان مقامات النغم موجودة عندكم وعندنا على السواء وكـذا انصافهـا فبق

الخلاف في استعمالها فانا لو استعملنا مثلا نصفا من الانصاف مع مقام واتم تستعملونه مع مقام آخر بحيث يظهر لنا انه خروج فمن اين تعلم الحقيقة فما كان منه الا ان قال ان هذا الفن قد وضع عندنا على اصول هندسية لا يمكن مخالفتها فلايصح ان يستعمل فرع الامع اصل على انى كثيرا ما سمعت منهم خروجا فاحشا على سغفى بفنهم * وقد شاقنى يوما بعض المادحين الى سماع قينة بلغ من صيتها انها غنت في مجلس امبراطور الروسية فلما سمعتها طربت لرخامة صوتها الانثوى وطول نفسها في الغناء الا انى انكرت منها نبرات فاحشة وخروجا مكروها بحسب ما وصل اليه ادراكى ولو تيقن ان الحان الروم التي يتغنون بها اليوم هي عين الحان الفلاسفة اليونانيين لكان ذلك دليلا آخر على قصور الحان الافرنج فان الحان الروم مقاربة لالحان العرب * الخامس ان اصحاب الآلات من الافرنج لايحسنون اخراج انصاف النغم وارباعها ما لم تكن مرسومة لهم في الآلة الا العازف بالرباب اوالكمنجة اما الناى عندهم ففيه خروق شتى غير السبعة الاصول لكل اثنين منها سدادة تنطبق على واحد منها فاذا سد بها مخر جاش مخر غير ان الصنعة في احكام سدها واستعمالها تقارب صنعة نقل الاصابع عندنا وهذه الانصاف والارباع في النغم مثل الاشمام والروم في الحركات وفي الجملة فان للافرنج في هذا الفن حركات خارجة عن ذوقنا واخرى لا يمكن محاكاتهم بها ومن الغريب انه مع كثرة ماعندهم من الآلات لهذا الفن فقد فاتهم العود على محاسنه والناى من القصب فان نايهم هو كالزمر ليس له صوت رخيم على ان اكثر المورخين قرروا ان اصل الموسيقى مأخوذ عن صوت الريح في القصب وكان اختراع الناى او الزمر في سنة ٥٠٦ قبل الميلاد ونسب الى هيجنيس وعندى ان اشجى آلة من آلات الافرنج هي المسماة بالكنشرتينو وهي نحو المنفخ تفتح وتطبق لها صوت يحاكى صوت انثى ويقال انها من مخترعات ونسطون الانكليزي * ومن المعلوم انه كلما

رقت طباع الناس ولطفت اخلاقهم كانوا الى المحاضرة فى مضمار الطرب اسبق وخواطرهم اليه ابسق فان المولع بغر المعانى واسرار الكلام لايسمع الالحان الا ويتصور معها من الحسن ما يهيم به وجدا قبل ان يشعر الغبي بمجرد معرفة كونها غناء ولاسيما اذا كان الانشاد مطربا والوقت معجبا وقد جاء فى شرح لامية العجم للعلامة الصفدى من لم يحركه العود واوتاره والربيع وازهاره فهو فاسد المزاج بعيد العلاج ومن الغلط البين ان يقول الانسان انى لا اطرب لهذه الالحان لجهلى باللغة فان الطرب انما يكون عن الصوت اصالة لا عن الالفاظ ومتى اجتمع الامران كان الحظ اوفر والذى يظهر لى ان الانغام التى كان يتغنى بها فى زمان الخلفاء كانت اشبه بغناء المغاربة الآن منها بغناء المشارقة والفرق بينهما ان غناء المشارقة فيه مد وتطويل وغناء المغاربة فيه درج ونبر واللازمة التى يستعملها هولاء هى دى دى كقول اهل مصر والشام ياليل وكقول الترك امان وفى القاموس ما كان للناس حداء وضرب اعرابى غلامه وعض اصابعه فمشى وهو يقول دى دى اراد يايدى فسارت الابل على صوته فقال له الزمه وخلع عليه فهذا اصل الحداء اه وفيه دليل على ان البهائم تطرب للتلحين واسماء الانغام عند المغاربة مخالفة لاسمائها عندنا وهم يدعون بانهم اخذوا هذا الفن عن اهل الاندلس واهل تونس اكثر ترسلا منهم فهم واسطة بين المغاربة والمشارقة اما المواليات فمن خصوص اهل مصر والشام وكذلك الناى والقانون وكما ان غناء اهل مصر اطرب واعلى من غناء جميع العرب كذلك كان غنا الطليانيين اعلى من غناء سائر الافرنج وذلك لكثرة ما فى لغتهم من الحركات فهى مثل لغتنا صالحة للغناء والعروض ولكون اصواتهم ايضا صادرة عن صدورهم اما لغة الانكليز فلكثرة السواكن فيها لاتطاوع على الغناء الذى فيه مد وترجيع الا بتحويل الالفاظ عن وجهها وانما هى لغة امر وزجر ولغة الفرنسيس وغناؤهم بين بين وجميع الافرنج يقولون ان غناء

العرب من خياشيمهم وعلى فرض تسليم ذلك فما يكون منافيا للتطريب فان اللغة الفرنساوية لايتكلم بها الا مع الغنة وهي مع ذلك اشجى لغات الافرنج فربما طرب لها من سمعها اول مرة من عمره والظاهر ان العرب لاتأنف من الغنة فى الغناء وحسبك ان اصل تغنى تغنن نحو تمطى وتصدى وقد رايت من الافرنج من كان يطرب للانغام المصرية ولكن غب طول مكث فيها وكان يقول اولا انها محزنة ولايخفى ان للعادة تأثيرا فى جميع الاحوال وخصوصا فى المنطق والالحان وناهيك ان الاطفال عندنا وعند الافرنج ترقد على الغناء فتعتاد عليه وتألفه وقد قيل العادة طبيعة خامسة *

﴿ فى ادب الدرس والنفس ﴾

لم ار اعجب من رجل له ادب الدرس وليس له ادب النفس اذا فاوضته فى فنون الشعر واساليب الكلام وجدته يستشهد على كل معنى ببيت اوحديث او اية ويستن معك فى مضمار البلاغة والبيان بابدع استنان وابرع افتنان حتى تقول فى نفسك ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم فى واحد حتى اذا فرغ من تلك الفنون المعجبة والاساليب المطربة مد رجليه فى وجوه الحاضرين وجعل يدفئهما على النار اذا كان الوقت شتاء وان كان صيفا نزع جواربه والقاهما بجانبه وجعل يفرك رجليه او انه يلتفت الى بعض الجالسين فيقول له انت اهتم او ادرد او اصلع او ازعر او انه يدير لحظه على ما فى الحجرة التى ضمته ويقول لصاحب البيت قد اعجبنى مما لديك اعطنى هذا الشئ حتى اذكرك به مع انه لو قرأ فى بعض الكتب ان احدا من الجلوس فعل هذا لانكره عليه اشد الانكار فلم يفت ذكاءه مايكتب فى الكتب ولا ما يصدر من افعال غيره وانما يفوته ما يفعله هو وسبب ذلك عدم التفكر فى عيوب نفسه كبرا وغرورا اذ يحسب ان كل ما يصدر عنه فلابد من ان يكون محمودا عند جميع الناس ولو انه انتقد افعال نفسه كما ينتقد افعال غيره وكلامه لمافاته ادب

النفس فيجب على الانسان ان ينظر في عيوب نفسه كما ينظر في المرآة وجهه وقامته ولا يغتر بكون سعة اطلاعه وسرعة جوابه تشفع له في هذه العيوب او تعمي عيون اصحابه عن معرفتها فيالعجب كيف يكون الانسان نقادا للكلام ومستغربا لدقائقه وفنونه ولا يفطن لعيوب نفسه وكثيرا ماينكر على غيره فعلا فعله اوقولا قاله ويستشهد عليه ويمثل ويسهب فيه فاذا صدر منه ذلك استحسنه وظن كل واحد من الناس يستحسنه ايضا ومن الناس من يحرص على معاشرة غيره ليسمع مديحه منهم اوليحدث عن نفسه فاذا قال احد ان السلطان فعل كذا او امر بكذا قال وانا ايضا فاعل آمر فلا يرى ان يسمع نادرة من النوادر او مأثرة من المآثر من دون ان يضيف اليها شيأ من افعاله وهذا اضر ما يكون على الصحب فالاديب عندي من يجانب في المحاضرة والمذاكرة ان يذكر نفسه ما امكن ومن دون ذلك لا تطيب عشرته ولاتدوم صحبته فاعوذ بالله من قول انا ومن ادب المحاضرة ان يراعي المتكلم قدر ما عند السامعين من الصبر لاستماع كلامه وذلك بالنظر الى سعة الوقت وضيقه واحسن اوقاتها بعد فراغ الانسان من عمله لكن المتبطلين لايفرقون مابين هذه الاوقات اذ لا يدري مايحسن فيها وما يقبح الا من انتفع بها فترى احدهم ينكر عليك لمجرد الكلام مع علمه بانك مشتغل بامور معاشك فاذا لهوت عنه لحظة نقم ذلك عليك ولكن كيف يتأتى لمن يعاني الترجمة والتاليف ان يضيع زهرة عمره في الصباح ويقعد مصغيا الى كلام فارغ لا يستحسنه الاقائله جيراني يسهل على ان اخسر من متاعي شيأ في كل يوم ولا اخسر ساعة من اوقات صباحي فاني اذا خسرت شيأ رجوت الله تعالى ان يعوضني ما هو خير منه فاما اذا اضعت وقتي بابطالة اوباستماع انا وانا فلايكون لي منه عوض فيذهب ذلك الجزء من عمري وعمر المتكلم سدى فلو ترك انا الى المساء لخف على سماعه وهذه الشكوى قد بحت بها قبل هذا فاعيدها الآن على اصحابي قرآء الجوائب لقصد ان يتكرموا على

باحد امرين اما ان يتركوا لى اوقات الصباح واما ان يساعدونى على ترجمة الجوائب وتحرير سر الليال فمن شاء فليعذر ومن شاء فليلم فما كلف الله امرءا فوق جهده اما الذين يأتوننى ويقولون اكتب كذا فانا سمعناه من الوزير الفلانى فالاولى لهم ان يكتموا ما ائتمنهم عليه الوزير في صدورهم ولا يدخلونى فيما يعقب الندامة فانى وان كنت قد لحقت بكلب الجرنالات فى هذه الصنعة الا انى لا اريد مجاراتهم فى رقم كل ما اسمعه من الاخبار صدقا كان اوكذبا *

﴿ فى اقتناء الجوارى ﴾

لايخفى ان تملك الجوارى السود بالاستانه يعد من النقم لا النعم فابين الان سببه بالتفصيل وهو ان جميع هولاء النساء يعتقدن بالجن والعفريت ويتشاءمن ويتطيرن وكل واحدة منهن لها فى الشهر يوم معلوم يتنابها فيه الجنى فاذا زارها طلبت ان تذهب الى زعيمتها وقدوتها لكى تبخرها وتعزم عليها والا فانها تلزم الفراش وتتمارض ولا تاتى شيا من الاعمال ومتى ذهبت لزمها ان تنقد الزعيمة ريالا مجيديا واذا كان لصاحب العيلة جارية واحدة استوحشت منه ومن عيلته وداره وطلبت ان تشفع باخرى لتؤانسها وتحمل عنها اثقال الخدمة فاذا حضرت الثانية وكانت من غير بلادها وجنسها وقع بينهما الخصام والنزاع فادى ذلك الى بيع احداهما فان كانت من بلادها وجنسها تألفتا على الشر والخبائث ولاسيما اذا كان فى الدار خادم من الرجال ومن عادتهن انهن لايخرجن الى السوق لشرآء مايلزم لصاحب الدار من نحو الماكولات والمشروبات فيضطر فى هذه الحالة الى ان يكون عنده خادم مخصوص لهذا اوانه يذهب بنفسه ويشترى ما لزمه فهذه حالة الجوارى السود اللاتى يقع عليهن البيع والشرآء فى الاستانة لكونهن اسيرات فمن سمع من الافرنج بان نوعا من جنس بنى آدم يباع ويشترى استعظم ذلك وعده مغايرا للانسانية والحال انه اسر للمشترى (بكسر الراء)

لاللمشترى (بفتح الراء) فان الاول هوالذى يشق ويعنى بوجود الجوارى فى حالة كونهن منعمات مترفهــات لايخرجن من الديار الا للتنزه ولا يأتين من الاعمـال الا ماطاب لهن وشرها فى القضية انه لابد منهن اذ لم تجر العادة عند متوسطى الحال من اصحاب العيـال ان يستخدموا نساء من النصارى وانما يجوز ذلك لرجال الدولة وزد على ذلك ان مفتشى الضبطية صاروا الآن يفتشون السفن التى يجلب فيها الجوارى فاذا ظفروا بطائفة منهن احضروهن الى ديوان الضبطية وهناك يحجز عليهن ويمنعن من البيع فالظـاهر ان الدولة عازمة عــلى منع جلب الرقيق رأسا وهو من بعض المـآثر التى تبديها فى هذه الايام ولكن اذا كان هذا الامر واجبـا عندهـا وجب ايضـا ان تمنع البيع من بيوت النخاسين مع ان اناوى النخاسين لا يتحاشون من البيع اصلا فالاولى اذا ان تمنع البيع والجلب معا او تتركهما معـا وفى الحالة الاولى يقع النـاس فى داهية من الحاجة الى الجوارى كما وقعوا فى داهية من الحـاجة الى وجود الـدينار اذ ليس فى الاستـانة من الخوادم من يسد مسد الجوارى فتحتاج والحـالة هذه الى استخدام نسـاء من النصارى او اليهود اذ ليس من المحتمل ان يأتينـا نساء من الاناضول اوغيرها للخدمة وسبب ذلك فيما قيل لى ان صاحب العيلة اذا استخــدم نساء من البيض فربمـا تاقت نفسه الى احــداهن فيتزوجهـا فتكون ضرة عــلى زوجته الاولى فلهــذا كان من هم النساء المتزوجات هنـا ان يقتصرن عــلى الجوارى السود فكانهـن يزعمن ان الرجال البيض لايشتهون النســاء السود ولعل عدم استخــدام نساء النصارى هو ايضا من هذا القبيل اعنى لكيلا يكون سببا فى عشق الرجال لهن فالظاهر ان لرجال هنا لا هم لهم الا النزو على النساء او ان النسـاء لمـا كن لايفكرن الا فى الرجال لعدم استغـالهن بشئ من امور المعاش يحسبن الرجال مثلهن ومهما يكن من صحة احد هذين الاحتمالين فالمهم الآن ان ينظر فى قضية هؤلاء الجوارى وفى الاستغنـاء عنهن

من قبل ان يقال لنا ان بعضهن صار مخطوبا وقد طالما تمنينا ان تكون الاستانة سالمة من هذه المصيبة كما سلمت تونس بل مصر ايضا قد اشرفت على السلامة منها اذ يقال ان الرقيق فيها متى شاء التخلص من الرق ذهب الى ديوان الضبطية وطلب العتق فيعتق فى الحال مع ان اهل تونس ومصر يمكنهم الاستغناء عن الجوارى السود بنساء الارياف اما فى الاستانة فلا غنى عنهن فلا بد لصاحب العيلة العتيق ان يصير اسيرا باستخدام واحدة او اثنين من هولاء الاسيرات فبقى لنا ان نسأل هنا هل تدارك هذا الامر منوط بالجوائب او بالمجلس البلدى او بالدولة فان رجع الامر الينا قلنا ان استخدام النساء بالاجرة اولى من شراء الرقيق فان المراة متى كانت مستاجرة حرصت على اجرتها فقامت بواجب خدمتها اتم قيام وصانت امتعة البيت عن الكسر والابتذال بخلاف الجوارى فانهن عفك لا يحسن شيئا من الخدمة ولا يابين عملا الا تكلفا ولا يزلن فى تسخط ودمدمة ماعدا كونهن منسيات بزيارة الجن ولكن من اين الحصول على الخوادم بالاجرة اذ كانت العادة لاتسوغ استخدام نساء من الاناضول ولا من النصارى ولا من اليهود ولا من النور (الغجر) كما انها لاتسوغ العمل لصاحبة البيت ولا لبناتها فان النساء انما خلقن هنا للزينة فقط فقد اعجزتنا الحيلة فى امر هولاء الجوارى كما اعجزتنا فى الديار وترتيب الاسواق فلم يبق لنا الا تفويض ذلك الى المجلس البلدى جبر ان سكنى الاستانة فى هذه الاوقات صارت امراشاقا وتعبا باتقا اذ على فرض ان يكون الانسان فيها ذا وظيفة فلا يجد فيها ما ياكل ولاما يشرب ولا مايركب ولا مايسكن فاينما توجه فى طلب ما يعوزه وجد دونه مصاعب ومشاق خلافا لبلاد اوربا فان الصعوبة فيها انما هى فى تحصيل الوظيفة فمتى حصل عليها فقد حصل على كل ما يتمناه ويشتهيه فما دامت هذه الحال عندنا هكذا فالف معلم واستاذ ومترجم فى دار الفنون ومجلس المعارف لايغنون شيئا وانما هى اماني

يتشاغل بها الذين لاشغل لهم اذ لوكان مرادنا الجد فى اسباب التمدن لوجب علينا ان نفكر بادى بدء فى ان الاستانة قد خلت عن عشرة آلاف دار فى الاقل وانه ليس فى كل خمسمائة دار قائمة فيها دكان واحد تباع فيه البقول الطيبة او الفاكهة الناضجة او الخبز الخاص وانما هو سداد من عوز فاى نفع يحصل من تكثير المكاتب والكتب والمترجمين اذا كان بائع الخضراوات ليس عنده عرق من البقول وقد نرى ان كثيرا ممن ساسوا البلاد وضبطوها احسن ضبط لم يكونوا يعلمون بوجود اوميروس وفرجيل وراسين وشلر وشكسبيرفاهم ما نحتاج اليه انما هو الهمة لا الترجمة وترتيب الاسواق والدكاكين لا تكثير المترجمين *

فى الترتيب والادب

كما ان الترتيب يقوم عند الافرنج مقام الادب كذلك يقوم الادب عند سكان البلاد الشرقية مقام الترتيب وعندى ان الترتيب بلا ادب خير من الادب بلاترتيب مثال ذلك ما اذا زرت احد الافرنج فى داره اومحترفه او ديوانه فانه يبادرك بالسوال عن شغلك معه فان راى انه قادر على نفعك وقضاء حاجتك فعل والا فانه يقول لك لا امكان لى اليوم على اسعافك ولكن تعال الى فى الغد بخلاف ما زرت احدا من الاعيان او روساء الكتاب والدواوين فى الديار الشرقية فانه اول ما يراك يبش فى وجهك ويامرلك بالقهوة ثم يخرج ويتركك قاعدا ولايقول لك انه راجع فاذا سالت عنه الخدم بعد ساعة اوساعتين قال لك انه مشغول مع الامير او الوزير فتنتظره على هذه الحالة الى ان ينفد صبرك وترجع خائبا وكان الاولى ان ينبهك قبل خروجه على انه غير راجع اليك ولا يجعل فنجان القهوة مقام عاذر له عن غيابه فان الساعة التى تضيعها فى انتظاره هى اعظم قدرا واكثر نفعا من القهوة فهذا الادب فى البشاشة والمجاملة وشرب القهوة ما يغنى عن اضاعة الوقت سيا ومن هذا القبيل ما يجرى الآن فى الدواوين الميرية بالاستانة العلية من انهم اذا ارادوا احضار احد

المستخدمين ارسلوا اليه قواسا بعد فراغهم من الشغل وامروه بان يبلغ المطلوب حضوره ان يذهب فى الغد الى الديوان فيبيت الرجل ليلته تلك وهو فى الاوهام والهواجس ولاسيما اذا كان الطلب متوجها عليه من ديوان الضبطية او من ديوان آخر تخاف بوادره فاذا حضر فى الساعة التى عينت له راى فى الديوان كاتبا او كاتبين فيقول قد حضر عندى بالامس قواس من طرف الديوان وامرنى بالحضور الى هنا فما سبب ذلك فيقول السامع لاعلم لى فانتظر حتى يأتى الرئيس فلعله هو الذى طلبك فينتظر ساعة اوساعات ولايأتى الرئيس فى ذلك اليوم فيرجع الى منزله وقد ثارت بلابله وزادت هواجسه ولايلتقى الرئيس الا بعدان يبلغ الروح الحلقوم واذا بالرئيس يقول له هل الكتاب الفلانى مطبوع فى مصر او فى باريس اوهل تعرف احدا يحسن اللغة التركية والفرنساوية فيساليت شعرى عن كتاب وعارف بهاتين اللغتين هل يصح ان يكون سببا فى انزعاج الرجل وتاريقه ليلتين تامتين افليس الاولى ان يخبر الرجل المطلوب احضاره الى هذه الدواوين بالسبب الذى يوجب حضوره سواء كان ذلك على لسان القواس او فى رقعة خصوصية وهى اولى وهلا يخطر ببال الطالب ان الجيران متى راوا قواسا داخلا دار احد اساؤا الظن بصاحب الدار فقالوا انه لم يطلب الا لكونه مديونا اومقترف جريرة فكان الاولى لاصحاب الدواوين ان يوفروا على الناس اوقاتهم ولايخيفوهم بارسال القواس اليهم لعمرى ان شرب دن ملآن من القهوة لايرد على ما اخسره من الانتظار فى نصف ساعة وان عبوس وجوه الافرنج عند مواجهتهم مع تصريحهم لى بعجزهم عن اسعافى احب الى من ان ارى من يبش لى ويطرب للقاءى ثم يخرج ويدعنى مترقبا لايابه هذا دابى فانى ارى اضاعة الوقت وخصوصا فى الصباح اثما كبيرا الا ان كثيرا من الناس لايهمهم سوى ان يكونوا زائرين اومزورين فاذا لم يجدوا رئيس الديوان الذى يبتغونه خاضوا فى الحديث مع بعض الكتاب وتلهوا

بالقهوة وشرب الدخان عما يلزمهم من الاشغال وما ذلك الا لان يقولوا انا كنا فى الديوان والحاصل ان الترتيب فى الدواوين الميرية امر مطلوب دون ادب القهوة والملاطفة فى الحديث فلا ينبغى الاجتماع فيها الا لقضاء المصالح فقط ومتى عن لاصحابها احضار احد من عباد الله فليكتبوا له سبب احضاره فى رقعة حتى يكون على بصيرة

فى موجب التنظيمات

قد وعدنا فى احدى الجوائب بالكلام على التنظيمات التى اصطلحت عليها الدولة العلية فى هذه الايام الاخيرة من دون مخالفة لنصوص الشرع الشريف لان غاية كل منهما تاييد الامة واجراء الحق والانصاف لكل من الرفيع والوضيع والعزيز والذليل ولا فرق بينهما الا فى شئ واحد وهو ان الشرع الشريف انما وضع حين كانت يد الاسلام العالية الغالبة ولم يكن للدول الاجنبية من ذكر والتنظيمات انما وضعت بعد اعتزاز هذه الدول وبعد ان كثرت معاملتها وتجارتها فى جميع الاقطار وكثر المترددون من رعاياها على البلاد الاسلامية حتى كادوا يستبدون بتجارتها وصنائعها وذلك لاهمال المسلمين هذه المنافع مع انهم كانوا فى القرون الاولى انشط الناس قاطبة الى العلوم والفنون والصنائع والحرف فكان لا بد بالضرورة من تنظيم قوانين وترتيب قواعد تلتئم بها دولة الاسلام مع سائر الدول بالنظر الى هذه الامور الدنياوية والمصالح السياسية لا بالنظر الى المعتقد والاراء الدينية كيف وان دول اوربا نفسها ليست على مذهب واحد مع ان مثل هذه التنظيمات جار عندهم لا ينكره احد من روساء شرائعهم ولا من روساء دياناتهم والعجب كيف ان دول فرنسا وانكلترة وسردينية قد سفكت دم رجالها وبذلت خزائن اموالها فى نصرة الدولة العلية ولم يقل فيها احد من رعيتها انها اسلمت اوخرجت عن مذهبها وها انا نرى بعض المسلمين ينكرون الآن هذه التنظيمات ويحسبونها بدعة لكونها طارئة من دون ان يخطر ببالهم مقتضيات السياسة ومتعبات الرئاسة على ان تلك التنظيمات متكفلة

بمصالحهم وحقوقهم وعلى ذلك وحده جرى صوغها وانشاؤها لعمرى
لو ان الافرنج كثروا فى بلاد بخارى مثلا او فى بلاد المغرب الاقصى لما كان
بد لدولتى هاتين المملكتين من اجرآء تنظيمات سياسية على نحو ماجرى
فى الممالك العثمانية والا لكان فى كل يوم يحدث بين نواب الدول الاجنبية
وبين الحكومة الوطنية نزاع وخصام لايكون بعدهما الا الحرب وانت
ادرى بعاقبة ذلك هذا ولماكانت وظيفة الجوائب الذب عن حقوق الامة
المحمدية وارشادها الى مايزيد فى عزها ووجاهتها حرصاعلى خيرها ومصلحتها
صح لنا بمقتضى الدالة والغيرة ان نتعرض لابطال ارآء الذين يقدحون
فى هذه التراتيب الحسنة والتدابير السديدة التى جرى العمل بها فى بعض
ممالك الاسلام كالتنظيمات الخيرية عندالدولة العلية وعهد الامان بالايالة
التونسية اللذين هما شى واحد فى المقصود وان اختلفا فى الاسم اذ المقصود
بكليهما ان يكون الناس آمنين على دمائهم واموالهم وأعراضهم كما هو
الواجب الشرعى المعلوم بالضرورة وان تكون سياسة الامة وتحسين
الادارة لنمو العلوم الشرعية والسياسية والاستعداد للمدافعة عن الدين
والوطن وغير ذلك مما هو موكول الى امانة الامرآء وذوى السلطة
مضبوطة ومحكمة بقوانين يسوغ بها مشاركة ذوى العقول الراجحة والارآء
الصائبة وهذان الاصلان وهما الامن على الدمآء والاعراض والاموال
ومشاركة اهل الراى فى الامور السياسية معلوما الطلب شرعا قال عز من
قائل لنبيه المعصوم وشاورهم فى الامر فكيف بغيره وقال صلى الله عليه
وسلم امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا
منى دمآءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله اوكما قال وقال صلى الله
عليه وسلم فى آخر خطبة خطبها وهى خطبة الوداع يا ايها الناس الا
ان دماءكم واموالكم واعراضكم على حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم
هذا فى بلدكم هذا الا فليبلغ الشاهد منكم الغائب الا هل بلغت الا هل
بلغت اوكما قال فقد تبين ان هذا الاصل هو من اصول الدين لايسوغ

القدح فيه بوجه ما ثم ان القدح فى هذه القوانين ان كان واردا من اهل السلطة فانما هو لمصلحتهم الذاتية اذ باحترام الحقوق الشرعية بواسطة تلك القوانين لايبقى لمخلب ظلمهم منشب وما درى اولئك المساكين الغافلون ان الدهر قد يقلب لهم ظهر المجن فيصبحون هم احد المناشب على انا نقول ان اهل السلطة من رجال الدولة العلية لاينبذون هذه القوانين بالقدح فى شئ ما لا بل يرون ان الادارة بدونها متعذرة فانهم الفوها وعرفوا منافعها فلم يبق الا ان يقال ان من يقدح فيها من غيرهم فانما هو لجهله بفوائدها والناس اعدآء لما جهلوا وان كان هذا القدح واردا من العامة فلا كلام لنا معهم اذهم معذورون فان الغباوة غلبت على ابصارهم وبصائرهم فهم لايدركون مصالحهم وحقوقهم وما يجب لهم وعليهم قال المامون رحمه الله من رسالة بعث بها الى نائبه على بغداد اسحق بن ابراهيم الخزاعى وقد عرف اميرالمؤمنين ان الجمهور الاعظم والسواد الاكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية بالاستضاءة بنور العلم وبرهانه اهل جهالة بالله وعمى عنه الخ وانما العجب من اهل البصيرة والمعارف اذا قدحوا فى تلك القوانين حالة كونهم هم امنآء الامة ويعلمون حال سيرة الامرآء وما يكون منهم اذا كانوا مستبدين بالامر فكيف يسوغ لهم القدح فيما هو مشتمل على الاصول الثابتة بالقواطع الشرعية المتضمنة لمصالح الامة وصيانتها عن الجور اللهم الا اذا تمسكوا ببعض فروع من تلك القوانين وظهر لهم انها غير سائغة فيجب حينئذ والحالة هذه ان يمعنوا النظر فيها اولا ويعملوا التامل هل هى من باب قول عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه ستحدث للناس اقضية بحسب ما احدثوا من الفجور او من باب اختيار اخف الضررين وفى كلا الوجهين لا مساغ للقدح فيها اذ هى لم تخرج عن القواعد الشرعية فكان الاليق بهم اذا حالة كونهم هم علم الهدى ومحجة الرشد والسداد ان يطلبوا ابدال تلك الفروع بما يناسب الاصول

كما هو سائغ فى القوانين نفسها حيث صرح فيها بان التبديل بما هو اصلح سائغ فاولى واحرى تبديل ما لا يناسب القواعد الشرعية فباعتبار هذا لايسوغ بوجه من الوجوه القدح فى تلك القوانين لمجرد دخل بعض الجزئيات السائغ تبديلها وابطالها بالقوانين نفسها وغاية مايقال فيها اى فى هذه القوانين انها تاليف مرتب سمى بقانون وقد قيل جور مرتب خير من عدل مهمل فكيف بالعدل اذا كان مرتبا ولوتبصر هولاء الناس لعلموا ان الممنوع شرعا انما هو استقلال امراء هذا الوقت مع كشف التجارب عن احوالهم انهم يتصرفون فى مصالح الامة بالسياسة الشرعية استقلالا من غير تقييد بمشورة ولا قانون بل بمجرد رايهم وايثارهم وغوائل شهواتهم واختيارهم وحاصل الكلام ان القدح فى القوانين ان كان من جهة اصولها التى هى الامن على الدماء والاموال والاعراض ومشاورة ذوى الراى فى امور السياسة فذلك قدح فيما هو ثابت بالقواطع الشرعية ولا تخفى حال من ارتكبه وان كان من جهة فروعها فهم غير محظورين عن ابدالها كما هو مصرح فى القوانين نفسها على ما تقدم ذكره آنفا فلم يبق ح وجه للقدح قطعا والعجب انه مع علم حال سيرة الامراء وذوى السلطة المطلقة وعلم ان دره غوائل شهواتهم واغراضهم عن الامة فى مثل هذا الوقت لا يمكن الا بالقوانين كيف يسوغ لذى لب ورشد ان يطعن فيها مع اشتمالها على تلك الاصول التى احدى محاسنها اباحة تغيير الفروع الغير المناسبة فهل ذلك الا اعانة لمن يروم بابطالها تنفيذ اغراضه وشهواته فى الامة على حسب ماتسول له نفسه الامارة بالسوء والفساد فاى عذر هداك الله لمن اعان الظالم على ظلمه لعمرى ان من اعان على ابطال هذه القوانين لاكثر ذنبا واساءة لدى الشريعة من محدث الجزئيات الممنوعة اوسلم بوجودها لانه سوغ مع احداثها ابدالها او ابطالها هذا الذى اهل السياسة يعلم والله يهدى التى هى اقوم

فصل من كتابي المسمى بمنتهى العجب في خصائص لغة العرب

اعلم ان الكلام ينقسم الى اقسام كثيرة بالنسبة الى مفرداته وتراكيبه وفصيحها وبليغها والى صيغه واركانه واصطلاحه وغير ذلك والمراد بتقسيمه هنا بالنظر الى عموم استعماله بين جميع الناس فيكون مرادفا للغة واللغة تنقسم بحسب هذا المقصد الى ثلثة اقسام الاول ما كان منها مستعملا عند جميع الامم كبيت مثلا وفرس ودكان وكرسي وسكين الا ان في هذه ايضا راعى الفرق باعتبار تغاير اشكالها وانواعها فان الكرسي الذي يجلس عليه الاسكاف ليس كالذي يجلس عليه الامير وقس عليه ولعل التفرقة في انواع هذا القسم عند الافرنج اكثر من عندنا لان لغاتهم بنيت في الغالب على التمدن والتمدن عندنا بني على اللغة فمن ثم ترى عندهم غالبا الفاظا تدل على القديم من هذه الاسماء وعلى الحديث الذي غير شكله بعد تمدن الناس الى ما اختص بقوم دون قوم كالاحتباء للعرب والثاني ما تقارب فيه المعنى كلفظة الفلاح في العربية فان مرادفها في لغات الافرنج ينحط عنها درجة بل درجات وعندهم من هذا النوع الفاظ كثيرة من قبيل المصطلح العلمي والصناعي لا يمكننا التعبير عنه الا بما ينحط عنه وذلك كقولنا اللاغرضية والدولة القانونية والجملة ونحو ذلك ثم بقي النظر في ضم بعض الكلام الى بعضه وفي نسقه وتأليفه والمراد بالضم هنا العطف باحد الحروف العاطفة فلغاتهم في ذلك لم تزل على حالة المغولية اعني انهم يوردون جملة بعد جملة اقتضابا من دون حرف عاطف اعتمادا على نقطة فاصلة بين الجمل كقول بعضهم كتيبة اشتملت على ستمائة رجل . لم يكن فيهم واحد غير مومن . دعوا باسم تيباس لكونهم جاؤا من تيبايس . القيصر امرهم ان يتوجهوا الى فرنسا . فهذا كلام مقطع ككلام الاطفال فمثل قولنا اما انه الا انه كلا انه لا غرو لعمري ان ليت شعري هذا وان كيف لا يأتري والحال انه وكأني به وناهيك وحسبك اعلم ان هب

كان كذا الا ترى جيرانه اللهم الا ان لا باس كل ذلك مستغنى عنه بتلك النقطة فهى شر من الواو عندنا بل كثيرا ما يوردون الجمل من دون مناسبة ولا ارتباط فمن ثم كانت الترجمة من العربية الى الافرنجيـة اسهل من الترجمة من هذه الى تلك فان الاولى من قبيل تقطيع الموصول والثانية من قبيل توصيل المقطوع ومع ذلك فكثيرا ما يرتكبون الحشو الذى يضعونه بين هذه العلامة ( ) وكثيرا مايضيق بهم المحل فيكتبون عـلى الحاشـية مما ننكره نحن ان يكون منفصلا ونحتـال لوصله برابطة ما واذا عطفوا الفـاظا كثيرة لم يستعملوا حرف العطف الا مع آخر لفظة نحو زارنى زيد وعمرو وخالد وبكر فبين الاول والثانى والثـالث يضعون عـلامة وقبل الاخير يضعون حرف العطف وربمـا كان ذلك فى بعض الاحوال موجبا للالتبـاس ولهم اسلوب مقتضب لا يحسن فيه العطف والتنسيق قطعا وذلك ما اذا كان الانسان مثلا مبهورا اوعلى شفا خطر مثال ذلك قول من توهم انه لسع قد لسعت اى لسع ـ اغيثونى ـ بادروا الى ـ قد انكسر سـاعدى ـ ما اطيق نزعه ـ اسـنان حادة ـ لا لا آه ـ ليست عيونا ـ اغيثوا ـ ثعبان اسـود ـ آه ـ مفلطح الراس ـ متقد العينين ـ ينظر الى ـ انه هو الشيطان ـ هو يعرفنى ـ جاء لك فلان الخ مثـال آخر وهو قول من احس باسم آه انى اذكر ـ فلانا فى الصباح ـ الله الذى سقانى ـ هو خبير بالسم الناقع ـ نعم نعم ـ هو اجتمع مرة بفلان ـ آه عدو دبر على ـ قضى الامر كله ـ انا مائت ـ سيتاسـفون على ـ على الاغنياء آه ـ حيف ـ لا ـ هم يعلمون اى رجل فقدوا ـ لكن انا على الثـار ـ اغث * ولاشك ان الفصل فى هذه المواضع ابلغ من الوصل فان من كان عـلى تلك الحالة لا يراعى الوصل وهم انما يكتبون عن القـائل كلامه بحروفه فاما مراعاة تناسب العطف المشترطة عندنا فغير مشترطة عندهم اصلا ولو تلى على جميع علمائهم قول ابى تمام

* لا والذى هو عالم ان النوى * صبر وان ابا الحسـين كريم *

لما رأوه الاحسنا قال العلامة التفتازانى اذ لا مناسبة بين كرم ابى الحسين ومرارة النوى فهذا العطف غير مقبول الخ قلت ولم لا يؤول ان صبر النوى هو كالداء وكرم ابى الحسين كالدواء وان هذين الامرين هما اللذان خلجا خاطر الشاعر فى حكاية حاله فلذا خصهما بالذكر وباب التأويل فى الادب واسع وقد عاب الاديب الصفدى فى شرح لامية العجم على ناظمها قوله

* بم الاقامة فى الزوراء لا سكنى * فيها ولا ناقتى فيها ولا جملى *

فقال انظر الى قلاقة هذا الكلام لانه عطف الناقة والجمل على السكن ولو عطف ما يناسب ذلك من اهل وولد لكان اوقع فى النفس اه قلت هذا النقد غريب فان نفس الطغراى فى هذه القصيدة نفس عربى قح والعرب تنزل الناقة والجمل منزلة السكن ولغتهم تشهد على ذلك فانهم كثيرا ما ينقلون صفات الابل بل البهائم الى الناس وبالعكس الا ترى ان السيد هو المسن من المعز والجواد نعت للفرس الجيد والعقيلة كريمة الحى والابل والعراعر من الناس الشريف والسيد ومن الابل السمين والكبش سيد القوم وقس على ذلك البازل والقرم والنجيب والماعز والشاب والعير الى غير ذلك مما لا يحصى اما قول الصفدى قلاقة بمعنى القلق والقلقلة فقد استعملها كثير من العلماء كالامدى والخفاجى والتوابجى ولم اجدها فى كتب اللغة والظاهر ان معناها سرى فى لفظها كما قالوا فى التشويش والجزاف فان الفعالة بالفتح انما تأتى مصدرا لفعل من افعل الطبائع نحو الحسابة والنقابة والكرامة والغزارة والنجابة وقلق انما جاء على وزن فرح ومصدره كمصدره وقال ابو هلال فى نقده قول الحماسى

* قد كنت اجريه على وجهه * واكثر انصد عن الجاهل *

ما نصه قوله قد كنت اجريه (اى الشعر) ليس لفقا لقوله واكثر الصد عن الجاهل وهذا احد عيوب الشعر ومعنى البيت قد كنت اجرى

الشعر على حقه وكنهه ومع ذلك كنت اكثر الاعراض عن الجهال ومثله قول الآخر

* وان امرءا اسرى اليك ودونه * فياف تنوفات وبيداء خيفق *
* لمحقوقة ان تستجيبي لصوته * وان تعلمي ان المعان الموفق *

قال فليس قوله ان تستجيبي لصوته لفقا لقوله وان المعان الموفق قلت والذى عندى فى قول الاول واكثر الصد عن الجاهل ان العطف هنا فى محله فكانه قال انى اجرى الشعر وما على اذا لم تفهمه الاغبياء كما قال البحترى

* على نحت القوافى من مقاطعها * وما على اذا لم تفهم البقر *

وفى رواية وما على لهم ان تفهم البقر وذكر على بن يحيى المنجم ان البيت للمجنم الراسبى فى كلام يطول ايراده هنا فاما قول الثانى وان المعان الموفق فقد اوقعه موقع المثل وهو لفق للاول لانه يقول اذا كنت تستجيبين دعاءه فتلك اعانة والمعان ابدا موفق ونهاية ماهناك انه لوقال المجاب بدل المعان لكان عند اهل النقد فى عصرنا اولى والحاصل ان جميع ما مر بك يحسن عند الافرنج وان يكن منه ماهو ابعد عطفا ووصلا فاما نسق الكلام وتأليفه فعندهم من الشذوذ والخروج فيه كثير مثال ذلك اذا كان انسان مشلا مشتملا على صفات عديدة كان يكون شيخا واميرا وطبيبا وشاعرا فانهم فى كل جملة يحكونهما عنه ينسبون اليه صفة من تلك الصفات حتى يتوهم القارى ان الثانى غير الاول والثالث غير الثانى مثال ذلك كان الامير يحسب السفر والسياحة فى البلاد ولما كان الشيخ فى بلدة كذا كتب رحلته التى ذكر الطبيب فيها انه راى غرائب كثيرة لان الشاعر كان مولعا بمشاهدة الغرائب وهذا النوع فاش فى جميع مؤلفاتهم وهو فى غاية القبح والابهام ومع ذلك فانهم يدعون بان لغاتهم بينة * مبينة ويلحق بذلك ما اذا كان سلطان مثلا قد تنكر واتخذ له اسما غير اسمه فانهم يذكرونه بالاسم الثانى ويذكرون فى خلال

ذلك انه كان يأمر وينهى بما لا يمكن لساى ان يفعله حتى يتعجب القارى ثم يقولون فى الختام انه كان سلطانا وقد تنكر * ومن ذلك عدم ذكر اداة السبب ووجه التعليل والتفريع كقول بعضهم فلاسفة آثينا كانوا قد نصبوا مذبحا لا له مكنون المؤمن الآن ليس عليه الا ان يقرا كتاب الله * فهذا فى العربية كلام مفلت مخلع مفكك لايقوم بشئ فالواجب ان يقال ان اهل اثينا مع كونهم حكماء احتجبت عنهم معرفة الله فلذا نصبوا مذبحا لا له مكنون اما الآن فان المؤمن يسهل عليه علم هذه الحقيقة بمجرد قرآته لكتاب الله * وكقول آخر ليس لنا نائب لدى تلك الدولة لانقدر ان نكتب اليها الا بواسطة اخرى نعم قد يغتفر مثل ذلك فى الشعر لضرورة النظم كقول المعرى

* واست بغيث فوك للدرمعدن * ولم يلف در فى الغيوث الهواطل *

وكقول ابن زيدون

* فكيف اطقت المشى خصرك مدمج * وردفك رجراج وقدك اهيف *

اما فى الاتساع فلا * ومن ذلك عدم المطابقة فيصح عندهم مثلا ان يقال ويلين اضطراب طبعه والوجه عندنا ان يقال بهدى اضطراب طبعه او يلين قاسى طبعه قال الاديب الصفدى عند قول الطغراى وهل يطابق معوج بمعتدل اقول سبحان الله العظيم ولا انت يامؤيد الدين طابقت بين المعوج والمعتدل فان المعوج انما يطابقه المستقيم والمعتدل يطابق المائل وقيل فى قول ابى الطيب

* لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها * سرور محب او اساءة مجرم *

انه كان ينبغى ان يقول سرور محب اوحزن عدو وفى كتاب الموازنة للامدى عيب على الكميت قوله

* وقد رأينا بها حورا منعمة * رود تكامل فيها الدل والشنب *

قالوا الدل انما يكون مع الغنج ونحوه والشنب انما يكون مع اللعس او ما يجرى مجراه من اوصاف الثغر والفم والجيد ما قاله ذو الرمة لميساء فى شفتيها

حوة لعس * وفى اللثات وفى انيابها شنب * ولو عرض هذا كله على اشعر الافرنج لما راى فيه موضعا للنقد * ومن ذلك المعاظلة وهو عندهم كثير والمعاظلة عند الامدى هى تشبث الكلام بعضه ببعض او هى ان يدخل لفظة من اجل لفظة تشبهها او تجانسها وان اختل المعنى بعض الاختلال وعد منه قول ابى تمام * خان الزمان اخ خان الزمان اخا عنه ولم يخون جسمه الكمد * ومثاله من كلامهم ما اغرب ما رأيت بعينى المحققة تحقيقا لاشك معه ولاوهم وان تكن الحواس كثيرا ما تغش والغش كثيرا مايمس ما جرى بالامس الغابر واما على ما غبر فان الغابر لا يرجى عوده كما ان الآتى لا يحقق وقوعه ففى الحقيقة انه ليس الانسان الفانى الا الحاضر وهيهات ان يسلم له فان اتراحه فيه أكثر من افراحه ــ من الامور المحزنة للقلب وحسب هذا القلب ان يحمل ما يسوءه ويعنيه ويعنيه فهو مفرد والهم عليه جيوش ــ رجل قد قضى عليه الدهر الالد الذى دابه خفض الفضلاء ورفع السفهاء قضاء يقع على كل بشر فى هذه الدنيا الغرور التى اغتربها الجاهلون الذين ليس لهم بالله من علم وانما يعلمون ما ليس ينفعهم ويجهلون ما يقبل بهم الى الفوز بالسعادة * وهنا فاحذر القارى من ان يشتبه عليه هذا النوع الملتف بعضه ببعض والمتساجب جزؤه بجزء بنوع مراعاة النظير اوالمطابقة والاستقصاء اوصحة التقسيم الذى ذكره الاديب الصفدى فى تمام المتون فقال هوان المتكلم اذا تكلم فى مسألة يذكر تقسيمها وتفاريع التقسيم فلايفوته بذلك شئ من احوالها اه فقد يلتبس الحق بالباطل اويكون الفاصل بينهما دقيقا كالشعرة وقد يلتبس الشاذ بالمرذول والاستطراد بالخروج والمسجم بالمتذل والتخريج والتأويل بالتمحل والتكلف والتصحيح بالتمية والمطارحة بالسباب والحلم بالذل والمخالقه بالمداهنة والتعصب بالحمية الى ما لا نهاية له وهذه المزلقة عامة مشتركة عند جميع مؤلفى الافرنج فيتزحلقون بها من عبارة الى اخرى فلايفرقهم القارى على المعنى

المقصود الا بعد ذهاب صبره * ومن ذلك انهم اذا ارادوا ان يذكروا امرا خطيرا مهدوا له بثلاث فقر او اربع وفى كل منها يشيرون الى المقصود على سبيل الترقى والتدريج كقول بعضهم فى نيوطون الفيلسوف اخص استنباطاته كان عن افكار تفاقية وعن بحث لاملل معه . اتفاق جيد اوجد مصدرا لتصور صار دستورا ثم تبعته القريحة الى اقصى غاياته وفى جميع احواله قضية تصورة كروية الدنيا وتأثر الجاذبية التى اشتهرت بين الناس كان منشاها على ما قيل حادثة جزئية عرضية . لما كان قاعدا ذات يوم تحت شجرة فى بستان سقطت عليه تفاحة فتصور منها انجذاب الكواكب بعضها الى بعض اه وهذا النوع يعد عندهم من اساليب البيان ويقال له عندهم كاليما كس اعنى رفع الكلام بالتدريج * ومن ذلك اطلاق المقيد وتقييد المطلق من الظروف والاحوال وهو نوع لا يحصر وشر لايعالج وامثلته تطول وتعاليه يعول مثال ذلك قول بعض مؤلفى الفرنسيس الالحاح الذى جاء من الخارج وهو قوة فى انكلترة ذات فاعلية شاملة لم يلبث ان دعا جميع اعضاء الديوان على راى واحد مشترك وهو الصلح فقوله الذى جاء من الخارج مطلق وحقه ان يكون مقيدا بالاضافة الى الديوان لان المعنى يقتضيه * ومن ذلك قول بعضهم لاتمن نفسك بسعادة تامة فلا شئ من ذلك فى هذه الدنيا وحقه ان يقول لاتمن نفسك بسعادة تامة فى هذه الدنيا فلا شئ فيها من ذلك ومنه التخالف بين الافعال المعلومة والمجهولة كقوله آخر فلو امعن النظر فى هذه الاشياء عجبت كل العجب وحقه ان يقول فلو امعنت النظر * ومن ذلك النعت المقحم والابتداء بالمعرفة اقتضابا واشياء اخرى كثيرة لا يسعها هذا الفصل لئلا يذهب بالغرض المقصود من الجوائب وهو الاخبار السياسية وانما اوردنا هذه النبذة من الكتاب نموذجا ورامونا اجابة الى من طلبه منا * واسوأ من كل ما تقدم انهم لا يستوعبون الكلام على معنى واحد فى موضع واحد فترى طرفا منه فى اول المقالة وطرفا فى وسطها وطرفا

في آخرها فان ذلك اقل انتسابا للفكر والخاطر على انه يعد عندهم ايضا من المحسنات ولا يحسن في لغتنا الا ان تجمع تلك المعاني المشتتة في موضع واحد وبالجملة فالفرق بيننا وبينهم بعيد وجميع لغات الافرنج متقاربة في السبك والاسلوب والافكار

﴿ في فائدة لغوية ﴾

قد كنت ذكرت في الجوائب اني طالعت كتاب الذيل والصلة في خزانة كتب المرحوم فيض الله افندي ولم اجد فيه لفظة اشد في قولهم اشد لقد كان كذا مع ان العلامة الخفاجي عزاها اليه ولم ازل مذ ذلك الوقت مفكرا في مطالعة بعض الامهات من كتب اللغة لاتحقق صحة هذا الاستعمال ففي هذه الايام قصدت خزانة كتب بايزيد ومعي شاهدان فاضلان عادلان وهما الشيخ محمود الطرابلسي والشيخ محمود النابلسي كلاهما من طلبة العلم بالازهر فطلبنا مجمع البحرين للامام الصاغاني صاحب التكملة جمع فيه كل كلام التكملة ثم زاد عليه اشياء كثيرا واشار الى كلام التكملة بحرف ت ثم وضع حرف ح قبل الزيادة اشارة الى الحاشية فبحثنا فيه عن اللفظة المذكورة في مادة ش د د فوجدنا فيها في كلام الحاشية ما نصه ويقولون اشد (بتشديد الدال) لقد كان كذا بمعنى اشهد ويخفف فيقال اشد قال ابو زيد الاشد (بضم الهمزة وتشديد الدال وضمها) لغة في الاشد (بفتح الهمزة) في قولهم بلغ اشده. وهذه النسخة من اجل ما وقع عليه النظر كتبت في سنة ٦٥٣ وهي في اربعة اجزاء وقد كنت اريد ان انسخ خطبة الكتاب وعنوانه ونحو ذلك الا ان قيم الكتب ادعى بانه مضطر الى الخروج فلم يمكن لي ولكن تبين لي من العنوان انه مجمع البحرين للامام الصاغاني فتأسفت غاية الاسف الا اني سررت بمشاهدتي هذه النسخة ومنيت نفسي بمراجعتها مرة ثانية ثم لما رجعت الى منزلي طالعت في المزهر من صفحة ٣٨ الى اخر صفحة ٥١ حيث ذكر اسماء الكتب التي الفت في اللغة ابتداء من كتاب العين

للخليل الى القاموس فلم اجد من جملتها مجمع البحرين فتعجبت غاية العجب ثم قصدت خزانة الكتب التى فى جامع اياصوفيا فوفقت رؤية العباب فبحثت فى مادة ش د د فرايت عبارته هنا كعبارته فى مجمع البحرين ونصها ويقولون اشد لقد كان هكذا بمعنى اشهد ويخفف فيقال اشد وقد سموا شدادا واشد وعنوان هذا الكتاب * العباب الزاخر واللباب الفاخر للحسن بن محمد الحسن القرشى العدوى العمرى الصاغانى وقد ذكره الامام السيوطى انه الرضى الصغانى وذكر صاحب القاموس انه الامام الحافظ فى اللغة الحسن بن محمد بن الحسن وقد جرى لى فى هذه المكتبة ماجرى لى فى مكتبة بايزيد فان حافظ الكتب لم يمهلنى ان انقل شيا من هذه النسخة سوى ما تقدم ذكره لكنى خرجت راضيا بالنصيب الذى تيسر لى من مشاهدة هذه الآثار المباركة وثبت لدى الآن ان عبارة القاموس فى ش د د صحيحة وان عبارة الخفاجى محرفة ولوفرضنا ان الامام الصاغانى ذكر لفظة اشد فى التكملة وان بصرى زاغ عن رويتها لما كان ذكره لها هنالك الا كما ذكرها فى مجمع البحرين والعباب ثم الذى يخطر ببالى ان تفريق هذه الكتب فى عدة مواضع من الاستانة على تباعد مواقعها وصعوبة المشى فى طرقها ليس فيه مصلحة بخلاف ما لو جمعت فى مكان واحد وسط البلد ولو بقاء كتب كل جامع على حدتها اما تعيين الساعات للمطالعة فغير كاف قطعا فان قيمى هذه الكتب لايفتحون الا بعد صلاة الظهر اعنى بعد الخامسة الى نحو التاسعة ويعطلون فى كل اسبوع يومين ماعدا ثلثة اشهر قبل رمضان وبعده * وكان الاولى ان تفتح من الصباح الى العصر الا ان الظاهر ان اهل الاستانة قليلا ما يترددون على هذه المواضع فاغلاقهما ستة اشهر فى السنة لا يهمهم كثيرا وانما المهم اغلاق مواضع القهوة

﴿ فى فائدة لغويه ﴾

قد تعجبت من عبارة القاموس ولسان العرب فى اى د غاية العجب فانهما

بجعلا المؤيد كمكرم اسم مفعول من آيده على فاعله وحقه ان يكون على مفاعل بفتح العين جريا على الباب وعبارة الاول وآيدته موايدة وايدته تايبدا قويته فهو مؤيد ومؤيد (الاولى على وزن مكرم والثانية على وزن معظم وهو من اللف والنشر المرتب) وعبارة الثانى تقول منه آيدته على فاعلته فهو مؤيد وتقول من الايد ايدته تاييدا اى قويته والفاعل مؤيد وتصغيره مويد الى ان قال قال الله تعالى اذ ايدتك بروح القدس وقرئ اذ آيدتك اى قويتك تقول منه آيدته على فاعلته فهو مؤيد اه اما نسخ الصحاح فمختلفة ففى نسختى والآد والايد القوة تقول منه آيدته على فاعلته فهو مويد وتقول من الايد ايدته تاييدا وفى نسخة مصر تقول منه ايدته على فعلته فهو مويد وتقول من الايد ايدته تاييدا وهى اشد خللا الا ان الصغانى نقل عبارة الصحاح فى مجمع البحرين آيدته على افعلته وكذا رايتها فى نسخة اخرى وعليه فالجوهرى برى من اللوم وبق اللوم على القاموس ولسان العرب وما قاله عاصم افندى من ان المؤيد من آيد على فاعل من الشاذ لا وجه له بل هو من آيد على افعل قال الراغب فى المفردات قوله تعالى ايدتك بروح القدس فعلت (بتشديد العين) من الايد اى القوة الشديدة ويؤيد بنصره اى يكثر تاييده ويقال ادته أئيده ايدا نحو بعته ابيعه بيعا وايدته على التكثير ومنه قيل للامير المعظم مؤيد وقرئ ايدتك وهو افعلت من ذلك قال الزجاج يجوز ان يكون فاعلت نحو عاونت وقوله تعالى لا يؤوده حفظهما اى لايثقله واصله من الاود فتحقيق آده عوجه من ثقله فى ممره انتهى كلامه ومنه يستفاد ايضا ان آد يأتى متعديا ولم يذكره غيره بهذا المعنى وانما ذكروه لازما وكنت اود ان اطالع شرح القاموس فى هذه المادة لاعلم مايقوله الشارح الآن هذا الشرح لايوجد الا فى المكتبة الحميدية وهى بعيدة عنى مع شدة ما اعانيه من الحر وتراكم الاشغال فخشيت ان يكون الوقوف على المؤايدة والاياد سببا فى الضعف عن مزيد الارتياد

والذى زادنى تقاعسا عن ذلك كونى رايت المحشى لم يتعرض لنقد عبارة القاموس وهذا نص ما قاله ويقال منه ايدته كافعلته كما قاله الطيبى واصله ايدته ابدلت الهمزة الثانية الفا وتقول من الايد بمعنى القوة ايدته وقيل ايده قواه وايده نصره والنصر قوة لكن فى الصحاح آيدته على فاعلته ويؤيده قول المصنف هنا مؤايدة فتامل قوله فهو مويد الاول كمكرم والثانى كمعظم قاله عبد الباسط وغيره وهو الظاهر هذا كل ما قاله المحشى فى هذا المعنى ولعل الشارح حذا حذوه ونحا نحوه

فى فوائد لغويه

قد ذكرت فى احدى الجوائب ان اللغة العربية اصل للغة السريانية والعبرانية واوردت الدليل على ذلك من وجود علامات الاعراب فى العربية ثم قلت فمن لم يقتنع بهذا الدليل رجعته الى سر الليال والمراد بذلك ان هذا الكتاب موضوع لتبيين مشتقات الالفاظ ونسق الافعال بعضها ببعض لايضاح معانيها وبهذه الطريقة تندفع دعوى من يدعى ان بعض هذه الالفاظ ماخوذ [illegible]ات الاعجمية مثال ذلك لفظ الكنز زعم العلامة الخفاجى فى شفاء الغليل انه معرب كنج وقال الثعالبى فى فقه اللغة فصل فى ذكر اسماء قائمة فى لغة العرب والفرس على لفظ واحد ثم ذكر منها الكنز فكانه يزعم ان ذلك على سبيل التوافق فنقول فى ابواب بناء على ترتيب سر الليال ان كنه كنا وكنونا بمعنى ستره ومثله جنه ثم كنبه فى جرابه كنزه ولكانب الممتلى شبعا ثم كنت فى خلقه قوى ثم كنبت تقبض ثم كند النعمة كفرها وحقيقة معناه سترها ومثله فى الماخذ غمط النعمة فانه وارد من غم بمعنى ستر ايضا ثم كنز الشى فى الوعاء خباه ويقرب منه جنز ثم كنس الظبى دخل فى كناسه فلم ينقطع عن الستر والكنيسة متعبد اليهود اوالنصارى وحقيقة معناها مكان يستتر فيه ثم الكنس فتل الاكسية وتليين المسوك الخشن ثم الكناص انكباص وهو القوى على العمل من الابل والحمر ونحوها ثم كنظه الامر

غمه وملأه وماخذه كأخذ غمه ثم كنع كنع انقبض وانضم فاذا تاملت فيه وجدته غير منقطع عن كنز الا انه هنا لازم ومن هذا الانقباض كنع فلان اى خضع وعن الامر هرب وجبن ثم الكتف محركة الجانب والظل والناحية والكنيف الساتر ويسمى الترس كنيفا لانه يستر صاحبه ثم كنه الشئ جوهره وغايته وقدره ووقته ووجهه وجاء السر بمعنى الاصل واللب ثم كنى عن كذا تكلم بما يستدل به عليه اوان تتكلم بشئ وانت تريد غيره وهذا ايضا لم يخرج عن معنى الستر والخفاء فانت ترى ان معنى الستر والجمع دائر فى جميع هذه الالفاظ فاذا ادعى فارسى ان الكنز معرب كنج اوسريانى ان الكنيسة معرب كنشى بمعنى جماعة قلنا لهما بل انتم قوم لثغ لم تحسنوا النطق بالفاظنا فبدلتموها وحرفتموها وقس على ذلك ما اذا كانت اللفظة جامدة ولكن تقدمها الفاظ مشتقة جاءت على وتيرة واحدة فانا نحكم بموافقة معناها لهامثال ذلك لفظة الشمس فانها تظهر فى اول الامر انها لفظة جامدة فاذا قابلتها بالشم والشمخ والشمذ والشمر والشمز وغير ذلك مما يدل على الارتفاع حسيا كان اومعنويا حكمنا للشمس بهذا المعنى وبهذه الطريقة يبطل تمحل الذين يحاولون نسبة القصور الى اللغة العربية فتراهم ابدا حائمين حول لغات الاعاجم ويقولون ان الفاظ العرب ماخوذة منها من دون دليل ولا برهان وما ذلك الا لحصول بعض المشابهة بين العربية وغيرها فكان الاولى لهم ان يقولوا فى الاقل ان ذلك وقع على سبيل التوارد لا ان يجزموا بكونها معربة نعم انى لا انكر ان يكون قد دخل فى لغة العرب بعض الفاظ من لغة العجم وهى اسماء لاشياء لم تكن معروفة عند العرب كلفظة الاستبرق مثلا الا ان ما كان بخلاف ذلك لا ينبغى ان يحمل عليه فلا يصح ان يقال ان اللجام معرب لان العرب عرفت الخيل وما يلزم لها قبل جميع الامم ومن هذا القبيل الكنز والخوان ونحوهما مما ذكر فى شفاء الغليل وكليات ابى البقاء وبما مر من تناسق الالفاظ فى العربية تعلم

ان هذه المزية مخصوصة بها والمزية الثانية اشتقاق عدة الفاظ من اصل واحد كقولك من كتب كتّاب وكاتب ومكتب ومكتب (بفتح الميم وكسرها) وكاتب واستكتب فهذه المزية لاتوجد فى لغات العجم مطردة وقس على هذا سائر المحاسن الغريزية التى اختصت بها هذه اللغة الاصيلة دون جميع اللغات ومع هذا فان الناس هنا يرغبون عنها الى اللغات المشوهة بالتلفيق والترقيع والتجديع والتقطيع

فى اللهو والبطالة

من جملة الافعال البشرية الغريبة انك ترى كل واحد من الناس راضيا عن عقله معجبا برايه وافعاله مستحسنا لجميع ما يظهره ويخفيه لكنه غير راض عن حاله وبخته فيرى ان ما قدرله من الرزق والجد دون ماقدرله من العقل ومآل ذلك انه مظلوم وانه جدير بان يكون فى مرتبة عليا اذ لوكان فى رتبة الوزارة لكان يفعل كذا او فى خطة الامارة لكان يامر فى اليوم الواحد بالف امر وينهى عن الف امر وانه لوكانت الناس جميعا مثله فى الرأى والتدبير والفطنة والدراية لما كان فى الارض ظالم ولامظلوم ولا فقير ولا مهضوم وكثيرا ما يضرب لك الامثال فى خلال خطابه ويريك انه متمسك باسباب العلم واطنابه ومع ذلك فهو عاجز عن تحصيل معاشه ويقضى اوقاته كلها بالبطالة وبمعاشرة الاوباش فاذا سألته عن سبب بطالته ورثاثة حاله دخل عليك من باب الزهد وقال لك ان الغنى والفقر عند الزاهد الفيلسوف على حد سوى وان كل انسان قدر له مقدار من الرزق يصل اليه سوآء عمل ام لم يعمل وان الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز وما من دابة الا على الله رزقها فالاهتمام بامر المعيشة والسعى فى ادراك المعالى لايفيد شيا فماقدره البارى عز وجل لابد وان يقع فلاينبغى انتظار غير المقدر ولا ينفع معه الحذر فاذا سألته هل يصح تطبيق هذه القاعدة على جميع الناس اعنى انهم كلهم يكونون نظيره عائشين بالبطالة والتوانى ومتردين بالملابس الرثة قال لك وهو غير مبال ان جميع

الناس مجانين وان كل من يحرص على تحصيل الجد والحظوة يكون بمنزلة المغالب للقدر وهذا الراى الذميم متمكن فى خواطر كثيرين من الجهلاء ولذلك تراهم ملازمين للبطالة والفراغ زاهدين فى المعارف وتحصيل المناصب الا انهم لم يلازموا السكوت كما لازموا الكسل ولم يزهدوا فى انتقاد اعمال غيرهم كما زهدوا فى الشهرة والكرامة فدابهم التعرض لما يفعله ولاة امورهم والتحفظ على مساعيهم فياليتهم كانوا كفوا السنتهم عن الملام والطعن واعملوا ايديهم فى شئ ينفعهم واهل بلادهم وبعكس ذلك الذين يكدون ويسعون و يعملون بايديهم فان السنتهم تكون مكفوفة عن اعراض الناس وقد طالما والله تاملت فى هولاء البطالين المتزاهدين وطال عجبي من كسلهم واضاعتهم الوقت سدى مع ان الآيات الكريمة التى تحث على السعي والعمل اكثر من ان تحصى فكان ينبغى للخطباء ان يكرروا تلاوتها على مسامع الناس ويبينوا لهم ما هم فيه من الوهم والغلط وانه شين على الانسانية ان يضاع الوقت بالكلام دون الاعمال وان من يتكفف الناس وهو قادر على تحصيل معاشه بالسعي والاجتهاد ينبغى ان يزجر ويردع والا فيوعد بالطرد والواقع ان الناس غالبا لايقدرون الوقت حق قدره فيتركونه يفوت وهم عنه لاهون باخس الاشياء واسخف الكلام فليعلم مثل هولاء اللاهين المتغافلين انه يمكن للانسان فى دقيقة واحدة ان يصنع مأثرة يذكر بها الى انقضاء الدهور فلهذا كان من الواجب على كل واحد ان يترقب الفرص للمساعى الجيدة ولا يغفل عن ساعة واحدة لا فى نهاره ولا فى ليله بل يعتقد انه ما انسئ فى اجله الى الساعة التى يتمتع بها الا ليفعل شيأ جيدا فمتى عرف الناس هذا الاصل اعنى الانتفاع بالساعة الحاضرة تقدموا حينئذ فى السبيل الموصله الى العز والسعادة فهذا عندى هو التمدن وهذا هو الذى يعمر البلاد ويكثر فيها الصلاح ويقل منها الفساد هذا وانى اعلم ان بعض الناس يعترض على ويقول انك لاسيما تعتقد بان بلاد اوربا اكثر تمدنا من غيرها ومع

ذلك ففيها من مواضع اللهو واللعب اكثر مما يوجد في بلادنا والجواب اولا لانسلم بان بلاد اوربا خالية عن الرذائل اصلا لا بل فيها من الفساد والشرور مالا يوجد في غيرها الا ان هذه الرذائل لها عندهم وقت معلوم وهو الليل فاذا عملوا وسعوا نهارا احتاجوا الى التروح والتفرج ليلا فيذهب بعضهم الى مواضع الرقص وبعضهم الى مواضع الغناء واللعب اعني التياطرات وبعضهم الى مواضع القهوه للمسامرة بناء على انه لا يمكن للانسان مداومة العمل ليلا ونهارا فهذا نوع آخر الا ان البطالة عندنا تكون في النهار اكثر منها في الليل فهذه هي المذمومة المغايرة للطبع والشرع وهذه هي التي يتاسف عليها لكونها ضياعا من العمر وتفويتا للفرص اما التياطرات فعندي انها كالخمر اعني ان اثمها اكبر من نفعها فنفعها في انها تنفس عن المكروب لما يسمع فيها من الحكايات المضحكة والاقوال الرائقة وآلات الطرب الشائقة ولما يرى فيها من التمثيلات المجيدة والمناظر المطربة وكثيرا ما يستفاد منها فوائد تاريخية وعبر ادبية واثمها في كونها تبعث على الولوع بها والحرص عليها حتى ان كثيرا من عامة الناس يقترون على انفسهم وعلى عيالهم حتى يمكن لهم مشاهدتها كل ليلة مع اشياء اخرى من حيل النساء وتبرجهن مما هو داعية للفساد واما مواضع الرقص فهي عندي مبنية على الفساد من اصلها ولاشيء منها نافع البتة ولو كنت ذا مقدرة لقيدت ارجل جميع الراقصين والراقصات في قنطرة واما مواضع القهوة فهي عامة في جميع البلاد وانما ان هذه الملاهي والمراقص لاتوجد في بلاد اوربا الا في المدن الغناء حيث تشره النفوس الى الاسراف والشهوات وليس منها شيء في بلاد الفلاحين فالفلاحون هنالك كالفلاحين عندنا سواء في انهم لاحظ لهم في النهار الا الشغل والعمل وفي الليل الرقود لا بل هم اكثر ضنكا من فلاحينا واوفر جهدا واقل راحة وانزر رغدا

﴿ فى الزواج ﴾

قد كان الزواج فى بلاد اوربا يحسب من الامور الدينية فكان لا يجرى الا بمعرفة القسيسين واجازتهم وحضورهم فلما قام نابوليون الاول جعله من الامور المدنيــة فكان الرجــل اذا اراد ان يتزوج امراة ســار الى الديوان واخبرهم بمــا عزم عليه فيجرون زواجه ويكتبون اسمه واسم امراته فى دفتر فيحسب زواجهما شرعيا وعــلى ذلك استقر الحــال فى فرنسا الى يومنا هذا ثم سرى هذا الامر الى ايطاليــا وفى هذه الايام الى اوستريا واسبانيــا فكل منهــا نهجت هــذا النهج وبقيت العادة الاولى مستعملة عند الانكليز الا ان الانكليز اباحوا الطلاق لاسباب معلومة وتلك الدول لم تبحه بعد والارجح انها جميعها ستألف عليه كما انها تالفت على اختصار الاسباب الموجبة للاسراف فيه فان جميع الافرنج لا يتكلفون فى الزواج هذه التكاليف التى يتجشمها اهل البلاد المشرقية فنهاية ما يسخون فيه بعد عقــدة النكاح هو ان يدعو الرجــل اقاربه واقارب زوجته الى الفطور ثم يختلى بعد ذلك بزوجته اى يسافر بها وقبل زواجه يهدى اليها خاتما من ذهب وكانه عربون عــلى الزواج او انه يضعه فى خنصرها وقت ابرام العقدة ولعل الاقتصار على الخــاتم وحده دون سائر اصناف الحلى اشارة الى طاعتها له وعــلى ذلك يقال فى الامثــال انى لك اطوع من خاتمــك فى خنصرك اواشــارة الى الملازمة فان الخاتم يلزم الخنصر اكثر من لزوم غيره من الحــلى لسائر الاعضــاء او انه ماخوذ من قصة ذكرت فى التوراة واكثر الناس اسرافا فى الزواج اهل الاستانة فان الرجل هنا لا يمكنه ان يرى وجه زوجته الا بعد ان ينفق نحو خمسة الاف قرش فى الاقل فيلزمه ان يدعو امام المحــلة والمختــار والجيران ذكورا و اناثا واصحاب آلات الطرب وان يهدى خطيبته خاتمــا من المــاس اذلا تقرعين النسآء هنــا الا به وان يفرش بيت زوجته وغير ذلك وعندى ان هذا من الامور المتناقضة لان النصارى لما كان زواجهم مرة واحدة فى العمر كان

تحمل الاسراف فيه هينا بخلاف المسلمين فانهم يتزوجون مرات متعددة فكان ينبغي لهم ان يقتصدوا فيه ومن العادة انه اذا اقدم احد على امر شاق ان تمهل له الاسباب التي تهونه لا انه يزيده مشقة وعنتا ولهذا انت ترى في الاستانة كثيرا من العامة غير محصنين فلا تزال النصارى تكثر والمسلمون يقلون فان السوقة يتخذ الخمسة الاف قرش راس مال له ويعتمد عليها في معيشته ايام عمره كلها وهو عنده اولى من ان يعطيها دفعة واحدة وهنالك شر اخر وهو ان ازواج المسلمين لا يساعدن بعولتهن على اسباب المعاش فانهن لم يتخذن الا الفراش وانما هو الخف والنتف الى ان يحين الحتف وسواء كان الزواج هنا من الامور الدينية او المدنية فان المنوط بذوي الامر والنهي ان ينظروا فيه ويسهلوا وعره ليكون سائغا لجميع الناس وياليتهم ينظرون ايضا في ابطال سائر العادات الحاملة على البطر والاسراف فان قيل ان هذا اعتراض للناس في حريتهم فان الانسان له ان يتصرف في ماله كيف شاء قلت لعمر الله ان عامة الناس لايعرفون ضرهم من نفعهم فما يرشدهم الى معرفة الانفع لهم الا القوانين والاحكام الا ترى ان للحكام ان يمنعوا القمار وبيع ما لا يصلح اكله وسكنى دار غير مامونة فلولا انهم مكلفون بارشاد الناس وكف الشر عنهم او كفهم عن الشر لما ساغ لهم هذا لاجرم ان القول الصادر من الحاكم السياسي لينفع العامة اكثر من سماع الف خطبة ولهذا كانت الاحكام السياسية عند الافرنج اكثر من الاحكام الدينية اذ احكام الدين عندهم مآلها الى الروح دون الجسد خلافا للواقع عندنا وقد زاد خطبنا بالتمسك بالعادات المضرة حتى صرنا نتزوج ونأكل ونشرب ونلبس لارضاء غيرنا لالارضاء انفسنا فصار مثلنا كمثل بهلول الذي كان يأكل فتخذ الدجاجة لام على فلام هذا الاسر وعلام هذا الاصر ونحن نفتخر بانا من اهل هذا العصر وهو لعمري حصر وعصر

في من يتخذ العلم وسيلة لهواه

على قدر اشتغال الانسان وبطالته يكون خيره وشره فقلما ترى رجلا بطالا الا وهو مشتغل بالطعن في اعراض الناس وفي البحث عن مثالبهم فعنده ان اظهار عيب من عيوبهم كاظهار كنز من كنوز الارض فلا يزال متطلعا مستشرفا الى ما يظنه محلا للقدح والطعن فيهم حتى يصوب عليه لسانه فلا يبقى ولا يذر اما اذا كان طعنه عن مجرد حسد بان رأى احدا في نعمة وعرف من نفسه انه لن ينالها فانه يرى جميع فضائله رذائل فان رآه كريما سخيا رماه بالتبذير والاسراف وان رآه مقتصدا رماه بالشح وان رآه فصيحا قال انه ثرثار اوساكتا قال انه فدم عيي وهلم جرا فاياك من ان تعاشر بطالا فانه يجعل عرضك مشغلة له ولا يغرنك ما عنده من العلم والدعوى لانه لما كان الحسد قد ران على قلبه وعقله لم يأب ان يتخذ جميع ما يقدره عليه العلم عدة وذريعة لاذاك وقد كان من الضرورة ان العلم يردعه عن السفاهة والنزع الى الشر فان العلم من شانه ان يهذب الاخلاق ويطهرها لانه نور العقل فاذا كان العقل مرشدا بهذا النور انجلت له حقائق الاشياء فراى ان كل عبد من عباد الله تعالى محل للقصور وهذا التعميم من شانه ان يبصر الانسان بعيوب نفسه اولا من قبل التهافت على عيوب الناس الا ان بعض الناس يتخذون العلم آلة لاغراض انفسهم فتى تاقت نفس احدهم الى حرام لم يعدم ان يستشهد على تحليله بآية اوحديث فهولاء هم شر الخليقة اما من جد في طلب العلم للتوصل به الى معرفة الحق واتباعه فان اول شيء يراه من نور العلم وهداه هو نقص نفسه وكونه محلا للطعن عند من يتطلب معايب الناس ومثالبهم وانه لا ينبغي له ان يعمى عن روية الجذع الذي في عينه ثم يتبصر الخلال في عين غيره فمن يحرص على صون عرضه من الثلابين فليحذر معاشرة ذوي البطالة فانهم منطوون على الشر ولو اراد الله بهم خيرا لما تركهم بطالين بل كان يحبب اليهم الاشتغال

بشي ما غيراغراض الناس فاذا قلت ان من كان مقبلا على الشغل والعمل لايحب المخالطة والمعاشرة قلت الشغل على نوعين شغل نظرى وشغل عملي فمن اشتغل بالامور النظرية لم يمكنه ان يداوم عليها اكثر من سبع ساعات ثم بعد ذلك يطلب الراحة والمحادثة فهذا الذى تطيب معاشرته وتحلو مجالسته وهو الذى دابه الصفح عن عيوب الناس ويحمل ما لهم من الهفوات محملا حسنا لانه في مدة اشتغاله في هذه الساعات السبع يرى من قصوره وعجزه ما يشغله بنفسه ويصرفه عن الاشتغال بعيوب من عداه فاما المشتغل بالحرفة البدوية فليست معاشرته مما يحرص عليه هذا واني احمد الله تعالى على كل ما انعم على به ولاسيما انه حبب الى الشغل في كل يوم وهو الشغل الذى يفيدني ويفيد الناس ويكفني عن البحث عما لايعنيني من احوالهم لانهم ان احسنوا فلانفسهم وان اساءوا فعليها وما كان طعن الطاعنين منهم ليضيرني شيا وما كان افتراؤهم على ليستفزني الى اساءتهم ولو قدرت عليها فهم في واد وانا في واد وبينا حكم رب العباد وكل ما بلغني عنهم من الافتراء والبهتان لم ينقص شيا من شغلي ولا من طعامي ولا من شرابي ولا من رقادى ولا من قدرى ولا من رزقي ومن جملة افترآئهم انهم اشاعوا ان الجوائب قد بطلت بالمرة فهاهي اليوم مسدرة ابصارهم بحمد الله وتوفيقه وهي في اعينهم قذى لن ينزح ورمد لن يبرح والله تعالى يرد كيدهم في نحورهم ويحبط مساعيهم ويدحض افترآءهم على فالهم الا ان يفتروا ويحسدوا ويخيبوا ويكمدوا ومالي الا ان امتثل بقول الشاعر وانا على ما اوتيت شاكر

* حسدوا الفتى اذلم ينالوا سعيه * فالقوم اعدآء له وخصوم *
* كضرائر الحسناء قلن لوجهها * حسدا وبغيا انه لدميم *

في اللغة العربية

من فوائد سر الليال انك اذا اتخذت الفعل المضاعف اصلا وفرعت عليه جميع الافعال وجدت بينها وبينه تناسبا وتجانسا بحيث تتامل في حقيقة

الاصل وتدرك معناه مثال ذلك لفظة فت فان معناه الدق والكسر بالاصابع ولازمه الفتح لان كل ما انكسر انفتح * ثم تقول فتأ كمنع كسر واطفأ وما فتأ مثلثة التاء اى مازال وحقيقة معناه ما انكسر وما انقطع الا ان كسر العين فى فتأ افصح من فتحها وعليه اقتصر صاحب المصباح * ثم فتح ضد اغلق وهو ظاهر * ثم الفتخ اصل معناه اللين رجل افتخ الطرف فاتره فلم ينقطع عن معنى التكسر * ثم فتر من بابى نصر وضرب فتورا وفتارا وسكن بعد حدة ولان بعد شدة وحقيقة معناه انكسر تقول فتر الحر كما تقول انكسر الحر * ثم الفتش وهو طلب عن بحث كذا تعريف صاحب القاموس له وحقيقة معناه طلب فتحه وكشفه وهو اكثر ظهورا فى فتشت الثوب بالتخفيف والتشديد * ثم فترصه بمعنى قطعه ومثله فرصه ولا يخفى ان القطع والكسر من مورد واحد * ثم فتغه كمنعه وطئه حتى ينشدخ وهو مبنى على الكسر والتليين * ثم فتقه شقه وهو جامع لمعنى الكسر والفتح * ثم الفتك ان يأتى الرجل صاحبه وهو غافل حتى يشد عليه فيقتله وهو غير منقطع عن معنى الكسر لكنه خصص بهيئة معلومة وحالة مخصوصة * ثم فتله اى لواه ولك فيه وجهان احدهما انه يرجع الى حركة اليد فى الفت والثانى انه مقلوب لفت ومثله لبت واليه ذهب الجوهرى حيث قال فتلت الحبل وغيره وفتله عن وجهه فانفتل اى صرفه فانصرف وهو قلب لفت * ثم فتن الذهب والفضة اذا بهما للاختبار هذا اصل المعنى وهو مبنى على التكسير والتفتيح واصل الفتنة الخبرة بمعنى المحنة ثم اطلقت على اختلاف الناس فى الاراء وعلى الضلال والاضلال والجنون والاثم والكفر والفضيحة والعذاب وغير ذلك وكله لا يخلو عن المناسبة * ثم الفتى الشاب والفتاة الشابة وحقيقة معناه تفتح الصبى فى سنه والفتوى بضم الفاء وفتحها ما افتى به الفقيه وحقيقة معناه ما فتحه وكشفه ويؤيد ذلك ان الفتح جاء بمعنى الحكم بين الخصمين وفاتحه بمعنى قاضاه ولم يذكر صاحب القاموس صيغة فاعل فى فتى وذكر فى مادة فتك

فاتحه بمعنى ساومه

مثال آخر جم المآء يجم ويجم جموما ذا كثر واجتمع والفرس جساما ترك الضراب فتجمع ماؤه والاولى ان يقال تجمع ماؤه لترك الضراب * ثم جحئ عليه كفرح غضب وهو غير محرف عن حئ عليه فان الغضب كثيرا ما ياتى من معنى الامتلآء نحو حبل عليه اى غضب واصله من حبل من المآء والشراب اى امتلأ ومجبأ فى ثيابه تجمع والجمآء التخص وهو غير متقطع عن التجمع * ثم جمح الفرس اعتز بفارسه وغلبه وهو يرجع الى جم ماؤه لترك الضراب * ثم الجمخ الكبر والفخر وهو من هيئة الفرس الجامح ومثله الزخ والشمخ * ثم جمد المآء وكل سائل وحقيقة معناه تجمع ويؤيده مجئ اجمع بمعنى جفف وايبس * ثم الجمد الحجارة المجموعة * ثم الجمرة النار المتقدة ج جمر وعبارة الصحاح الجمر جمع جمرة من النار وهى عندى اولى حتى تكون مثل تمر وتمرة ولجم ولجمة وكيف كان فان حقيقة معنى الجمر النار المتجمعة بعد استعمال الحطب متفرقا ومن هذا المعنى الجمرة وهى الف فارس وجمرت المرأة شعرها جمعته وعقدته فى قفاها وكل ضفيرة جميرة * ثم الجمثورة التراب المجموع ومثله الجرثومة * ثم الجمخوز الاجوف * ثم جمز نكص وهرب وهو من معنى الجمز * ثم الجمهور الجمع العظيم ومثله الجمهور والجمرة الجمعرة وهو ان يجمع الحمار نفسه ويحمل على العانة * ثم جمهور الناس جلهم وجمهره جمعه * ثم جمز اى عدا وهو يرجع الى جمح الحصان * ثم جمس الودك جموسا من باب قعد جمد كما فى المصباح وهو اول ما ابتدا به المادة وصاحب القاموس ابتدأ بالجاموس مع جزمه بانه معرب وهو غريب منكر وعندى ان الجاموس غير معرب كما تشير اليه عبارة المصباح فانه قال الجاموس نوع من البقر كانه مشتق من ذلك (اى من جمس الودك) لانه ليس فيه لين البقر فى استعماله فى الحرث والزرع والدياسة * ثم جمش راسه حلقه وهو ضد جمع ومثله جبش راسه * ثم جمع الشى ومعناه ظاهر * ثم جمل اى جمع وجملة من الكلام

طائفة منه فكانك قلت جماعة ومعنى الجمل عندى حيوان مجمعة فيه الفوائد والمنافع * ثم الجمليل من يجمع كل شي * ثم الجمان كغراب اللولو اوحبوات اشكال اللولو من فضة وعندى انه غير منقطع عن معنى الجمع * ثم الجماء الشخص من الشي وجمه فكانك قلت جملته وتجمى القوم اجتمع بعضهم الى بعض

ولولا هذا الاسلوب لخفيت عليك اسرار اللغة بل كان ذلك حاملا على اساءة الظن بالواضع لان الجاهل اذا وجد السلاح بالكسر والسلاح بالضم من مادة واحدة تحير فى وجه المناسبة بينهما فحمله التحير على نسبة التباين لكلام العرب فاذا رد المعنى الى سل ثم انتقل الى سلأ وسلب وسلت وسلج حتى وصل الى سلح علم ان الوجه الجامع بين السلاح المكسور والمضموم السل فتطمئن نفسه وهذا المثال وحده كاف فى لزوم اتخاذ الفعل والمضاعف اصلا فضلا عن باقى الادلة المذكورة فى مقدمة الكتاب فاذا علمت هذا علمت ايضا ان هذا الكتاب ليس موضوعا على الاشتقاق الاكبر كما ظن بعض من اطلع عليه فانهم مثلوا للاشتقاق الاكبر بقولهم شجرت فلانا بالرمح اى جعلته فيه كالغصن فى الشجرة وتشاجر القوم اى اختلفوا كاختلاف اغصان الشجرة مع ان شجر فلانا بالرمح يرجع الى شج البحر بمعنى سقه والمفازة قطعها ومعنى الشجر محركه من الشجر مسكنة وهو الاختلاف ومرجع هذا الى شج الشراب اى مزجه فان لازم المزج الاختلاف فقد رايت ان الشجر محركة ليس اصلا للشجر مسكنة خلافا لما زعموه هذا وانى قد اتبعت الفعل المضاعف بالفعل الاجوف لانى رايت انهما كثيرا ما ياتيان بمعنى واحد او بمعنيين متقاربين يعلم ذلك من امعن النظر فيهما ثم رايت فى كتاب الوشاح ما معناه ان بعض ائمة اللغة يجعلون المضاعف والاجوف من مورد واحد

﴿ فى فوائد سر المباين ﴾

اعلم ان محاسن اللغة تنقسم الى قسمين احدهما يتعلق بطرق التعبير

وحسن الاساليب عند ضم الكلام بعضه الى بعض وذلك كان تقول انى ذهبت امس الى فلان لاسأله عن شي فلم اجده اذ كان غائبا فلما حضر اخبر بزيارتي له فتاسف كثيرا فلم يلبث ان جا آنى ليعتذر لى عن غيابه فلم يجدني فزاد تاسفه وتاسفت انا ايضا لان سؤالى اياه كان امرا مهما فقصدت زيارته مرة اخرى فلم اجده ثم زارني ايضا ولم يجدني وهكذا مضى علينا عدة اسابيع ولم نجتمع فهذا الاسلوب سهل بين واضح حسن كل الحسن اذ ليس فيه تقديم ولا تاخير ولاتعقيد ولاخروج عما تقتضيه البساطة الطبيعية والتناسق الصناعى حتى ان المنصف ليعتقد بانه لا يمكن تغييره ولا تبديله وانه ينبغي ان يكون قدوة لجميع اللغات فكل لغة حادت عنه حكم عليها بانها خالية من التناسق فهذا الحسن هو من خصوصيات اللغة العربية ولولم يكن لها غيره لكان كافيا فى الحكم بافضليتها بل يمكن فيها تاليف كتاب مستقل على هذا النمط ويدخل فى هذا القسم صيغ الافعال الثلاثية والرباعية والخماسية والسداسية للمعلوم وللمجهول وصيغ التعجب والاضافة والنعت وما اشبه ذلك مما يحتاج الى تركيب فصيغ الافعال العربية فى غاية الحسن والاتقان فلا يمكن للغة من لغات العجم ان تدانيها فيها لان قولنا مثلا تضاربوا لا يمكن التعبير عنه فى تلك اللغات بكلمة واحدة وكذلك التعجب هو فى لغتنا تام على وجازته اما الاضافة فهى فى لغات العجم اوضح واسهل اذ يجعلون بين المضاف والمضاف اليه حرفا فاصلا فاذا اريد نعت المضاف او المضاف اليه تبين منه وذلك كقولنا يوم الله العظيم فان العظيم يحتمل ان يكون نعتا للمضاف او للمضاف اليه وفى لغات العجم لا يحتمل ذلك ولهذا ترى ابناء العرب الآن فى كل قطر ومكان يستعملون لفظة بين المضاف والمضاف اليه فاهل مصر يقولون بتاع واهل الشام وتونس يقولون متاع واهل الحجاز يقولون حق اوحقة الا ان الافرنج لا ذوق لهم فى استعمال الاضافة فانهم قد يستعملون

سبع اضافات فاكثر نحو هذه انوار مجلات صناديق آلات خياطي ثياب
عساكر الملك ولا يرون فى ذلك شيئا ومع ذلك يدعون ان عندهم اصولا
فى الفصاحة والبيان فلنكلهم الى دعواهم ولنشتغل بما يعنينا فانهم قد وطئوا
القسم على ان لغتهم حسنة لا تحتاج الى تهذيب فلا يحيك الكلام فيهم
وقد قوى اعتقادهم هذا ما يخترعونه من الآلات الغريبة مما هو معدوم
عندنا فاذا اعترضنا عليهم فى اساليب اللغة سألونا عن اسماء تلك الآلات
بلغتنا افحاما لنا والقسم الثانى مفردات الالفاظ وهى التى اوجبت
تحرير هذه المقالة فنقول انه لا شك فى ان مفردات العربية غير تامة
بالنظر الى ما استحدث بعد العرب من الفنون والصنائع مما لم يكن يخطر
ببال الاولين وهو غير شين على العربية اذ لا يحتمل ان واضع اللغة
يضع اسماء لمسميات غير موجودة وانما الشين علينا الآن فى ان نستعير
هذه الاسماء من اللغات الاجنبية مع قدرتنا على صوغها من لغتنا على
ان اكثر هذه الاسماء هو من قبيل اسم المكان اوالآلة وصوغ اسم المكان
والآلة فى العربية مطرد من كل فعل ثلاثى فما الحاجة الى ان نقول
فبريقة اوكارخانة ولا نقول معمل اومصنع اوان نقول بيمارستان ولا نقول
مستشفى او ان نقول ديوان ولا نقول مأمر او ان نقول اسطرلاب
ولا نقول منظر وهنا تحوجنى الغيرة على العربية الى ان اقول ان العرب
المستعربين بخسوا اللغة حقها فانهم عدلوا عنها الى اللغات العجمية من
دون سبب موجب فان من يستعير ثوبا من آخر وهو مستغن عنه
يحكم عليه بالزيغ والبطر فلو نشأ فى القرن الاول من الاسلام جمعية
ادبية كما ترى الآن فى ممالك اوربا مما يعرف عندهم بلفظة اكادمى لما
دخلت الفاظ العجم فى لغتنا ولقائل هنا ان يقول ان دخول الفاظ
العجمية فى العربية غير منكر وكل لغة من اللغات فلابد من ان يكون فيها
دخيل فاللغة هى بمنزلة المتكلمين بها فلا يمكن لامة ان تعيش وحدها
من دون ان تختلط بامة اخرى وهذا هو اصل التمدن والجواب ان هذا

الدخيل انما يغضى عنه اذا لم يوجد فى اصل اللغـة ما يرادفه او لم يكن صوغ مثله فاما مع وجود هذا الامكان فالاغضاء عنه بخس لحق اللغة لامحالة والا للزم المستعربين ان ينطقوا باباء واسكاف الفاريستين او ان يقدموا المضاف اليه على المضاف وهنـالك وجه آخر فى العربية لصوغ الفـاظ تسد مسد الالفـاظ العجمية التى اضطررنا اليهـا وهو باب النحت قال الامام السيوطى فى المزهر قال ابن فارس فى فقه اللغـة العرب تنحت من كلمتين كلمـة واحدة وهو جنس من الاختصار وذلك كقولهم رجـل عبشمى منسوب الى اسمين وانشد الخليل اقول لهـا ودمع العـين جار الم يحزنك حيعلة المنـادى من قوله حى على وهذا مذهبنا فى ان الاشـياء الزائدة على ثلاثة احرف اكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد ضبطر من ضبط وضبر وفى قولهم صهصلق انه من صهل وصلق وفى الصلدم انه من الصلد والصدم (الى ان قال) قال ياقوت فى معجم الادباء سأل الشيخ ابو الفتح عثمان بن عيسى الملطى النحوى الضهير الفارسى عما وقع فى الفـاظ العرب على مثـال شقحطب فقال هذا يسمى فى كلام العرب المنحوت ومعنـاه ان الكلمة منحوتة من كلمتين كما ينحت النجار خشبتين ويجعلهما واحدة فشقحطب منحوت من شق حطب فسأله الملطى ان يثبت له ما وقع من هذا المثـال ليعول فى معرفته عليـه فاملاها عليه فى نحو عشرين ورقة من حفظه وسماها كتاب تنبيه البـارعين عـلى المنحوت من كلام العرب وفى اصلاح المنطق لابن السـكيت وتهذيبـه للازهرى يقـال قد اكثر من البسملة اذا اكثر من قول باسم الله ومن الهيللة اذا اكثر من قول لا اله الا الله ومن الحوقلة والحوقلة اذا اكثر من قول لاحول ولاقوة الا بالله ومن الحمدلة اى من الحمد لله ومن الجعفدة اى من جعلت فداك ومن السبحلة اى من سبحان الله وزاد الثعالبى فى فقه اللغة الحيعلة قول المؤذن حى على الصلاة حى على الفلاح و الطلبقة قول القائل اطال الله بقـاءك والدمعزة قوله ادام الله عزك وقـال ابن دحية فى التنوير

وربما يتفق اجتماع كلمتين من كلمة واحدة دالة على كلتا الكلمتين وان كان لا يمكن اشتقاق كلمة من كلمتين في قياس التصريف كقولهم هلل اى قال لا اله الا الله وحمدل اى قال الحمد لله الى ان قال والحسبلة قول حسبي الله والمشكنة قول ما شا الله والسمعلة قول سلام عليكم الى ان قال وفي المجمل لابن فارس الازل القدم يقال هو ازلى قال وارى الكلمة ليست بمشهورة واحسب انهم قالوا للقديم لم يزل ثم نسب الى هذا فلم يستقم الا بالاختصار فقالوا يزلى ثم ابدلت الياء الفا لانها اخف فقالوا ازلى وهو كقولهم في الرمح المنسوب الى ذى يزن ازنى (انتهى مع اختصار) وبقي النظر في اصل استعمال هذه الالفاظ هل الطلقة والدمعزة والمشكنة واردة عن فصحاء العرب ام هى من المولدة والظاهر الثانى وقول ابن فارس ان الحيعلة من قولهم حى على يفيد العموم وعليه فهو عربى قديم لان العرب كانت تقول حى على الثريد وقول الثعالبي الحيعلة قول المؤذن حى على الصلاة الخ يفيد الخصوص فيكون من الالفاظ الاسلامية وقول ابن دحية المشكنة قول ما شاء الله لعله سقط من الاصل لفظة كان وكيفما كان فان النحت طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة وتتسع اساليبها واهما نظير في اللغة اليونانية وسائر اللغات الافرنجية وهى التى كثرت مواد لغاتهم واحوجتنا الى الاخذ منها فقولنا الجغرافيا والفلسفة والجومتريا والجولوجيا كلها الفاظ يونانية منحوتة او مركبة ولولا هذا التركيب لما كان للغة اليونانية فضل على غيرها بشئ وهى وان فضلت لغات الافرنج لا تفضل لغتنا لان الالفاظ البسيطة عندنا اكثر من المركبة وهى افضل ما لم تحوج الضرورة الى التركيب او النحت وحينئذ يعمد اليه ولاشك ان قولنا الفهم خير من قول الفرنسيس كمراندر ومن قول الانكليز اندرستاند ومعنى الاول مع الاخذ ومعنى الثانى تحت القيام وقس على ذلك الوفا من الفاظ التى اصطلح عليها الافرنج لتفاهم وهى من اصل وضعها خالية المعنى بخلاف اللغة العربية فان الفاظها ناصة على المعنى المراد من

اول الوضع الا ما ندر مما لندوره لا يستحق ان يذكر ولو كان ابن جنى قد اطلع على لغاتهم لعد هذا النص من خصائص اللغة العربية اذا تقرر هـذا وعلم منه ان اللغة العربية احسن اللغات صيغا واساليب واتمها واكملها نسقا وتاليفا مع تسويغ استعمال النحت عند اقتضاء الضرورة كان لنا ان نرجو من الاساتذة الكرام الذين يحررون روضة المدارس ان يتواطأوا من هذا الباب اى باب النحت على الفاظ تغنينا عن الالفاظ العجمية التى احوجتنا الى استعمالها وذلك نحو الكومسيون والكونستيتوسيون والقونفرانس وما اشبه ذلك فان مصر مورد العلوم العربية ومصدرها وكلام مشايخها متبع فى جميع الامصار فاذا قرروا طريقة لصوغ الالفاظ المنحوتة اقتدى بهم جميع الكتاب والموافقين لهم الا ان يقال ان النحت قصر على الالفاظ التى تقدمت فلا يتعدى الى غيرها وهو مستبعد جدا فهل لعاقل ان يقول ان الطلبقة لازمة وغيرهـا غير لازم مع ان الوضع انما يراعى به اللزوم والضرورة وتهذيب اللغة عن ان تشان بالالفاظ العجمية ولاسيما اذا كانت مستهجنة كلفظة الكونستيتوسيون واذا ساغ للمستعربين ان يقولوا عيدسون وهى كما فى القاموس دويبة لغة مصنوعة والجيلوط ونحوها وهو كثير ساغ لنا ايضا ان نقول اكثر من ذلك مما تمس الحاجة اليه فهم رجال ونحن رجال ولو ان العرب الاولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد واسلاك التلغراف ونحو ذلك مما اخترعه الافرنج لوضعوا له اسماء خاصة ناصة فهم على هذا غير ملومين وانما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الامور باعيننا ولم ننتبه لوضع اسماء لها على النسق الذى الفته العرب وهو الاختصار والايجاز افيظن احد ان لفظة المشير والسفير والوالى والمتصرف والمدير ومجلس الشورى لاينبغى ان تعد من الالفاظ العربية لانها لم تكن معروفة للدولة العباسية فهذا رأى احد تلك الدولة لعدم اتخاذها هذه الالفاظ اذ الحاجة لم تمس اليها لم يكن له ان يلوم دولة اخرى على اتخاذها مع وجود الحاجة فقس عليها غيرها

فالمرجو اذا ان من همة كتاب الروضة ولاسيما العالم الشهير عز تلو رفاعه بك ان يريحونا من الالفاظ البجية اراحهم الله واغناهم عن التعريب الذى هو اشد عذاب على من عاناه

جمل ادبية

من الناس من يتعلم العلم لينفع به نفسه وغيره فتراه ابدا حريصا على جمع فرائده وايضاح منهجه وتسهيل وعره فاجل امنية عنده ان يفهم القول كما عناه قائله وان يفيده غيره كما فهمه فمثله كمثل الكريم الذى يستفيد ويفيد وفى الحقيقة فان الكرم كما يكون فى افادة المال كذلك يكون فى افادة العلم فالكريم من العلماء يفرح لسؤال الطالب ولا يمل من السائلين واذا اجاب عن شئ او الف شيئا جعل اقصى همه وعنايته فى توضيح عبارته وتصريحها حتى لاتكون مظنة للتاويل والقال والقيل فهولاء الذين ينفع الله تعالى الناس بعلمهم وعملهم وهولاء الذين بعد وفاتهم يتخرج عليهم كثيرون من الطلبة كما كانوا فى حال حياتهم فلا يزال كلامهم نورا يضئ على الناس ولاتزال بركة مساعيهم ومقاصدهم نامية الغراس ومنهم من يتعلم العلم لينفع به نفسه دون غيره الا ان ذلك النفع الذى استاثر به يعود بالضرر عليه كمن يتعلم الفقه مثلا ليصير به عونا لواحد على آخر فيبذل جهده والحالة هذه فى ان يصير الحق باطلا والباطل حقا وما ذلك الا ليكسب بعض دراهم ينفقها فى رياشه واثاثه اذ يزعم ان الاكثار من الرياش والاثاث يكسبه المهابة فى عيون الناس فاذا قصده غريم مثلا ورآه على هيئة الغنى عظم فى عينه واجزل له العطاء لان الناس فى الغالب يراعون الظاهر دون الباطن فيكون قد اتخذ العلم سببا للاكثار والتشبع والاكثار والتشبع سببا للجشع فيضل عن طريق العلم

(وينبه)

ويتيه في مهامه التكسب والاستغناء واذا ساله احد الطلبة عن شي تعاظم عليه وازدرى بسؤاله واخذ يشكو من قلة فهم الطلبة في القاء السوال وتلقي الجواب فاذا اجاب عن شي لبس في القول ووارب حتى يزيد السائل حيرة وارتباكا فاذا انصرف السائل من عنده على هذا الوجه قال انه لم يبق من اهل عصره من يفهم كلامه بل العلماء ايضا تقصر عن ادراك معانيه وتلك مزية فضله الله تعالى بها على جميع الناس اذ جعل اقواله اعلى من اذهانهم وليست عبارته فيما يكتب باقل ابهاما وتلبيسا مما يقول وهو داء فاش في كثير من المصنفين الذين يقصدون من التصنيف اظهار علمهم ودقة افكارهم وتصوراتهم لا افادة الطلبة واذا مدح بحضرته احد على علمه وفضيلته امتعص وامتعض فلا يريد ان يكون احد من الخلق شريكا له في العلم بل يمتعص ايضا من مدح غيره على علم شي من اللغات الاجنبية فاذا قيل له ان فلانا على امامته بالعربية يعرف اليونانية قال وانا ايضا اعرفها تيكالى ايلادو قالون واذا قيل له فلان يعرف الفارسية قال دوست برادر خوش الا ان الله تبارك وتعالى قد فضلني منذ الصبى على اهل العصر فكنت اقرى الناس وانا ابن خمس عشرة سنة وصرت احكم وافتى وانا ابن عشرين سنة فدانت لى الامراء واقبلت على العلماء فما منهم الا من اخذ عنى او استملانى او استجازنى اوسالنى فشرحت وامليت واجزت واجبت وبكل احسنت واصبت ومع ذلك فانى غير معجب بنفسى ولا سامخ بانفى كما يفعله كثير من العلماء الاترى انى لا استنكف من مجالسة الناس ولا آنف من ان اصحح لهم كتبهم اى كتب كانت وما ذلك الا عن كرم وحب للخير فانى مجبول عليهما اذ لو كنت ممن يضنون لغنى لملكت الدنيا بحذافيرها ولكننا لما انفقت وجمعت وفرقت واقتنيت وبذلت وادخرت وافضلت ولست ممن يحرص على قطع ارزاق الناس واظهار معايبهم وانما حبب الى الحق ونفع الناس وذلك يضطرنى الى ان اقول ان

فلانا مرآء فى الدين فيجب قطع معاشه وان فلانا غير جدير بوظيفته فيجب عزله وان فلانا اعترض على فى امر كنت فيه على الحق وكان هو على الباطل فيجب قطع لسانه وهلم جرا الى ان يبدو لجميع الناس ان علمه شرك للاذى والشر ووسيلة للضلال والهتر فلا يسعهم بعد ذلك الا اقصاءه ورذله واهانته وخذله فيصبح بينهم ذميما مدحورا داخرا مبتورا فهذا مثل العالم الذى يقصد بعلمه نفع نفسه وضر غيره والله يهدى من يشاء

من الناس من يتعلم العلم وهو مجبول على صفات حميدة فيزداد هدى ورشدا وورعا ودماثة اخلاق وحسن تصرف واستقامة طبع ونزاهة نفس وصفا عقيدة واخلاص مودة وسلامة نية وعفة قلب ولسان وانبساط يد فمثله كمثل الجوهر الشفاف اذا قبله شعاع الشمس اوكمثل اناء من زجاج نظيف صاف اذا وضع فيه الماء لم يغير من طعمه شيئا فتراه دائما مقبلا على نفع الناس ساعيا فى اصلاح شؤونهم وتسوية احوالهم باذلا اقصى جهده فى تسكين خواطرهم ولم شعثهم وتالف متفرقهم وتسلية حزينهم وارشاد غاويهم وتأييد ضعيفهم وليس من همه التردد على ابواب الامرآء والخضوع لحجابهم وملاينة خدمتهم ولا استعطاف ذوى الثروة والعز حتى ينال منهم وظيفة او رزقا ولا التندق بالابيات والنوادر حتى يعجب السامعين ويحملهم على اكرامه وتعظيمه ولا التعرض لما لا يعنيه حتى يقال فيه انه ذو همة وسعى وانما همه كله فى مراعاة ما يقتضيه العلم وهو فعل الخير لوجه الله تعالى فهذا هو العالم الذى يحمد حيا وميتا ويبقى اسمه مذكورا بالخير فى كل مكان وزمان وهو الذى تتبرك الناس بنقل اقواله كما يرتاحون لحمد افعاله وكلما ذكرت سجية حسنة وخلة مستحسنة ذكروه بها ونسبوا اليه كثيرا من امثالها من شأن الناس ان ينسبوا الى من عرف بالمحامد والفضائل فى عصره كل حسن وفضل عرف لغيره

ومنهم من يتعلمه وهو مجبول على بعض صفات ذميمة فيتهذب به بعض التهذب ويتغير به بعض التغير فشأنه ان يبقى فيه علمه وشره كالقرنين المتكافئين فمرة يقوى علمه على شره وذلك اذا تذكر ما مر به من قصص الصالحين وسيرة اهل السمت والخير فود الاقتداء بهم ومرة يقوى شره على علمه اذ يطمس الله على قلبه فينسى ما قرأه وسمعه ويتبع هواه فمثله كمثل الشمس في يوم الغيم تبدو مرة وتختفي اخرى وهذه الحالة هي التي تحير الناس في وصفه فترى بعضهم يمدحونه كل المدح وبعضهم يذمونه كل الذم وكل في نفس الامر صادق لان العادة ان خلة واحدة مستهجنة تمحو خلالا كثيرة مستحسنة فكاين من محسن مجبول على الاحسان زلت به قدمه مرة فصارت حسناته كلها في اعين المتعنتين عليه سيئات ومنهم من تعلمه وهو على الاخلاق الذميمة فلا يزداد به الا طيشا ونزعا الى الشر واضطرابا في الراي وحدة في الطبع وشراسة في المعاملة وتطاولا على حقوق الناس وتهافتا على المعاصي فهم مثله كمثل شمعة موقدة معرضة لمهب الرياح فلا تزال الرياح تعبث بها يمنة ويسرة حتى يتأذى الناظر اليها اطفاؤها بالمرة ثم ان كل علم نافع وكل نافع ممدوح الا انه ينبغي النظر في حقيقة معنى النافع فان من يقصد العلم لينتفع به نفسه دون غيره لم يبق ذلك النفع الخاص مستوجبا للمدح العام وكيفية اقتصار الانسان على نفع نفسه هو ان يزدري بغيره حتى يصير مرجع المسائل اليه وان يستحل اموال الناس بدعوى انه يساوي نفسه من انهم لم يحرزوها على وجه الحق وان يتهددهم باظهار عيوبهم في الاماكن التي يغشاها حتى يفدوه كل ما يقترحه عليهم وان يغري زيدا بعمرو ويضري عمرا على زيد ويتربص بهما رزايا ولولا هو لما [illegible] كل منهما [illegible] ان يتعرض غيره [illegible] عرف انه ينال رزقا [illegible] في [illegible] رزقه [illegible] عند ذلك [illegible] نفسه [illegible] غير [illegible] وغاهه باعتبار ضر غيره وهو من ارذل [illegible] الناس

لانفع له من وقوع البشر فى المهالك الموبقات الا الشماتة بهم او مثل الجعل الذى يرتاح لحمل الاقذار ويانف من رائحة الطيب ومن العبب كل العيب ان يظل العالم مترقبا زلة غيره ومتربصا لحلول الشر بهم ولا لذة له من ذلك ولانفع سوى مجرد وقوع الضرر بمن يكرهه فاذا اردت ان تختبر جليسك لتعرف من اى صنف هو من هذه الاصناف الثلثة فاذكر له نعمة انسان وفضله وعلمه فان رايته قدفرح بذكرها وتمنى بقاآهـا عليه فهو من الصنف الاول وان رايته قد سكت اونسب ذلك الى بطر الزمان وعوارض السعد فهو من الصنف الثانى وان رايته قد امتعض فهو من الثالث وهو الذى لايحب خير احد وهو الذى علمه فيه كالقرط فى اذن السنور اوكالنعومة فى بطن الثعبان وهو الـذى يجب الاحتراز منه كما يحترز من الجاهل بل اكثر لان كلام الجاهل لا يوثر فى احد وانمـا التـاثير لكلام العالم الا ان الحق عصمة كل معتصم به وفعل الخـير جنة كل من تحصن به فاذا واظبت على حب الحق وفعـل الخير فلاتخش شر احـد من الناس وما عليك اذا تجنى الناس عليك وانت برى عندالله فعليه وحده عول وبه اعتصم واليه النجى ومنه استهد والله يهدى من يشآء

من النـاس من يكدح لمعاشه كانه لايموت ابدا فتراه دائما مهتما بالاحتراف والاصطراف والاجتراح والافتراح والاكتساب والاختلاب والاهتيـال والاجتدآء والاعتدآء والاستكثار والامتيار والاستئثار والادخار ومايبـالى ان فقد صاحبا بتحصيل درهم اوغنم من حيث لا غنم اوان انشب مخلبه فى غير منشب اوان بادهته النـاس باللوم والسب فان حب المال اذا استولى على قلب المحتال خيل له السراب شرابا والوشل عبابا فاذا اعتـاد كسبـا من جهة اتخذ تلك الجهة قبلة له وناط بهـا امله ومعوله واذا استفـاد من احد فائدة ظنهـا قدصارت عليه فرضا مكتوبا وادآء محسوبا لايبرح من باله ولايشغله عنه شان من احواله فاذا خاب يوما امله ظن ان قد ادركه

اجله فيعول ويشكو ويصيح ويبكو ويقول يالمرجال اين المال واين الآمال واين من كان يلقى اسئلتي بانواله فقد فسد الزمان وضاع العرف والاحسان وقلت الاخوان لقد طالما اعطيت ولم اسأل واليوم اسأل ولا اعطى وهيهات من بذل وصان وجه الحر عن ان يبتذل هذه الارض واسعة رحيبة والناس عليها اكثر من ان يحصوا عددا وما اجد من يؤاسيني منهم احدا فما لى احرم وهم يرزقون وما في خفق وهم يتأنقون فبأى شئ فضلونى وعلام خذلونى وابسلونى فتخيل اليه وساوس نفسه انهم جميعا اعداء له الداء وانهم جديرون بالارداء حتى يكون هو وارث الارض والمتصرف فيها وحده وحسبه اذا فقدوا جميعا دون ان يفقد فيها جده فمثل هذا لا ينفع فيه لوم ولا نصحه ولا ينثنيه عن الكسب فضيحه واذا ذكرت له المنية اشتغل عنها بذكر الامنية واذا ذكر بهاذم اللذات اعرض عن الذكر بشرى ما هو آت فيا عجب كيف يشغل الانسان نفسه بالامانى الوبيلة ويستغرق فى المطامع المستحيلة وهو يرى نكبات الزمان وصروف الاحوال لا تبقى شيئا على حال فكم اهرمت من فتى وافقرت من غنى ووضعت ذا رفعه واجاعت ذا رتعه وكم عن رفيع سفل ونبيه خمل وذى امرة فى الناس صار مأمورا وذى خطر وشان عاد وحده حقيرا هكذا دأب الايام فى الانام ترفع وتخفض بين قعود وقيام وتعز وتذل بين يقظة ومنام من ذا الذى دامت له السيادة وصفت له مشارب السعادة فاذا كانت الدنيا منذ خلقها الخالق لم تصف لاحد فى المغارب والمشارق ولم يهنأ بها عيش ناجر ولا بر ولا دخلت بها ساعة الا ومر بها دهر فكيف الاغترار بها والاركون فيها وهى تقول بلسان الحال الذى هو افصح من لسان المقال اى عامل بنى جمعت على حسد سوى وما لدى من دنيا فان كنتم تشكون من انفض فها انا قد عدلت بينكم وعمت حينكم فكلكم مرتد يوم حينه بثوب واحد وكلكم له حشرجة واحدة عند ذوق حمامه لرمسه فمن كان سكران من حب

فليستفق من سكرته ومن كان قد اخلد الى فليتنبه من غرته وليتخلص من غمرته لعمري ان حال الدنيا هذا مقالها وهذا انذارها وتعذالها فما احد من العرب والعجم الا ويفهم معناها ويفطن لفحواها ولذا قلت ان لسان الحال افصح من لسان القال ومنهم من هو مجبول على الزهد فى الدنيا لكنه غير زاهد فى السعى ولامتطلع الى ما فى ايدى الناس ولا يصرفه عن سعيه ظفر ولا ياس وانما يسعى لوجه الله الكريم فى الطريق المستقيم ويخلص ما يعمله ويمحص ما ياتيه ويفعله فان انتفع به غيره فـذلك اربه وخيره والا فانه يحتسب به عند الله اجرا ويزداد اليه ارتياحا وسرا وهو مع ذلك غير غافل عن ميعاد الحمام الا ان الحسام لا يصرفه عن نفع الانام فلا يقول ان لهم من يرزقهم ويكفلهم ويقوتهم ويغلهم فعلى الاستقلال بنفسى وهذا ابدا طبى وقبسى فانظر الى الفرق ما بين هذين الرجلين وهما من طينة واحدة وانظر الى تفاوت مآربهما المتعاندة لاجرم انه ليس من فرق فى شئ من الاشياء كما فرق فى بنى آدم فمنهم من تسمو نفسه الى المعالى وطيب الشيم فيقرب من الملائكة المقربين ومنهم من تسفل مروءته وتسقط همته فيدنو من حد الشياطين ومنهم من بوحدة رأيه يسعد الوفا عديدة من الناس ومنهم من لا لذة له الا فى اسقامهم وايقاعهم فى الباس ذلك حكم الله الذى تقصر عن ادراكه الحكماء وعن علمه المحيط تتقاصر العلماء وهو الذى خلق الداء والدواء وجعل من خلقه اسعادا واشقاء فاسالك ياذا الجلال ان تجعلنى ممن يطلب الرزق الحلال ويؤثر السعى النافع على القيل والقال ولا تكلنى الى الامانى الباطلة والمطامع الزائلة واقرن قصدى بالاصابة وعملى بالاثابة انك ولى الاجابة

من الناس من يتكل على حسب آبائه فيفتخر به لدى جلسائه واخلائه فى صباحه ومسائه فلا ينهض لمأثرة ولا يصبو الى مفخرة فشانه ابدا ان يقول فى كل مجال من القول ان ابى كان ذا فضل وطول وانه كان يقرى الضيوف

ويرضى الالوف وكان السائل يأتيه فيرجع وهو غنى عليم وينسور رايه المستنير فيعود وهو نطس حكيم وكان له ملكة فى التأليف ومزية فى كل عمل رصيف وكان مغناه مقصودا ومحياه مشهودا ونواله قريبا ومقاله مصيبا وهو الذى انتهى اليه علم الاوائل والاواخر وصار نبهاً فى جميع المحامد والمفاخر فما احد من الناس يجهل قدره وشانه او ينكر عرفانه واحسانه حتى سارت بحمده الركبان وشدا بمدحه كل قاص ودان فلا تسالونى على ذلك دليلا ولا تطلبوا له فيمن غبر وحضر مثيلا فما من فاضل الا وكان بالنسبة اليه مفضولا وعلى هذا الانكال يبنى فخره ويشيد ذكره فيصبح عاجزا وكلا متقاعسا عن المكارم والعلى وما يهمه ان ندب الى اغاثة محتاج واعانة ذى انفاج وايواء طارق مضطر واجتداء طارى معتر وتراه ابدا عند ذكر الاموات ينتفخ وينتفش حتى يتوصل به الى ذكر ابائه فينتعش واذا ذكرت له الاحياء قال الولد سر ابيه ولا يلد الشبيه الا شبيه ثم اذا قيل له هذا فقير كثرت عياله فساءت حاله وقد طال ارقه وبدا خلقه بعد ان كان يتأنق فى ملبسه ويجود على ملتمسه وهذا تاجر استخرب ولم يبق له وجه مطلب فآل امره الى التقشف والم به الضعف قال ما انا على الخلق بمسيطر وحسبى انى على تشييد مجد آباى مقتدر فقد قالوا ان اشتقاق الابن من بنى بمعنى انه يبنى ذكر ابيه ويديم عليه الثنا وهكذا يصم اذنا عن ذكر كل من طارق اسمه سمعه ويقسو قلبا على كل من يقصد صنعه وينشد نفعه ومنهم من يكون له ذلك الانكال ويفتخر بما كان لابائه من شرف الفعال وكرم الخلال وصالح الاعمال الا انه يداب فى الاقتداء بهم والسلوك على مذهبهم وفى اتمام الامر الذى قصدوا والارتواء من الورد الذى وردوا والتخلق باخلاقهم الكريمة والاستقراء لمكارمهم العميمة حتى يزيد عليها ان كانت الزيادة مما يطاق كأنه واياهم فى حلبة السباق وعلى هذا ترى كثيرا من ابناء العلما قد حاكوا آباهم ادبا وعلما وفضلا وفهما فهذا لعمرى هو الفخر والشرف

الباقي على مدى الدهر وهو الذي يجب ان تحث عليه البنون ويكون اماما يقتدي به المقتدون وينبه له الغافلون ويعتبر به المعتبرون وهو اشرف من ميراث النضار والعقار وابقى ذكرا على مر الادهار فان النضار يزول والنعمة تحول ولو بقيا لاحد لحال بينه وبينهما الهرم فلا يتمتع بهما الا بمثل ما يتمتع الحالم بما حلم والمتمنى بالعدم اما العلم فانه كنز لا يفنى على الانفاق ولا يخشى على ثروته حؤول املاق فهو قرين صاحبه الى ان يودع في رمسه وهو في الشباب له جمال وفي المشيب كمال يقوى عند وهن العمر ويزيد عند نقصان الخصب واليسر ومنهم من يفر بخسة اصل اجداده لكنه يفتخر بجده واجتهاده وبعدته وعتاده وكسبه واعداده حتى يحاول ان يستر بفضله ما بدا من عيب اصله فاذا ذكر لاحد حسب قال لاحسب الا الادب ولافخر للمرء الا بنفسه فلا تسأل عن قسه وهذا القول هو في نفس الامر صواب وهو الذي يعتمد عليه كثير من ذوي الآداب وهو راس مال الذين لاحسب لهم وعليه يجعلون معولهم الا انه لا ينكر ان للاصول تاثيرا في الفروع عظيما فلا تكاد ترى ذا اصل زكي الا وتتوسم فيه خلقا وسيما وشانا كريما فاذا اجتمع الاصل والفعل واقترنا كان ذلك غاية المنى والا فان هذا الثاني خير من الاول واكرم منه وافضل وبقي الكلام فيمن لا حسب له ولا ادب وهو مع ذلك يفتخر في كل مطلب ويتيه على من شرق وعلى من غرب ويملأ المكان من دعاويه ولا يبالي بلاحيه فعنده قول انا جواب عن كل سؤال وتلخيص لكل اشكال فهو الذي يجانب جانبه ويتعب به مصاحبه فلا ينبغي ان تضاع في معاشرته ساعه ولا ان يكون مع الجماعه فانبذ عنك كل من يكثر من قول انا وهو بمعزل عن السنا ولا عائدة منه ولا غنا ولازم من يذكر محامده غيره وينوه بنيره وخيره ومن يشيد بذكر الاكياس ويزيل عما بدا في انحائهم من الباس فان الطباع تعدى كما تعدى الادواء وان العمر قصير لا ينبغي ان يضاع في سماع هذر وهراء واتباع

اضلال واغوآء ولاتكن كن ينفق زينه فى الليالى سهرا على ذكر الاعصر الخوالى فحسبك من آثار الزمن الحاضر ما يلهيك عن ادكار الغابر الا ان تريد بذكر الماضى عبرة تحض على اصطناع مبره والليب من استفاد علما وحكمة من كل ما يمر عليه ويذكر بين يديه ولايشتغل الا بما يعنيه ولا يطلب مايشقيه ويعنيه والسلام على من اتبع هذه النصيحة وتوخى المقاصد الصحيحة وجد واجتهد فيما يحمد وسعى وقصد وكان من امره على رشد

من الناس من يتصدر فى المجالس ويحادث كل مجالس ويثافن كل موانس فيطرب المسامع بما يورده من اغقر النواجع ويسلى النفوس بما يسرده من الحكايات والنوادر والابيات ويواصل الاخبار ويروى الاشعار ويصل قضية باخرى ويقول تلك حرية وهذه احرى ويلتفت ويستطرد ويتمثل ويستشهد ويلحج الى وقائع وفنون ويفض فى حديث ذى شجون حتى تقول ان صدره مستودع لجميع الاخبار وفكره محور لكل الاسرار وانه مورد المسائل ومصدرها وخبر الفضائل ومخبرها وانه فضاض المشكلات ومستفاض البينات وبديع البيان وحسان الفصاحة والتبيان وان له مصنفات كثيرة ابدعها ومولفات وفيرة اخترعها حيث قالوا ان اللسان ترجمان الجنان والاخذ فى فنون الكلام منبأة عن العرفان فيعظم فى عينك قدره ويثبت لديك فضله وفخره وتهابه مهابة التلميذ لاستاذه وتوقره توقير المضيم لمعاذه فاذا اخطأ فى شى خلت ان الخطأ من فهمك لا منه وانك محتاج الى الاخذ عنه فاذا اخذ القلم وكتب ابان عن قصور فى علمه وفتور فى فهمه فغربت عنه تلك القريحة السياله وخانته تلك الفكرة الوصاله فلم تجد لارتباط الكلام بابا فكانه لم يقرأ فى العلم كتابا ولادرى من فنون القول ايجازا ولا اطنابا وكان لسانه الذى كان يتكلم به انما كان مستعارا وتلك الفصاحة كانت اضطرارا لا اختيارا مع ان من العادة ان الانفراد

للتاليف والانشاء يظهر فضل المرء في علمه اكثر من المجالس ويكون ادعى الاينماء فان في الخلوة يصفو الذهن من كدر القيل والقال وينشرح الصدر من عنت الارتجال فيسهل فيها ايقاع الالفاظ مواقعها والتأليف بين المعاني فلا يختار منها الا بدائعها واذا التبس شيء من الكلام فالكتب تكشف عنه اللثام فكيف تكون الخلوة باعثة على التقصير والزحام ادعى الى البيان في التعبير وان كثيرا ممن يتفصحون ويتحذلقون والناس بهم محدقون واليهم محدقون ليتعمدون حفظ بعض القصص والحكايات لمجرد سردها على السامعين بينة على ما اهم من البيان والتبيين والاطلاع على سير الاولين والاضطلاع من علوم المتقدمين فترى احدهم ينتهز الفرصة لبث ما حفظه ووعاه ويزاحم غيره في الكلام لاظهار دعواه فاذا كان في المجلس ثلثة منهم او اربعة سمعت لهم ضجيجا وجعجعة حتى كانك في جيش لجب وبحر مضطرب ومنهم من يحضر المجالس وهو صامت ويسمع مايقال فيها وهو ناصت واذا عن له ان يورد نادرة على سبيل المحاضرة تذكر انها غير خافية على احد من الحضور او انها ليست من القول المأثور فيضرب عن ايرادها ويقيس عليها غيرها من انداددها وهكذا ينفض المجلس وهو لم ينطق ببنت سفه ولا اظهر على السكون اسفه فيظن جليسه انه ذو عي وغيره من المكثرين كان اللوذعي فان الناس يظنون غالبا ان الفخار في الاكثار والقصور في الاقتصار فاذا حضر المجلس مرة اخرى لم يرفع له احد من اهله قدرا واتخذوه كلا وقالوا ان سكوته انما كان جهلا وان حضوره لمما يقلي فان من شهد محفلا ولم يتكلم فيه كان كانه يتطلب عد معايبه وحصر مساويه ولكن متى خلا هذا الصامت بنفسه واجرى جواد قلمه على ميدان طرسه اراك من فنون الكلام عجبا واذاقك من حلاوة البيان ضربا وانشاك من انشائه وسلب لبك باساليبه وانشائه فتود لو كنت له تلميذا وخديما او سميرا وكليما وقلت لاجرم ان من البيان لسحرا وان من الصمت لسرا فليس كل من

اورد النوادر كان عالمـا ولا كل من تمثل بالابيات كان ناظما فما العلم الا ما استقر في البـال لاما قرقر في المقـال وهذا الذي يفيد الطالبين ويودب المتأدبين وقلما اجتمع لمرء فصاحة اللسان وبراعة اليراع والناس في تفضيلهما ليسوا على اجماع وعندي ان الثاني بالعلماء اليق والاول بالخطباء وذوي المراتب اليق فان هولاء محتاجون الى اعجاب السامع بالقول الرائع وان لم يتحروا في قولهم التحقيق مما لا بد منه للعالم ذي التوبيق وفي كلتا الملكتين مزيه وفضيلة وتقيه فاما من خلا عنهما ولم يحرز سهما منهمـا فعادة النـاس ان يرموه بالمعايب وينشوا عليه المثـالب وما يكادون يرونه جديرا بشي من الاحسان لانهم حصروا الفضل في فصاحة اللسان وبراعة الجنان وهو عندي في الجملة غير الصواب والقائل به انمـا يقول بمجازفة بدون حساب فان كثيرا ممن ليس لهم احد هذين الشانين يحسنون مباشرة الامور والتقلب في الرئاسة من دون شين فكم من امي ساس البـلاد وعمر البلاد وليس له في صناعتي الكلام و لتـاليف يدان حتى كان لا انامل له ولا لسان وانما هو نور يقذفه الله في قلبه فيرى به سليم الامور وسقيمهـا ومنتجها وعقيمها والحري منها بالاجراء والنافع منها عند الاستقراء فيشمر له عن ساعد الهمه ويوفقه الله الى اصلاح امر الامه وانما يكون هذا في افراد الناس نادرا ولذلك قلمـا ترى له منهم ذاكرا واحسن الملكات واجل الغريزات ما نفع الناس ودفع عنهم الترهات والفهم عـلى الودة والاخاء وازال من بينهم العداوة والبغضاء والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ويمد التوفيق من اتاه بقلب سليم

من النـاس من يتسنم اسنى المراتب واسمى المنـاصب فيحاول المعالى ويزاول المـآرب ويحكم السياسة ويرأم الرئاسة ويراعي فيهمـا رضاء الخالق والمخلوق ونشاء لرزق المرزوق ولايلهيه نعيم الصفاء وصفاء النعيم عن تعهد الضعيف وتفقد اليتيم وعن اسداء المبرات الى ذوي

الحاجات واستماع شكوى المظلوم واستطلاع دعوى المهضوم حيث يعلم
ان احب الناس الى الله انفعهم لعباده واكيس الكيس من عمل لمعاده
وعلم ان الله لايضيع اجر المحسنين وان الدنيا لا تبقى لاحد من الموسرين
ولامن المسيطرين وان من ولى الامور وجب عليه اسعاف الجمهور الخامل
منهم والمشهور فمثله مثل الربان الذى يدخر الزاد فى سفينته ويحكم السكان
ولا يبحر الا على امان ولا يرسو الا وهو ذو اطمئنان حيث ان احوال الانسان
فى معاشه تشبه السفر فى الابحار اذ هى محفوفة بالاخطار والاكدار فبينا
يكون فيها رخى البال مغبوط الحال ذا اهل ومال واعوان واخلال
اذا بالزمان قد اضطرب عليه فاحاط به ديجوره وهاج عليه معسوره
والتفت به كواربه وشملته حوادثه حتى تكاد تنضب عنه مزاياه وتشين
سجاياه فيخيل للناس ان تلك الرئاسة التى نالها والمعالى التى طالها
انما كانت عرضا واتفاقا وانها كانت عارية عنده لاحلالها وان فى وسع
كل انسان ان يدركها مثله اذا ساعده الزمان ولكن ينبغى ان تعلم انه
لا يتأتى لاحد ولى الرئاسة وان انتهت اليه الآداب والكياسة ان يرضى
جميع الناس ويستخلص مودتهم له من دون الناس فان اغراض الناس
متفاوتة متباعده ومقاصدهم متباينة متعانده واهواءهم كهبوب الرياح
لاتستقر على اصطلاح فبعضهم يرى ان الرئاسة تستلزم الملاينة والمياسره
وبعضهم يرى انها لاتستتب الا بالمشادة والمعاسره والمثرون منهم يشيرون
بالضن والاقتصاد والمعسرون يوثرون الكريم الجواد ولذا نرى المورخين
لايتفقون على اوصاف من نبغ فى ايامهم من اهل الاماره فلانكاد نتحرى
من اقوالهم عباره وذلك لعدم اتفاق اهوائهم ولتشتت انحائهم وابعد
الناس عن الرئاسة من كانت نفوسهم فى الدنيا زاهده ومن نظروا
الى الاشياء كلها بعين واحده ومن استهوتهم فاسقتهم الى التسوية بين
الضار والنافع والسار والفاجع وذلك يودى الى اهمال الاحكام
واعزاز اللئام اذ لا بد من ان يكون الرئيس ذا بوادر تخيف اهل الكبائر

وتردعهم عن التمادى فى الشرور والمعاير ولهذا كانت خطة كل من ولى الرئاسه صعبة متعبة وحالته حالة من وقع بين اضداد متالبه واعدآء متحزبه فمرة يلزمه ان يكون متشددا مستقصيا ومرة اخرى يرى الاولى ان يكون هينا لينا مسترضيا وتارة يتحرى الامساك والمنع واخرى الاجدآء والنفع فاذا لزم لغيره راس واحد لزم له رؤس متعدده فلا يهنئه مع تراكم الاعمال وتضاعف الاحوال حظ ولا جده هذه حالة الرئيس الذى يجتهد فى ارضاء الله والعباد ويلزم الارق حتى يذيق غيره لذة الرقاد ويواظب على اقامة الحقوق وتبيين الحق من المحقوق والناس له حاسدون ولفضله جاحدون وما يدرون مايعانى من الجهد والعناء من جد فى كسب المجد والثنآء ولعمرى ان من ظن اعبآء الرئاسة امرا يسيرا وخيلت اليه نفسه انه مع اخلاده الى الراحة يكون اميرا فقد اخطأ الصواب واخطأه الطلاب ومنهم من المناصب سمنه والمراتب نعمه وهوغير مترشح لها ولامترقب وصلها فيجمح به الى حيث تتوى عنده الامور وتجاذبه جوانب المحذور من المقدور ونواصيه من الصروف اعصاها ومن الحوادث ادناها واقصاها فيخبط خبط عشوآء ويركب راسه فى كل فيفاء نعمة بسعد طالعه ومجد مطامعه فان ساعده الجد استمر فى ولايته واستقر على غايته فجار ومال وعاث وهضم وغدر وغشم وتجبر وتكبر واكل اموال الارامل والايتام وسلط اللئام على الكرام ولم يراع عهدا ولا الا ولم يراقب وليا ولاخلا ونسى من كان يا فهم فى المنزل الخشن وركن الى الزمان ومن صروف احواله امن وهو دال على ما تضاعف عز وجل من الاسرار الخفيه والحكم المقضيه لانه تعالى حين يرى عباده قد آثروا الفساد وعدلوا عن محجة الرشاد يسلط عليهم مغشما جبارا ومتحكما قهارا ليعتبر به من اعتبر ويزدجر من ازدجر فلا تحسبن مهالة اهمالا ولا تنسبن الى تدبيره خللا تعالى ثم تعالى ومنهم من لايرتاح الى رتبة ولا رئاسه ويرى انها توجع راسه وتذهب نعاسه وتنضب رغاسه

فيختار ان يكون محكوما لا حاكما ومظلوما لا ظالما بناء على انه حليف الامانة والاستقامه واليف الصدق السلامه فما احد يغشاه بظلامه او يلقاه بملامه فالخمول عنده خير من النباهة والتعالى اذ السيل حرب للمكان العالى وليس سقوط من كان على مرقبه كسقوط من كان على عتبه الا ان الحق يقضى على امثال هذا ان كان فى رئاسته نفع للناس ودرء للباس ان يسارع اليها ويحرص عليها فما حسن ان يكون للانسان راس مال وهو يخفى منافعه ويكتم صنائعه فان الاريب الكامل واللبيب العاقل من توخى نفع سائر البشر بما خصه البارى تعالى به من المزايا الغرر لا من اجتزأ بنفع نفسه وعليها اقتصر والله يهدى من يشاء

من الناس من يتزوج المرأة لجمالها لا لكمالها ولونها لا لبونها ولغناها ولحنها لا لحجاها ولحنها ولبزاتها لا لفضيلتها ولدلها وسكلها لا لفضلها ونبلها ولتبرجها وتدعبها لا لتحريجها وتهذيبها ولخفتها لا لعفتها ولزينتها لا لتدينها ولكحلها لا لمهدها وذلك داب الذواق المطلاق الذى لا يبقى على عهد وميثاق ومن همه ان يتلذذ بحواسه الظاهرة دون الباطنه ويغفل عن العواقب الكامنه فان الرجل اللبيب الذى يصيب الزوجة حتى يصيب ويطيب هو من نظر فى محاسنها النفسية دون الجسميه فان حسن البشرة يزول ونضرة الوجه تحول اذ لا يخفى ان المرأة عرضة لكوارث متساويه وحوادث متعاقبه من شأنها ان تسرع بها الى الهرم وتعرضها للسقم وتورثها العلل علة بعد علة فضلا عن كونها ضعيفة البنية بالجبلة فاذا كان كذلك عفا اثر الحب الذى كان مبنيا على هذه المحاسن الظاهره ومال القلب عنها الى اخرى باهره على انه مهما برعت المرأة فى الجمال وفاقت وراقت العيون بصباحتها وشاقت فان الفة العين بالنظر اليها دائما تصدق الخاطر عنها فكانه لم يكن بها هائما ولهذا قيل فى المثل السائر ما تملكه اليد تزهد فيه النفس ويسلو عنه الخاطر هذا وان فى استحقاق

لفظة القلب لدليلا على ما للانسان من الشان والدأب فهو لايصبر على طعام واحد ولايزال يتردد فى مصادر وموارد مختلفة الانحاء والمقاصد فمرة يرى ان كثرة الازواج مدعاة للابتهاج اذ لا بد ان يصيب بينهن من تلائمه وتوافقه وترائه ولان فى كثرة الاولاد روح النفس وشفاء الفؤاد ومرة يرى ان المتعة خير متاع وانها اشهى للطباع واخرى يظن ان العزوبة اعذب والمذلة احب اما سن الزوجين وقت الزواج فليس فيه قول فاصل مبنى على الاحتجاج ففى بلاد اوربا لا تتزوج المرأة رجلا الا اذا كان تربا لها والا فزيادة بضع سنين وما زاد على ذلك فهو من الشذوذ الذى يشين وذلك كان يتزوج شيخ فان وهو شريف النسب بفتاة لا اصل لها ولاحسب فهى انما تتزوجه لكى ترث منه اللقب لا لكى ترأمه رام من احب وفى بلاد الشرق قد يتزوج الرجل من لم تبلغ نصف عمره ولايرى فى هذا الفرق سببا يحملها على فركه وهجره لانه يعتقد ان الذكر خير من الانثى وافضل منها نفسا واكرم جنسا وعلى هذا فله ان يغيرها بضرائر ستى وان بالت حقها التسا ولا يمحضها الوداد محتا ولا يعنى بشانها اذا امتحنت ولا يرثى لها اذا امتهنت وما ذلك الا لان الذكر خير من الانثى وانه افضل منها نفسا واكرم جنسا وان له ان يسهر الليالى مع احبابه وهى مقصورة على حجرتها ولاترى الا وجه ضرتها وان تغيب عنها دهرا ويغادرها مقيدة باسمه كرها وجبرا ويجعل عليها من ترقبها فتقصرها وتحجبها فلا تخرج الى الشارع ولاتبرز الى المصانع ولا تستنشق الهواء الا من خروق الشباك ولا تسمع بشرا الا على وجل من الهلاك والبحاس من الانتهاك وما ذلك الا لان الذكر خير من الانثى وانه افضل منها نفسا واكرم جنسا وان له ان يدعى الولاية والكرامات والمقام الذى يختص بالصالحين ذوى الرياضات فيختلى بالنساء ويقرأ عليهن ليحمل ازواجهن على ودادهن او يصرفهم عن ابعادهن فيقبان عليه زمرا ويصرف اوقاته معهن مستهترا وزوجته اذ ذاك

متململ من الكمد وتتقلب في النكد فليس لها من تشكو اليه اومن تعول
عليه ولا من ينقذها منه او يصرفها عنه وليس لها ان تمارى في ولايته
وتتطلع على حبالته وما ذلك الا لان الذكر خير من الانثى وانه افضل
منها قنسا واكرم جنسا وان له ان يدعي العلم فيجمع لديه غلمانا
يتلمذون له فيأتي منازلهم ويأتون منزله ويتلو عليهم الخزعبيلات
والنوادر المستحيلات فيلازمون حضرته ويكرمون طلعته ويزورون مودته
وينوهون بفضائله ويعجبون بشمائله حتى تتمكن محبته في قلوب اهلهم
ومن اتصل بهم فيودوا ان يتصل نسبه بنسبهم ويعرضوا عليه عوانسهم
ويستزيرونه ليؤانسهم وزوجته اذ ذاك تسمع وتتاسف وتدمع وتتلهف
ومع ذلك الا لان الذكر خير من الانثى وانه افضل منها قنسا واكرم
جنسا وان له ان يصر على ما اكتسبه من المال ويحجبه عنها كحجبها
عن الرجال فلاينض لها منه الا ما لا يجد عنده وهو قوت من لا يموت
ولباس من لم يودع بعد في الارماس وهو على نفسه اكرم الناس فان
قالت له ان فلانة ذات حلي واني ذات عطل ومالي غير هذا الثوب من
بدل قام على منبر الوعظ والانذار وقال لها ان المراة الصالحة تكتفي بالادام
والاطمار وقد طالما عهدتك من الصالحات فكيف صرت من المسرفات
الطالحات قال الله تعالى قال النبي صلى الله عليه وسلم قال زيد قال عمرو
انبانا حدثنا فيسكتها ويخجلها وعلى كيده يحملها اذ هي تعلم ان الشرع
الشريف لم يحرم على النساء الزينة وانما هو سفاهة من الرجل وسوء
كينه واقبح من ذلك اذا كان الرجل يحرمها على عرسه ويستحلها لنفسه
وما ذلك الا لان الذكر خير من الانثى وافضل منها قنسا واكرم جنسا
ثم اذا قالت له ان جارتي تخرج الى المنازه و بين حالتي وحالتها متشابه
فدعني اخرج معها وارتع مرتعها واجرى مجراها واسرى مسراها
قال لها ان شان الحرة ان تكون ملازمة للزوايا مداومة على الخبايا لاتتفرج
ولا تتبرج ولا تتلوج لا [illegible] تقار [illegible] ولا تصبو الى

الكساء وكل انثى خرجت من دارهـا فقد باءت باوزارها وترجعت عن شنارها ثم اندفع يقول قال الله قال الرسول وما ذلك الا لان الذكر خير من الانثى وافضل منها قنسا واكرم جنثا واذا قالت له تلاطمه اذ ترى الهم يواكفه والغم يرادفه وهو ينفخ متضجرا ويتلهف متوغرا مالي اراك اليوم مهمّا فكدت تذوب اسى وغمـا فلا تجيد خطابا ولا تحير جوابا ولا تهتم بما اهمنا من عوز الطعام وفقد الائتدام بله اللبـاس الفاخر والحلى والجواهر فقد انسانيها عدم القوت وما بعد ذلك الا الاجل الموقوت قال لها كانك تنبشين اسراري حتى تبعثريهـا وتذيبين اطواري حتى تغوريهـا فهـل يوم يرتقي الاحتياج في ربقة هذا الزواج اشترطت على ان ابنك مكتومي فضلا عن ان اطعمك مادومي فهـلا تنتهين عن هذا اللجـاج والخصام المؤدى الى التهـاج واللكام وما ذلك الا لان الذكر خير من الانثى وافضل منهـا قنسا واكـرم جنثـا وهكذا يعيش الرجل والمرأة كالضدين المتعـاندين والقرنين المتناكدين فيبيت كل منهما والاحتيال شاغله والاغتيال شاغله الى ان يصلح بينهما الطلاق ونعم المصلح الفراق ومنهم من يتزوج المرأة حتى تكون قرينة له في احواله وآماله ومعينة له على اعماله وشريكة له في الضراء والسراء والاعسار والاثراء فيخلص كل منهما لصاحبه وده ويحفظ عهده ويحمى عرضه ويتحامى غضه ويتجافى غنظه ويوفر حظه ويعظم قدره ويكتم سره فلا يكون لاحدهما غنى عن الآخر حتى كأنهما جسم واحد ان غاب اوحضر ومن كان مع زوجه على هـذه الحاله فهو اسعد انـاس لامحـاله اذ لا يخفى ان غبطة الرجل في اكثر احواله متوقفـة على الالتئام والتوافق مع اهله وعياله وعند ذلك يصير القليل كثيرا والعسير يسيرا والشدة رخاء والكدر صفاء ولايخفى ما للزوجة من الفضل في تربية الاولاد وتدبير المنزل مما به قرة عين المتـاهل ولاسيما حين يضطره الاكتساب الى الغياب ودندى على احوال المتزوجين كلام طويل لكني اكتفي هنا بهذا القدر القليل

وفى الجملة فلاينبغى فى الزواج التهافت على الملاح فانه يذيق صاحبه من قدودهن وخز الرماح ومن عيونهن حز الصفاح وماوراء ذلك الا الافتضاح وانما المطلوب فيه الوئام والوفاق ولايفيز بذلك الا حسن الاخلاق

من الناس من يتعب فى شبابه لراحته فى مشيبه لعلمه ان زمن المشيب يحول بينه وبين دؤوبه ونصيبه اذ يستحوذ الاعياء على رجليه والكلال على يديه والكلول على عينيه والخؤول على اصغريه والوهن على جلده والافن على خلده والنسيان على ذكره والانبهار على فكره فيرى اليسير اذ ذاك عسيرا والبشير نذيرا ويخيل له الصفير زئيرا فتخونه مشاعره وتبسله خواطره ويلازمه البلبال وسوء الظن فى كل حال ضرورة ان وهن القوى طليعة وهى النهى فلاتكاد ترى ذا اعتلال الا وفى عقله اختلال وماقالوه من ان الشيخ يستحكم رايه ويتسدد حزمه فيصيب ظنه ويقرطس سهمه فانما هو مبنى على سلامة البدن اوان شيخيته لاعلى مجرد طول سنيه مع الضعف الذى يقاسيه وهيهات فى هذا الزمان الذى يتحقق فيه الطلب وترهق النوب وتتعاقب المصائب وتتراكب النوائب ويتخذل الجار وتبخس الاحرار ويشط المجير ويسلو النصير ويكثر الشامت ويهتز الماقت ان تدوم لمعمر صحته وتسلم له منحته ولهذا ترى المعمرين فى هذا الزمن قلما ينتفعون بتجاربهم اويفضلون بها على مشاغبهم وهذه الخلة اعنى التعب فى الشباب لحصول الراحة فى الهرم تكاد ان تكون من خصوصيات الافرنج دون سائر الامم فهى عندهم اصل الهم والام ومنتهى الهمم فتراهم يتغربون عن اوطانهم ويتبعدون عن اخوانهم واخدانهم ويجدون ويدأبون ويكدون وينصبون ويقتحمون الاخطار ويتجرعون الاكدار ويسهرون الليالى فى الاختراع والاستنباط ويطلون المعالى بمبالغة وافراط حتى يترفهوا فى آخر حياتهم ويطيب لهم الاجتماع باهلهم واحبابهم ولداتهم ومنهم

من لايفكر فى العواقب عند الشباب فلا يدخر شيا مما اكتسبه من الطلاب فكل ما يكسبه فى يومه ينفقه ويقول ان الحق تبارك وتعالى يكفله ويرزقه فما ينبغى له ان يكون مدخرا شيا الى الغد اذ الغد موهوم وليس على الموهوم من معتمد فذلك عندهم داب اولى الرشد وشان من آثر ان يحمد حتى اذا اعيا عن السعى وفاته الطلب فلا تماسك عنه ولا وعى وراى ان ربيع ايامه الذى غبر لم يترك لشتائها ملجأ من القسير وموقى من الكدر اخذ يتندم على ما فات ويرمى الدهر بالاعنات ويتاسف على تهافته فى الموبقات وانصبابه الى الشهوات وهيهات هيهات فهل ندم على فائت ينفع وهل فى استرجاع الشباب مطمع وتلك فى الغالب خلتنا بل بالحرى علتنا وبكل من هاتين الخطتين وردت اشعار المتقدمين وتبين منها رشد الرشيد وافن الافين يعلم ذلك من يفطن الى انحاء الكلام واختلاف مقاصد الانام والراى عندى الاول ولايتم ذلك الابتلاء خلال الحزم والمواظبة وكتمان الحال ولابد من شرط القصد ومجانبة الشطط وهى حالة وسطى بين من افرط وفرط اذ كل من الافراط والتفريط مذموم والكلف باحدهما ملوم الا انه ينبغى ان تعلم ان حصول الراحة بعد التعب كما تقدم انما يتسنى للذين يلون الاعمال الطفيفة والمساعى الجليلة من نحو التجارة والصيرفية والمعاملات البعيدة الجزيلة اما اصحاب الحرف والصنائع فلايزالون فى بوس فاجع ونصب واصب وتعب باخع وذل تابع ولهف متضاعف ووجل متكاثف فانهم لا يزالون مشفقين من البطالة وهى للمحترفين شر حالة ولاسيما اذا اقعدهم السقم وارقهم الالم وكانوا ذوى عيال معولهم عليهم ومستندهم اليهم فيكون همهم فى هذه الحالة متضاعفا وحزنهم مترادفا واذا نظرت الى هذه الطائفة من الناس وتاملت فى احوالهم تامل منصف غير ناس للحقوق البشرية ولا متناس راعك خطبهم ولاعك نحبهم وانساك سائك ما تراه من شانهم واذهلك عن فنك ما تنشا هذه من افنانهم فانك اذا دخلت

قصور الملوك والامرآء وذوى السعادة والاثرآء واهل السيادة والوجاهه والنبالة والنباهه ورايت ما فيها من التحف الباهره والامتعة الفاخره والحلي والجواهر والآنية والنخائر والفروش المرفوعه والمتكاآت الموضوعه والمحاريب والتماثيل والتصاوير والتشاكيل والزينة والنقوش والبهجة والرقوش والتذهيب والترصيع والتنضيد والتنويع وغير ذلك من كل ما تتوق اليه النفس ويشتهيه الطبع وتقربه العين ويطرب السمع علمت ان ذلك كله من كد هولآء المعملين وان شقوتهم فى العيش انما هى لسعادة المترفهين الكسلين لاجرم انه لولا كتب ايدى هولآء العمله المتواصل وشنهم وشرتهم وسشلهم كثفنات البوازل لما نعمت المترفين اثامل ولولا مشى اولئك لما ركب هولآء ولولا طماهم لما طاب لهولآء الطلآء ولهذا لاينبغى ان تحتقر احدا ممن يعملون بايديهم ويتهنون انفسهم لصيانة وجوه معمليهم فان زينة الكون بهم وعمران الدنيا متوقف على دابهم فهم اولى بالاكرام ممن يصرفون اوقاتهم فى اللهو والمدام والقصف والاثام وسوآء منهم من يكسو الراس بعمله او يكسو القدم ومن يطبع سيفا او مبراة للقلم فهم جميعا بمنزلة اعضآء متعددة فى جسم واحد فليس لك ان تقول ان هذا العضو مستغنى عنه او انه من الزوائد ذلك صنع الله الذى خلق الناس فاحسن خلقهم وجعل من ابواب متفرقة رزقهم فما يعجز عنه واحد من خلقه يقدر عليه آخر وكلهم مشترك فى العمل الى ان يحين الاجل

من الناس من يبالغ فى مدح وطنه ويحن اليه حنينه الى سكنه فيصف مروجه ورياضه وبروجه وحياضه ووهاده وجباله وتلاعه وتلاله وربوعه ودياره ونباته واشجاره وبقوله وثماره ودوحه واطياره وطيب هوائه ولذة مائه ويزعم ان فصوله كلها كالربيع حسنا وان جميع اقطاره تتدفق بركة ويمنا وان سهرا فيه خير من الف عام فى غيره

وان كل بلد مستغن من خيره ومحتاج الى ميره ثم زفر زفير الهائم الحيران ويصرخ صراخ الولهان الا ان حب الوطن من الايمان لقد جبت السهولة والحزون وركبت الذلول والامون وطوفت فى الامصار وجولت فى الاقطار وضربت فى مناكب الارض مستقصيا واختبرت احوال من عليها مستفتيا وسبرت اطوارهم واوطارهم وعلمت خوافيهم واسرارهم فلم اجد عيشا هنيئا الا فى بلادى ولم يرقنى شئ غير ما رايته فيها من طارئ وعادى فنعمت البلاد مثوى وطابت مقاما وماوى وانها لجديرة بان تكون مقاما للملوك وما غيابهم عنها الا من النوك فمن اين يجدون لها مثيلا ومن ذا الذى يبغى عنها حولا هى البلاد التى تغزلت بها الشعراء فقال فيها فلان ابياتا وقال فيها فلان قصيدة غراء واسمع ما قيل فى جداولها ونواعيرها وبلابلها وعصافيرها وخمائلها وازاهيرها وصروحها وقصورها ومصانعها ودورها وطباتها ومراتعها وزكائها ومواقعها وفى اريج آفاقها وبهيج انشافها ونضرة حدائقها وبهجة شقائقها بل قد ذكرت ايضا فى بعض الكتب المنزلة فى عدة مواضع مفصلة فقيل انها معدن الخير والكرم ومثوى الصالحين من الامم ومنها كان مبدأ الصنائع والعلوم فى كل معمول ومعلوم فاذا قلت له كيف جارك الادنى لعله كان لك عونا وخدنا قال ويلى انه شر جار وهو على البلاد عار وشنار فكيف جاره الذى يليه عسى انه ممن توالفه وتصافيه قال ويلى انه شر من اخيه فكيف اهل الحارة طرا قال ويلى انهم كانوا كلهم على شرا ولم اجد منهم الا ضرا فكيف اهل البلد اجمعين قال ويلى ما منهم امين ولامعين فكانهم خلقوا من ماء وطين فكيف حال الامام قال ويلى انه من الطغام اللئام فكيف شان المطران قال ويلى انه ذو هذر وهذيان فكيف الحاخام قال ويلى انه يحرم الحلال ويحلل الحرام فكيف اهل الرستاق قال ويلى انى قد اختبرتهم جميعا فلم اجد لاحد منهم من خلاق وان هم الا جهال اغبياء ينقادون لمن يامرهم من الاغنياء فانهم

عبيد الدرهم والدينار ولايبالون الا بملء بطونهم ولو من الحنار فكيف
اهل المدن والامصار قال وبلى انهم اولوا غبن وغش وتغرير واخفار ما تعامل
منهم من احد الا ويعنيك بالكمد والنكد والخسار لانهم لما كانوا متقلبين
فى امور المعاش ومنهمكين فى اتخاذ الاثاث والرياش ظنوا ان سائر الناس
همج فما عليهم فى غبنهم من حرج فكيف اهل الجبال عسى انهم ممن
صفت طويتهم وطاب منهم البال فتلك خلة قد اختصوا بها فى جميع
الازمان وسان قد عرفوا به فى كل قطر ونعم الشان قال ويلك ومن اين
لهم الصفاء وقد فطروا على الشراسة والجفاء فابتعدوا عن الآداب
فكادوا ان يحصوا مع الذئاب فان احدهم ليقتل اخاه على خبزة يسد بها
جوعه ويسلب صديقه فى اكلة ويحرمه هجوعه هذه حالة سكان البلاد
الحاضر منهم والباد فلا تكثرن من السؤال ولا يخطرن ببالك غير هذه
الحال فان قلت له ولكن كيف اشتملت بلادكم على تلك المحاسن واهلها
على هذه المساوى النواشئ قال ان اهلها الاولين كانوا من الخيرين فحرثوها
وزرعوها وعمروها وامرعوها ثم فسد الزمان فجاءت خلفاؤهم فاسدة
لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائده ولكن ما معنى فسد الزمان وهو لم يكن
صالحا قط منذ خلق الانسان والتواريخ على ذلك شاهده ونصوصها عليه
متساندة متعاضده ثم كيف فسدت الخلفاء وانت بقيت من بينهم
صالحا ترى كل من سواك طالحا ولو كنت من الصالحين لما رايت فى غيرك
خلقا يشين فانما ينظر فى عيوب الناس من كان اسوأ منهم حالا ومن يك
ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا كذا قال الشاعر الحكيم فما انت
فى طعنك على جنسك الا مليم وان امرءا يحسب جميع اهل بلاده دونه
لجدير بان يشيعوا مفتونه ويذيعوا جنونه ويجتنبوا محضره ويتنكبوا منظره
فياللعجب ممن يمدح وطنه ليرجع المدح الى نفسه مع ذم قومه وجنسه
وممن لا يعجبه شى مما يقال الا اذا كانت ذاته وصفاته محورا للمقال ومع
ذلك فانه يقول حب الوطن من الايمان وهو لاهله شانئ ويذكر عيوبهم

سكران وعن عيوب نفسه وسنان هكذا حالة اكثر الناس في هذا الزمان وهذه محبتهم للاوطان وهي محبة كاذبة ودعوى عائبه ومنهم من يغار على وطنه ويجتهد في نفع سكنته واذا ذكر من قصور اهل بلاده شيا فانما هو لتنبيههم لا لتشويههم ولحثهم على الوصول الى الكمال لا للتنديد بهم لدى الاجيال ولكي يحملهم على عظائم المساعي لا لان يقوم بالنعي على افعالهم مقام الناعب الناعي فتراه كلما سنحت فرصة لنفعهم انتهزها او لبانة لخيرهم نجزها فمثله كمثل المربي الشفيق والمتعهد الرفيق الذي يحزن لحزن من يتعهده ويفرح لفرحه ولا يطيب له عيش الا اذا رآه مثله في غبطته وسرحه لاجرم ان العيش لا يطيب الا اذا كان لكل واحد من رغده حظ ونصيب فاما اذا اختص الانسان بنعمه وراى غيره في كرب وغمه فلن يهنئه ورود مشربها والتمتع بها وقولنا الانسان المراد به من كملت انسانيته وصفت سريرته ونيته فهو يرى سعادة جاره داعية لبلوغ اوطاره وتشييد داره لا من كان ذا عينين ولسان يطعن بلسانه طعن السنان وينظر بعينيه معايب الاقران فشتان ما بينهما ثم شتان فقد عرفت ان بعض الناس يمدح ولا غيرة له وبعضهم يغار ولا يمدح وان هذا لهو الاصلح الا قل لمن يطرى نفسه ويزكيها ان انت بهذه التزكية الا مذكيها وان ما خفي عليك من شينها اكثر مما ظهر لك من زينها وانك كما تدين تدان وكما تهين تهان فان كان قد استحوذ عليك الغفول لعلمك رفع الفاعل ونصب المفعول واستهواك الغرور لمعرفتك بون جور فاعلم انك ما علمت سيا الا ما علمت ولا فهمت معنى الا ما فهمت فبم تفتخر ومن الذي تحقر ولم لا تعتبر فتنزجر وفيك يدخل الطاهر فيستحيل نجسا ولست ترى الا مفترا ما اشرا او جزعا مبتئسا فاقل الحياء وليكن عرفانك بقدرك اول ما تعرفه من الاشياء ان الله عليك رقيب ولا يخفى عليه مغيب

من الناس من يولد في النعمة اى ينشأ وحوله من يخف اليه بالخدمة

ويكسبه كل ما يشتهيه من مأكول ومشروب وملبوس ومركوب واذا نظر رأى كل شيء انيق واذا استمع لم يسمع الا ما يليق فتمتلىء عينه من اماني النفس ومطامع الحدس وتجالسه الاكابر فيطربه خطابهم وتقصده الاماجد فتعجبه آدابهم فاذا دام على هذه الحال جد في التفرد بحسن الخلال وكرم الفعال والوصول الى درجة الكمال واذا زاد عزا واقبالا زاد شأنا وجلالا فلا يكون صلفا مغراما ولا شرسا متياما ولا لهجا بذكرها لديه ولا فخورا بما حصل عليه ووصل اليه حتى يستوى عنده الكثير والقليل والحقير والجليل وهي الحالة المستفادة من التلفسف الحاضة على التقنع والتعفف فاذا حط الدهر مرتبته وخفض منزلته كما هو شأنه في دورته وتقلبه وثورته وتغلبه صبر على الغير وشكر على القدر وتذكر انه احرز من رغد العيش نصيبا وافرا فاذا غبر قرب غابر يعود غابرا فاذا لم يعد اليه ما فقده اكتفى بما عنده من المحامد وهي عند اللبيب خير جده فهي التي لا يعتريها نقصان ولا يتطرق اليها عدوان الزمان وهي ذخر للدخر وفخر للمفتخر فكلما خاض الناس في ذكر المآثر وعددوا المناقب والمفاخر افتتحوا الذكر باسمه واطنبوا في مدح يذمه وتأسفوا على تقلص ظله من رفع الى خفض وتغير حاله من وفر الى برض ورجوا له العود الى شأنه الاول وتفاءلوا له بالخير بكل ما وقع وحصل حتى كأنهم مشاركون له في احواله او انهم من بعض عياله ولا يخفى ان اقبال الناس على من دهاه الزمان سلوان واى سلوان وان بقاء الحمد والثناء عليه تسلية له عما شمله من المصائب وتطييب لنفسه مما اعضله من النوائب اذ الانسان مادام عائشا بين الناس وله بهم اتصال لن يستغني عن ايناسهم له ولو بالمقال وكثيرا ما تغني فوائد اللسان عن فرائد الجمان وقلائد العقيان فأما من لم يبال بما يقال فيه ولا يكترث لذم ذاميه ومدح مادحيه فعليه ان يعتزلهم ويعيش في قنن الجبال وحينئذ فما عليه من القيل والقال والا فانه يستهدف لالسنة حادة صاردة بارة تصيب منه المحز وتبلغ منه مبلغ

البز ولقد راينا كثيرا ممن ذهبت عنهم السعادة والجسد لم يذهب عنهم الفضل والجد ولم يبرحوا قدوة للناس فى افعالهم وكالمثل السائر فى كلامهم وكالهم والى هذا المعنى اشار الشاعر وهو قول حكيم ماهر ان الامير هو الذى يغدو اميرا يوم عزله * ان نال سلطان الولاية لم يزل سلطان فضله * جير ان من كان فى السيادة اصيلا ليس كمن كان فيها دخيلا وانك اذا توسمت طلعته وتفرست فى احواله لحت الرئاسة من خلال افعاله واقواله فتلك خلة ترافقه وصفة لاتفارقه ومنهم من يولد فى البوس والشقآء وينشأ فى الخمول والضعة والخفآء فان ساعده الدهر على تبديل هذه الحاله بحالة هى فوق السفاله ودون النباله فاحرز من الدنيا بعض حطامها وجالس بعض كرامها فرح وبطر وتاه واشر وظن انه ارفع الناس قدرا واجلهم شانا وذكرا فقال انا الذى تتودد اليه الامرآء وتهاب مقامه الكبرآء فلو شئت لنفيت من البلد كل من عادانى وحرمت الرزق كل من جافانى وانا منار العلم ومداره ومرجع الفضل ومحاره ومعدن الفضائل ومحتدها ومصدر الآداب وموردها وقبلة المعالى ومقصدها قد ذاع صيتى كالمسك نشرا وتارج عبير مدحى فلأ الارض قطرا قطرا وان كنت لم اصل بعد الى درجة الوزرآء فانما هو لعفة منى تابى الا السرآء فان الوزارة تعب والامارة نصب اوليس ان الناس جميعا يقولون انك امامنا ونعم الامام ولا نطيق بعدك يوما من الايام لاجرم انهم لايستغنون عنى ولا يسمعون الا منى وهذا ساءنى فى كل بلد سكنته وقطر استوطنته فمن ودعتهم فهم الخاسرون ومن سلمت عليهم فهم الظافرون واذا خلع عليه احد الكرمآء جبة او فروا جاب الناس وتاه عليهم زهوا فظن انه الكاسى وكل الناس عراه وانه المنعم على من انعم عليه سوآء بلباسه وقراه اذ يزعم ان مجرد ذكره لانسان احسان له وامتنان وان جحد صنيعه وكتم دسيعه وما درى ان الكفر مخبثة لنفس المنعم وانه اذا التهم طعام غيره لم يقل فيه الا انه شر ملتهم واجشع ملتقم واشنع

من نهم كذلك شان من هو حديث النعمة ونقيذ البوس فانه ينيه على الجلوس ويبدههم من القول بما تشمئز منه النفوس فلا تراه الا فخورا متمدحا وجسورا مبجحا وعفورا موذيا وزنبورا مدميا لا ينكر منعما ولا يحمد مكرما لاعتقاده ان اكرامه ضربة لازب وفرض واجب فويلي على حديث النعمة القديم الهمه الفاسد الشيمة الساقط المروءة والهمه الذى لايرى لاحد حرمة ولا ذمه واهون شي عليه نقض العهود وصرم الودود ونسيان المعروف وهجران الالوف وما ذلك الا لانه اخصب بعد المحل ورطب بعد اذ هو قحل فيا حسرة على من يغتر بالدنيا الغرور وهو يراها فى كل يوم بالاحرار تدور وعلى الاخيار تجور ولو دامت لاحد لم تصل الينا ولو استقامت فى سيرها لما عاجت علينا فلا يركن اليها الا الغافلون ولا يحرص عليها الا الجاهلون

من الناس من يكلف بعلم واحد او فن واحد اوصنعة واحدة فيقتصر عليها ويشتغل بها طول عمره فلابد من ان يفوق بها على اقرانه ويصير بها علما مشهورا حتى انه لوقصر فيها مرة اواخل بها من وجه من الوجوه لوجد من يعتذر عنه ويغضى عن قصوره فيجوز على الناس ما اخل به كما جاز عليهم ما احكمه على حد سوى لانهم قد الفوا منه الاحسان والاتقان وهذا على حد قولهم من عرف بالصدق جاز كذبه ومنهم من يلتقف من كل علم نتفة ولايتمكن من شي من الفنون فترى عنده مشاركة فيها بحيث لاتوهله للامامة ولاباس بكلا النوعين وانما الباس فى الاعجاب بهما والتوصل بهما الى الدعوى والمطاولة فان من يقتصر على فن واحد اذا غلب عليه العجب به اخذ فى احتقار سائر العلوم فيرى انها فضول بالنسبة الى فنه وصاحب الفنون المتعددة متى جالس احدا وعرف انه من المقتصرين على فن واحد باغته فى الفنون التى يجهلها يريد بذلك تفضيل نفسه عليه ونسبة الجهل والعجز الى جليسه

وكثيرا ماتؤدى هذه الحالة المعجب بنفسه فى انواع شتى من الفنون الى انه يتوق الى معرفة الصنائع ايضا لانه يزعم ان تحصيله لمبادى الصنائع اهون عليه من تحصيله لمبادى الفنون فترى عنده آلات النجارة والحدادة والصياغة فاذا ساله زائره ماذا اردت بهذه الآلات قال انى اوتيت من كل شئ علما ثم تتوق نفسه ايضا الى شرآء اشياء كثيرة من قبيل الاثاث والفرش فكلما زاره احد اخذ يصف له خاصيتها واحوالها ويبين المواضع التى صنعت فيه والرجال الذين اخترعوها حتى يقال انه خبير باحوالها فضلا عن كونه قادرا على شرآئها فاذا خرج من داره ولقى بعض معارفه افرد له بالذكر متاعا واحدا من تلك الامتعة واخذ فى اطنابه بان يقول مثلا قد ملكت بساطا لم يملك نظيره احد غيرى ثم يلاقى آخر فيقول له ان فى دارى حقنة لم تصنع الافرنج لها مثيلا وهلم جرا الى ان يعدد جميع ماعنده من البتات فان لم يجد فى الطرق من السامعين قدرما عنده منها قصد الناس فى منازلهم واتم عليهم ذكر الباقى فاذا انتهى من الافتخار باثاثه رجع الى الافتخار والتمدح بفتوته وخصاله وسيرته فى الناس واطرآء الناس عليه فيقول انى فى اليوم الفلانى من الشهر الفلانى اجبت عن مسالة فى النحو وبعد هذا التاريخ بشهر اجبت عن مسألة فى الصرف وفى يوم كذا من شهر كذا زرت فلانا فجاءنى بخوان الطعام على راسه وفى ليلة كذا زارنى فلان مساء بغتة فقدمت بين يديه عشرة الوان من الطعام فلما كان اليوم القابل خرجت الى السوق واذا بالناس يضربون المثل بتلك الالوان والامرآء يرتاحون الى لقاءى ويهنئون لقدومى والحكام لاتفصل امرا دون مشاورتى والتجار يأتمنونى على جميع اموالهم ويود احدهم لواشترى منه شيا ولونسيئة وان اهل البلدة لايستغنون عن وجودى مابينهم حتى انهم لما بلغهم ذات مرة انى مفارقهم اقبلوا الى جميعا وحكمونى فى اموالهم وذلك من فضل ربى فانه حببنى الى الناس اجمعين وجعل قلوبهم فى قبضة يدى وهو الذى يرزقنى بغير حساب ويهدينى

الى طريق الصواب فلم اعلم من نفسى انى ضللت يوما عن محجة النجاح ولم ابت ليلة الا وانا موقن باليسر والفرج عند الصباح وكل مايسمعه من كلام الناس فى غير مدح نفسه فهو عنده سدى وكل مايجده مسطورا فى الكتب على غير هواه فهو باطل فاذا كان المتمدح بنفسه على هذه الصفة مضطلعا بجميع العلوم والفنون وخبيرا بسائر الصنائع والحرف فهل يطيق احد معاشرته وهل تغنى عنه فنونه فى ادب المجالس شيا مع انهم شبهوا العالم بالغصن المثمر فكلما زاد علما زاد تواضعا وانما يحرص على التمدح الجاهل الذى لايشعر بقصور نفسه وعيب كينته فتسول له الغواية والضلال ان جميع مساويه محاسن ومحاسن غيره مساوى واذا سمعته يمدح احدا على شى فانما يكون المدح راجعا الى نفسه لانه مبنى على ان ذلك الممدوح قد اجله واكرمه او وصله ببعض دراهم فهذه صفة العالم المعجب بنفسه سوآء كان علمه مقصورا على فن واحد او فنون متعددة فخير منه الجاهل المتواضع والغر الموادع والله يهدى من يشاء *

انى كثيرا مافكرت فى فن البديع الذى هو من بعض الادلة على فضل اللغة العربية على سائر اللغات فاحببت هذه المرة ان انشئ مقالة برمتها من نوع الترصيع ومثاله فى الكتاب العزيز ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم فها انا ادعو جميع من على وجه الارض من الافرنج لمعارضة هذه المقالة وهى

من الناس من تختلج فكره من فنون الاقتراح خوالج وتلعج صدره من شجون الاجتراح لواعج وتزجه المآرب الى اقصى المرامى وترجه المطالب الى اعصى الموامى وتستفزه وتستهويه وتستبزه وتستغويه لكنه يفتح لها صبره ويشرح صدره ويجتنب منها بوارح الغصص ويرتقب لها سوانح الفرص ويتعين انجساعها ويتبين انتفاعها ويخبر مشروعها ويسبر موضوعها فلايغيها الا حذرا ولا يأتيها الا ظفرا ويرى ان الانتظار

احسن معين على تحصيل الامل والاصطبار اعون قرين لتسهيل العمل ورب عجل اهب الاجل ولايخلو ابتسار من انهيار ولا تخلو اوطار مع اخطار ولا يعلو منار فى مغار واذا دانت نيه اوهانت ثنيه اوحانت امنيه لمن غادر التبصر وبادر التهور فطال طلبا ونال اربا فانما يكون من قل النوادر ولا يهون لكل مخاطر فالاديب الحازم من تانى فيما نى والاريب العالم من لايبتغى الا لمسابه يتقى اذليس الاستكثار مظنة للرفاهة ولا الاستهتار مشنة للنباهه ومن تبصر فى العواقب وتدبر فى النوائب ايقن ان الرزق قدر على مقدار لا يتعداه والرفق حصر فى مضمار لن يتخطاه فلا وفور التردد يكوره ولا تدور التعهد يحوره ولا ملازمة الارق تجلبه ولامداومة النفق توجله ولاشى من الاشياء يفقده ولاحى من الاحياء يوجده جبر ان الرزق محدود كما ان الحق موجود والخلق معدود الا انه من الراتب المتبين اداؤه والواجب المتعين قضاؤه على من اتصف بالسداد واعتكف على الرشاد وكلف بالحلال وانف من الحرام وعزف عن الجدال ووزف الى السلام وصان وجهه عن الابتذال وزان كنهه بالاعتدال ان يكد قاصدا ويجد راشدا كيلا يكون كلا على غيره اوعلا لميره فيقلى لقاؤه ويتلى هجاؤه وتنشأ لهجته وتبذأ بهجته وتبدو محاسنه مساوى وتعدو ميامنه مغاوى وحينئذ فا جاء من اثر عاد عليه وبالا وما شاء من وطر فاد لديه تبالا ومنهم من اذا طلب بغيه اوخطب منيه امهرها عرضا مباحا واصدرها عرضا متاحا واعد لها صدغا لاتحمل فيه المعاول واجد لها نزغا لاترسل عليه المقاول بين اقبال وادبار وابطال واصرار فكر وهر وعر وغر وبربر وثرثر وصرصر وقرقر همزة لمزه نمزة نغزه زمة نشبه حطمة نقبه ملخ ملحف بجبج مجحف لا يمسك به كلام ولا يحيك فيه ملام ولا تقمعه المقامع ولا تردعه الروادع وما من جابه يحمله على الهيبه ولامن ناجه ينقله الى الخيبه فلا يزال يغدو ويروح وينذو ويبوح ويندو ويتوح حتى يعتصر ما ربه ويهتصر مطلبه فهذا فى عصرنا

يعرف بالحول الساهر ويوصف بالمزيل الظافر بل الاول الآخر اذ العمدة في حوز ما قام بالنفس والعهدة في فوز ما حام على الحدس كيفما كان من وسائل الانتجاع وهان من وصائل الانتفاع ذلك داب اولى الجشع وطب ذوى الطمع فلا يانفون من سؤال ولا يصدفون عن محال ولا يصرفون عن محال ومالهم بالعواقب من مبالاه ولا في المناقب من مغالاه سوآء جاروا عن الام او حاروا في الذم او لبسوا الفضائح او قسوا في القبائح حتى اذا هنأهم الادام ومرأهم المدام سخروا ممن تولهم بطرا ونفروا عمن خواهم اشرا ونسبوا بذله الى الاضطرار وحسبوا فضله من الاغترار وهو كفران مبين وخسران مهين ومنهم من يقر على الكسل ويفر من العمل ويقول ان الله جل سلطانه وهل احسانه خالق الاسباب ورازق العتاب فهو يرزقني بغير حساب ويرمقني من ضير الذهاب والاياب اذا ازمت معاني فهو يغنيني وان اقت اناتي لايعنيني فجدى ان ابتهل اليه داعيا وجدى ان اتكل عليه راجيا فلا اجرى ولا اسعى ولا اسرى ولا اشقى واذا كان قد تميز على امثاله برسم من العلم وتحيز عن اشكاله بوسم من الفهم راد في سرفه وزاد في صلفه فصادرهم بمؤونته وناظرهم على معونته اعتمادا على فضائله واستنادا الى شمائله وانه اكرم منهم وافضل واعلم وامثل واحلم واكمل وهذه محنة اخرى ومهنة خسرى بل فتنة كبرى لا جرم ان الله هو الخلاق العليم والرزاق الكريم وانه قدر كل سبب فاحسن تقديره ويسر كل طلب فاتقن تيسيره وانه يلهم خلقه صنيع النعم ويفهم رفقه على جميع الامم وان منهم الحاكم والمحكوم والخادم والمخدوم والقاصد والمقصود والحامد والمحمود والجادى والمستجدى والهادى والمستهدى الا ان الاليق بمن صفت سجيته ووفت مروءته وزكا اصله وذكا نبله ان لا يكون وكلا عاجزا وفشلا ماشزا متناوما عن المعالي متناعما بالليالي متوددا الى المانح والمانع مترددا في البارح والسانح اسير الوساوس حسير الهواجس اليف الظنون

حليف الشجون قرين الاوهام خدين الاحلام فان ذلك من عوائق النجاح ومغالق الفلاح وان ذا الاحسان من هذا وعى ان ليس للانسان الا ما سعى

من عاشر الناس وقام فيهم مقاما مشهورا وحل منهم محلا مذكورا وجب عليه ان لا يقول لهم الا الحق وان كان فى ذلك العبء الاشق فان الحق ثقيل بالطبع على سامعه وقائله وراويه وناقله وما تكاد تجد واحدا من الف من الناس يرتاح اليه او يعوج عليه فقد الف الخلق منذ القديم التلهى بالاكاذيب فلم يبق لهم من دونها خلاق من الصدق ولا نصيب ومعلوم ان ما جاء مخالفا الطبع تتمزز منه النفس وينبو عنه السمع ولست اعنى باصحاب هذا المقام المشهور من قلد امور الجمهور من اصحاب السيادة والرئاسه والحكومة والسياسه فان براعة هولاء انما هى فى كتم ما فى ضميرهم واخفاء الظاهر من امورهم على ما يقتضيه منصبهم ويوجبه مآربهم وانما اعنى الوعاظ والخطباء والمولفين وكتاب صحف الانباء فهولاء مكلفون من قبل البارى تعالى الذى فاض عليهم فضله وتوالى بما آتاهم من الحكمة وفصل الخطاب واهلهم للاطلاع على الحقائق من دون حجاب بان يبلغوا الناس اجمعين كلام الحق المبين فان سمعوه فقد نالوا اربهم الى قصواه وان تولوا عنه فاجرهم على الله ويبقى ما قالوه وما كتبوه شاهدا لهم فوها على انهم ادوا الامانة حق موداها ولاغرابة فى ان من اخلدوا الى اللذات وتشاغلوا بالترهات يعرضون عن سماع انذارهم ويظلون عاكفين على اوطارهم وانما الغرابة فى ان ينكر كلامهم من قام مقامهم ورام مرامهم وهو كشف نقاب الغواية عن افهام الناس واطلاعهم على الحقائق من دون التباس وقد كان ينبغى لهم ان يكونوا جميعا كالعازفين بالآت الطرب فانهم يتواطأون مع اختلاف آلاتهم على ضرب واحد ونغمة واحدة

وبذلك تمام الارب فاذا راى رئيسهم من احدهم خروجا نبهه الى المتابعه وارشده الى المواضعه والا حكم عليه بالجهل او العصيان واخرجه من زمرة ذوى الالحان ولكن من عساه يكون رئيس هؤلاء الكتاب الذين يهدون الناس الى الصواب او زعيم اصحاب الخطب الذين يامرون باتباع ما وجب وينهون عن مجاوزة حد الادب وكيف السبيل الى ابلاغ الحق وارضاء الخلق ام هل يجب السكوت فى مثل هذه الحال والاغضاء عن فشو الضلال وهل يظن من فعل هذا وانفرد عن الناس فى قنة جبل انه يسلم من العذل (جمع عاذل) ولايقيض له من عين الجاد ما يكون له ضدا من شر الاضداد وحينئذ فما احد يسمع شكواه ولايرثى لما دهاه مع انه لابد فى المحنة من بث الدعوى ونث الشكوى ولولم يعقب ذلك سوى اظهار التوجع واستعار التفجع لوفى وكفى فلابد للانسان من صديق يشكو اليه وحميم يعتمد عليه ولهذا يحرص على ان يكون له اهل وذرية واخوان فانهم فى المحنة خير سلوان ثم افكر واقول ان من كثرت اخدانه كثرت اشجانه وان مخالطة الناس توجب البوس والباس فان الماء الصافى المورد متى كثرت عليه الوراد تكدر والثمرة الناضجة متى لمستها الايدى الكثيرة فاتاها المذر وقد قالوا ان السلامة فى الوحده والمخالطة مفسدة للصفاء اى مفسده ولقد طالما فكرت فى امر النساك والزهاد والرهبان واعتقدت انهم اغبط نوع الانسان لانهم قطعوا علائقهم من الدنيا وتركوا همومها لذى القينة والقنوة وعاشوا عيشة اهنأ وارضى فليس لهم هم فى المكاثرة والمنافسة والمفاخرة فكل ما اتاهم من رزق شكروا عليه وما يأتيهم الا ما تحتاج النفس اليه ثم افكر واقول انه حيثما اجتمع بشران اتفق شران وانه لا يمكن لاحد من هؤلاء ان يعيش منفردا وحده او يلزم حالة حرده فعيشتهم اذا نكده وصفتهم صفة الحيوانات المتابده وقد فاتهم الاجر العميم والثواب الجسيم فى ارشاد الناس الى الصراط المستقيم وفى تعريفهم المعوج من القويم وتلك لذة لا يدريها الا من

مارسها وضبطة لايقدرها الا من لابسها ثم اعود وافكر ان الخلق اعداء الحق فلا يسمعون النصيحه ولا يقلعون عن الفضيحه فلا فرق عندهم بين من ضرهم ونفعهم ووضعهم ورفعهم وانما يحبون التملق الكاذب والاطراء على المسايب وتحسين القبيح وتنويه المايح واذا قلت لهم ياقوم ما كان لكم ان تخوضوا في هذا الحديث وتتبدلوا الطيب بالخبيث فقد وردت به النواهي وقد خاض به اناس من قبلكم فنوا بالدواهي ولاتاتوا ذلك الامر فان موارده وخيمه ومصادره غير سليمه قالوا اجئتنا اليوم لتجعلنا من المجاوات فما نراك الا ذا هنات فانت واحد ونحن بجماعه فاى سلطة لك علينا واى استطاعه افانت وحدك على الهدى ونحن جميعا سدى فان لم ترجع عن الفتن لنبلونك بالمحن ان هى الا بدعه وان انت الا نجعه فما ظنك بهذا الجواب لمن تحرى لقومه وجه الصواب وظن انهم يشكرون له صنيعه ويحسبون نصيحته صنيعه فياليت شعرى اى الخطتين اولى واى العدالين من العدل اولى ايعتزل الناس طرا ويعيش في البرارى والجبال حرا ويتخذ له من اهل الشنفرى اهلا وينسى ما وجب عليه من وظيفة الارشاد فرعا واصلا ام يظل بين قومه هدفا للملام وطبيبا لاسقام الافهام فما احد منهم على سعى يشكره او على هفوة يعذره بيد انى اعلم امرا واحدا واياه اتحرى عامدا وهو ان الله لايضيع اجر المحسنين وانه تعالى قال فاصدع بالحق والمراد في كل حين وانه قدما منى المرشدون بالتكذيب ورموا بالمعيب لكن البارى تعالى قيض من برأهم ولو بعد مماتهم واظهر صدق كلامهم وصالح اعمالهم ونياتهم فاصبح الساعون يستنيرون بهديهم وسننهم ويسلكون على سننهم وامتلات الصحف من اقوالهم ولهجت بحميد افعالهم لا جرم ان من يغرس في ارض شجره لايترقب ان يجنى منها في الحال ثمره وما جدير بمن قرا ودرى وقدر الامور وبرى ان يكف عن البلاغ اذا علم ان ليس له عند سامعه مساغ فرب كلمه اثمرت نعمه ورب محنة انقلبت منحه وضنك

عاد تدحه فما يغلب الايام الا من صبر وما يستوجب النعم الا من شكر وعلى هذا وطنت نفسي واسكنت حدسي عالما ان رضى المتعنت صعب وان لزوم جانب الحق لا يضيره ثلب فاما من آثر رضى المخلوق على رضى الخالق وظن ان التفاشق تغلب الحقائق فانه لا يلبث ان يرمى به من حالق فيقال له يومئذ لقد اوقعت نفسك وغيرك ايضا فى الغرور وعيت عن القول المأثور فها ان من حالفك على الضلال صار لك خصما يرميك بالاضلال ويقول ان تظاهرك بالمحاماة عن زيد وعمرو لم يكن الا عن غش وختر ومداهنة ومكر وان مدحك من لا يستحق المدح لم يكن فى الحقيقة سوى عين الذم والقدح فابتدر لاصلاح ما افسدت واعتذر الى من اضللتهم الى ما اردت فما عساه ان يجيب به ويدفع عن حسبه الا ان يقول ان متاع الدنيا انساني حساب الآخرة وما هذه الحال من الاحوال النادرة فيا ويح من اضله هواه عن اتباع الرشد وظن ان لن يقدر عليه احد وقد رأى بعينه ما صارت اليه الغواة من قبله وما حاق بالضليل من سوء فعله وخطل قوله وخطأ رايه وخطر جهله ولكن كيف يدعى لاتباع الهدى من طمس الله على قلبه وبصره فلم يبصر قصدا ولم يذكر امدا ولاحدا ومن زعم المواربة اربا والرئاء طلبا فحسب قائل الحق ان يبقى كلامه لمن بعده حجة ودليلا ودستورا يرجع اليه فى ملمات الامور جيلا فجيلا فيذكرون اسمه بالرحمة ويسمون ذكره كانه لهم للمكرمات سمة وحسب قائل الزور اذا كبا به جده وافل سعده ان يقال له فضح الله حاله وما قاله وكفى الناس اضلاله فهو ذا قد جزى بعمله وخاب من امله ومهما يكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

من تبصر الامور وتدبر المقدور وتقلب فى حالات الدنيا وذاق منها البؤسى والنعمى وراقب الناس فى معاملتهم وتصرفهم وتفرقهم وتالفهم

ومقاصدهم ومساعيهم وظواهرهم وخوافيهم ونفعهم وضرهم وخيرهم وشرهم تاه عن الصواب وراه في الارتياب ومد عسلى فهمه حجاب فانك ترى الانسان من وجه خلقا شريفا ونوعا لطيفا لابل قيل انه اشرف المخلوقات واكمل المبروات لكونه عاقلا بصيرا سميعا خبيرا قادرا على اعمال حواسه واعضائه وبها يدنى ككل اريب لحوبائه ويستخرج من السماوات والارضين ماخفى عمله وعن رومه ويسخر جميع الحيوانات لمآربه المخترعه ويصور الجماد على اشكال مختلفة مبتدعه واذا شاء جعل البر بحرا والبحر برا والحر عبدا والعبد حرا والبرد حرا والحر قرا والظلام نورا والمغمور معمورا والحزن سهلا والبور حقلا والوعر نجاماسلوكا والفعل ملكا مملوكا والسم دواء والسقم شفاء والزعاق فراتا والارق سباتا والبعيد دانيا والمريد عانيا وبالجملة فان كل شي في الوجود كانه لخدمته موجود وعلى ارادته مرصود ومن جهة اخرى تراه عتلا زنيما شريرا لئيما مريدا عنيدا حسودا حقودا شرساكسا ضبسا طفسا قذرا مذرا ذعرا دغرا يفكر في السوء على جاره الخدين ويخاصمه على شفرة سكين فاذا تمكن منها نحره بها نحرا وعاد وهو يجر عطفيه تيها وفخرا ويحسب انه قد احرز بذلك ذكرا وتراه غير قانع بالكفاف ولا راجع عن الحاف ولا مقلع عن هوى ولاسالك طريقا سوى ولايزال ينكت في الارض حتى يجد له سببا للخصام وذريعة للانتقام فيقول لقد شهد لي شاهد من الارض مقنع مسجل عادل معدل على انى المحق وغيرى المبطل فانى لى خلقت هذه المرئيات وبى اختصت فوائد المخلوقات فما كان لاحد ان يشاركنى في منافعها او يسابقنى الى مطامعها فهذا الانسان الذى هو مصدر التمدن ومورد التفنن يفعل مالا تفعله الضبع في وجارها اذ يريد ان ينتقف الدنيا الى اصبارها ويبتلعها بحذافيرها ولايرى لاخيه معه شركة في قليلها فضلا عن كثيرها وكثيرا ما فكرت في هذا التمدن الباطل والخلو عنه عند الاوائل فوجدت انه صار سببا للشرور والعدوان وشغل النفس بالهموم

والاشجان وباعثا على الاسراف والتبذير والعداوة والتوغير والمحاسدة والمنافسه والمعاندة والمشاكسه وتحميل النفس ما لايطاق من النفقات والتعرض للهلكات فصار من عنده غنى لايقف على حد من المنى فكل شئ تاقت نفسه اليه حام قلبه عليه وظل لسانه به لهجا وصدره به ملتهجا فلايقر له قرار ولايهدأ له عرار حتى يناله ويقصر عليه باله ثم يزهد فيه ويرغب فى حاجة اخرى يرى حوزها اولى واحرى فيزيد بها ولوعا ويسعى اليها سريعا فيصبح وهو اسير الشهوات صريع اللبانات لايصحو من التشهى ولايصحو من التلهى ولاينهض لمكرمة ولا يبالى بمندمة وصار من دونه درجة يحرص على ان يكون مثله ويفعل فعله فتراه يتهور فى المهالك وينشب فى المرابك ويرد الغذمرة والصلف ويتهافت على الخطر والتلف حتى يعد من المثرين المكثرين ويحسب فى جملة الموسرين اذيرى القناعة دون مقامه الاعلى ولايتصف بها الا من كان وغلا نذلا اما الغنى فلا ريب فى انه نعمة من الله تعالى بحيث يكتسب حلالا لا بالقمار والاحتكار ولا بالمخادعة والمصانعة ولابالنميمة والجريمة ولا بالظلم والعسف ولابالخلس والخطف بل بالسعى والكد والاجتهاد والجد فانه نعم العون على اعانة المعتر واغاثة المضطر وجبر الكسير وانعاش الفقير وعلى اداء المساعى الجليلة واسداء الخيرات الجزيلة ولكن هيهات فانك لاتكاد ترى غنيا الا وقد جمح فى السرف وجنح الى الصلف فيرى ان جميع الخلق دونه وانهم محتاجون منه الى المؤنة والمعونه فيترفع عنهم قدرا ويتيه عليهم كبرا وقد فاته ان حاجته الى الفقير اشد من حاجة الفقير اليه وانه لو ترك وغناه لما نفعه شئ مما بين يديه اذ لولا الحارث والزارع لهلك جوعا ولم تنج نائحة عليه ولولا الخياط والتاجر لما لبس خزا ولا ديباجا ولولا الاسكاف لما سلك منهاجا ولولا الفعلة لما تبوأ دارا فيحاء ولولا غارس الكرم لما شرب الصهباء فما فضل الغنى على الفقير وما بون الكثير على اليسير والمرء يكفيه فى الدنيا القوت الزهيد والثوب الكسيد

بل المقلون اصح ابدانا من المكثرين واطول اعمارا ولهم طاقة على تحمل المشاق لاتبارى ويهنئهم الرقود اكثر مما يهنئ البطن المجدود والرغيب المعمود كانما هو على فراشه زق منفوخ اوبو مسلوخ يتقلب يمنة ويسره وينفخ عليه كأن في احشائه جمره حتى اذا اصبح دعا بالطبيب وخاف شر ذلك اليوم العصيب فافصدوه وسندوه ودلكوه ووسدوه ثم جاؤوه بماء الورد فنضحوه على جبينه ومسحوا عن خده ما سال من عرنينه وساح من ذنينه ودعواله بالسلامة والعافيه واستبشروا بان مداواتهم له كانت شافيه وعما سواها كافيه واذا بالآسي وافاه وهو آس اواه ومعه زجاجات شتى مذهبة متنوعة المياه من بين اصفر فاقع واحمر ناصع واخضر ناضر وازرق زاهر فسقاه من احداها واشمه من اشذاها حتى ايقن بزوال الباس وسرى عنه ما كان يقلقه من الوسواس اذ ظن ان تفجع به الكاس ويغادر ثروته للناس واذا بالعراف اقبل ومعه صحف استاجرها من عند الصحاف ففتح احداها وقرأ اسطرا من اعلاها وقال له ابشر بالسعد والاقبال وغبطة الحال مع العمر الطويل والسودد على كل جيل فما كان الله ليحرم هذا الكون من وجودك وامثالي من كرمك وجودك واذا بالمطربين وافوه بالعزف والتلحين فاطربوه وحبروه وهنأوه وبشروه ثم قام ونظر وجهه في المرآة وقال انه بعينه ماعلاه شي مما شان وشاه تلك ثمرة الغنى والايسار ولو عرا ما عراني ذا اعسار لخلت منه الدار فويلي على الرجال المتأنثين وويلي على هذا التمدن في هذه الاحايين فقد كاد يسقط المروة والفتوه ويطوي الهمم تحت الارائك المحشوه فاصبح كل مشتغلا بنعيمه حتى قيل ان همته في اديمه ومن العجب ان هولاء المترفين مع اعتقادهم ان سلامتهم سلامة الناس اجمعين وحرصهم على صحتهم حرص البخيل على الرقين لايزالون في الالتهام منهومين وعلى اللذات متهافتين وهو مجلبة للاسقام وداعية للآلام فهلا كانوا يقتصرون على الكفاف ويلزمون العفاف اذا كانوا حراصا على سلامتهم

وعلى تعميرهم وكرامتهم لاجرم انا راينا من يومن بالاخره يحرص على ان يبقى له بين الناس ذكر حسن ومأثره وهذا الحرص هو عين الدليل على خلود النفس من دون لبس فاما من كان همه فى بطنه وعقله فى صحنه فليس له من هذا الاعتقاد نصيب وهو فى خسران وتبيب الا ان مثل الدنيا كمثل الماء الاجاج كلما شرب منه الانسان زاد ظماء او كالشجرة الشائكة كلما زاد فيها توغلا زادته ارتباكا وادماء فمن يرد ان يراها حق رؤيتها فليبعدها عن عينه والا فتدخل فيها وتمنيه بحينه فطوبى لمن تنآى عنها وتبرأ منها

من عرف الدنيا ثم ركن اليها كان من احق الحمق ومن لم يعرفها بعد ان راى تقلبها فهو اعمى حقا الم تر ان فردا من الناس قد خرب وحده مملكة قديمة كانت ثابتة الاساس وجلب على اهلها وهم ثمانية وثلثون مليونا ذلة وانكسارا وهونا بعد ان اهلك من جيوشهم مئات الوف وعرضهم لبلاء غير معهود ولاما لوف فاصبح العدو يحكم فيهم تحكما ويقترح عليهم اشياء لم تخامر خاطرا ولا وهما فيشكون وليس من يسمع شكواهم ويدعون وليس من يجيب دعواهم وقد ارملت نساؤهم ويتمت اطفالهم وتضورت شيوخهم وتعطلت اعمالهم وبارت اراضيهم ودكت صياصيهم وثلت معاقلهم وانتهكت موائلهم ونضب ايسارهم وافل اكثارهم وغلت ايديهم وخلت نواديهم وتفطرت منهم الاكباد وتقطعت بهم اسباب السداد فكانهم لم يكونوا امة متآلفة ولا دولة ذات انفة وكأن مغانيهم لم تكن محتدا للقصاد ومعالمهم لم تكن موردا للارشاد فصار من يراهم ينكرهم ويهجرهم ومن كان مشمولا بنعمتهم يكفرهم ولاينكرهم والدول تنظر اليهم نظر الشامت وتعظم قدر عدوهم وكلهم عن نصرتهم قاعد ساكت او فى لومهم صائت وقد طالما هابوا ذلك الفرد الذى سعى فى خرابهم وتوصل الى تبابهم وكانوا ياتونه زائرين ويحرصون على ان يكونوا له مجاورين

بل الملوك ايضا كانت تتنافس فى مصاحبته وتتهافت على مصادقته اذ كان بيده الحل والربط والضبث والضبط والسلم والحرب والامن والرعب وكان اذا ناجى احدا بكلمة عدها منه نعمة وافتخر بهما على الاقران واتخذها ذخرا لصروف الزمان فلم يكن فى زمنه من يعصى له امرا او يضمر عليه شرا اذ كان يقال ان الله تعالى كان حارسا له وساترا زلله فكان اذا اخطأ فى امر او قصر فيه قيل ان السياسة كانت تقتضيه واذا اعتراه النقرس فارسه الفرانى قيل ان الارض اهتزت وشمل اهلها الارتعاش وكانت حركاته وسكناته قسطاسا توزن به الاحوال واسطرلابا يوخذ عليه تقويم الحال والمآل وهو الذى كبح الصقالبة والروس فعنت له منهم الرؤس واخاف اهل الصين وانفذ فى محافل الملوك رايه الرصين وكان اذا ركب كرم واذا مشى عظم واذا عطس سمت وباحسن النعوت نعت واذا نظر شزرا ملأ القلوب ذعرا حتى اذا اطغته النعمه وظن انه وحده امه وان القدر يلبيه والسعد موقوف على شعر فيه فار راسه بالوساوس وسولت اليه نفسه ان يتلهى حينا بجز الرؤس النواخس اذ راى بعض رؤس قومه صغيرا وبعضها كبيرا وبعضها مستطيلا وبعضها مطولا فنادى بجمع الجيوس وقال انى ليعجبنى ثل العروش وحشد الجحول الجهوش الذى يضرب القرن ويشفى منه غليل الضغن ان لنا لضغائن مخبأة فى الصدور هى لذة الجسور وشفاء الصدور وان قرننا ما وراء النهر وانا نفاجئه ونقهره اى قهر ثم نرجع وفى صحبتنا العز والنصر والسعد والفخر فاذا صبغنا ماء النهر بدمه كان ذلك عبرة فى التواريخ تسطر وعلى مدى الاحقاب تذكر فمن كان منكم متحمسا متوعدا او متهوسا معربدا فموعده غدا فانى ارى بطالتكم عارا واخلادكم الى الراحة سنارا فان من شرط من تقلد الحسام ان يكون ضاربا به على الدوام ولا يغمده عن احد من الانام فهذا وقت الانتقام وكسب الثنا من الخاص والعام انظروا الى والى ابنى المترعرع فكلنا بالحرب ولع والى النزال

منترع فقالوا يعيش مولانا المحارب انا معك نحارب ونضارب وانا بسعدك نقهر المخاصم والمشاغب وان هو الا اسبوع ثم نعود الى اوطاننا فائزين غانمين فتتسع لنا الربوع ويهنئنا الهجوع ويصفو لنا الروع فزحفوا متكتبين وبالسلاح متلبين وجالوا جولة واحده وشدوا شدة جاهده واذا بالعدو انبعث عليهم كالسيل الهسامر وفاجأهم كالاسد الزائر اذ كان قد استعد لهم حين كانوا يرقصون فى المغانى ويمرحون مع الغوانى وكان اكثر منهم ضعفين فقابل كل صف منهم بصفين فابلوا جهدهم وتذكروا رسدهم فراوا ان الرجوع اولى وان للعدو عليهم صولا وطولا ويا له من رجوع قرن بالفشل وبخيبة الامل ويا لها من خطة مكنت المعقب لهم من بلادهم اى تمكين فدخلها وتبوأها وسدد وطأته عليها فكانما هى تحت قدمه جرين وكان حصونها وقلاعها كانت مبنية من ماء وطين فما ترك حصنا الا وفتحه ولاسترا الا وفضحه ثم صادرهم بالاموال وكاثرهم بالسلاح والرجال حالا بعد حال اما اميرهم ذاك الغضنفر فانه كان قد حصر فى واقعة منه بالفشل والخور فغاب فيها رشده وبطل جهده فلم يسعه الا الاستسلام فاخذ اسيرا وصار امره عبرة للانام وتبعه من قومه العذل والملام فقالوا انه هو الذى اضلهم واوقعهم فيما اذلهم ففقدوا بسببه اكثر من تسعمائة الف اسير صاغر ومن ستة آلاف مدفع داسر ومن مئات الوف من البنادق والسيوف البواتر ومما لايحصى قدره من المهمات والذخائر ماعدا القتلى الجرحى وما حرق من المدن والقرى بغيا وبرحا حتى قيل ان العدو كان اذا احرق دارا قفل بابها على ساكنيها حتى لايستطيعوا فرارا فكم من نساء واطفال هلكت فى هذه الحال ولم يعلم احد بخبرهم ولم يشعر باثرهم الا وكم من عزيز اذل ومصون اذيل ومستور فضح وبرى منى بالتنكيل وكم من مخدرات ابتذل ماء وجوههن الناضره وكم من دموع اسال كانما هى امطار هامره فيا من راى امة فخمه ذات ودرا ... ضـ ... ا سيدة صارت بلقعا وكانت

فرسان لاقت باجمعها من الحمام مصرعا وجيوشا جرارة عنت باسرها خضعا وكبت ولم يقل لها احد لعا ماذا ترجى بعد من الزمان وكيف تأمن من غوائل الحدثان واني للدول الوضيعة الشان ان تستبد بامرها وتتمتع بحقوقها التى ورثتها مذ ازمان فان الحقوق الآن قد نيطت بحد الحسام لابتعريف الكلام فما عسى ان يجدى الكتاب عند انقضاض الكتائب او يهدى الخطاب عند اعتراض المضارب فكيف تكون الحال اذا ضمت هذه الدول كلها الى دولة او دولتين اوان يذهب بالجنسية التى هى علة الضم بلامين وعند بعضهم ان الجنسية مبنية على وحدة اللسان فاذا كان لقبائل شتى لسان واحد عدوا جميعهم قبيلة واحدة ولم يقم على ذلك برهان فانا نرى لسانا واحدا مستعملا فى مملكتين مستقلتين متغايرتين فى الاحكام والسياسة منفصلتين وانما هو ان اليد الطولى هى التى تتناول الحقوق قسرا وطولا وعلى ذلك دارت مسألة تلك المملكة العانيه والامة الوانيه الا ان الدهر غدار شيمته ارهاق الاخيار وابساق الاشرار ورفع الخسيس ووضع النفيس وانه كثيرا ما يدخل البرىء فى السجون ويخرج منه اللص الحؤون ويجرىء السفيه على الحليم ويولع اللئيم بعرض الكريم الا ان ذلك من البراهين الساطعة والدلائل القاطعة على عقوبة المجرمين فى الآخره وعلى انه تعالى انما يمهل العبد ويستدرجه بحكمته الباهره اذ يستحيل انه يسوى الابرار بالفجار وينزلهم منزلة واحدة فى تلك الدار فيومئذ يجزى المحسن باحسانه والمسيء بطغيانه فلاينبغى ان تقيس هذه الدار الفانية على تلك الدار الباقية فلا يفرحن الاشر باشره ويظنن ان الله غافل عن قدره فقد قدرله مصرعا وبيلا وعذابا طويلا وانما تجرى الامور هذا المجرى لتكون لنا عبرة وذكرى فطوبى لمن اعتبر بما مضى واستسلم للقضا

اذا اعتبرنا اتقان الصنائع دليلا على جودة العقل وحدة الذهن وصفو

القريحة وسلامة الذوق واستقامة الطبع كان لابد لنا من ان نحكم بان الافرنج هم اجود الناس عقلا واحدهم ذهنا واصفاهم قريحة واسلمهم ذوقا وطبعا لانا نراهم قد اتقنوا جميع الصنائع فلان لهم الحديد وسائر ما صلب من جواهر الارض واتقنوا التجارة والنساجة والخياطة والصبغ والنقش والتصوير والطبع والبناء وكل ما يمكن للانسان ان يتعاطاه من اسباب المعاش كالحراثة والزراعة والتجارة ونحوها فما وضعوا ايديهم على شئ الا واستخرجوا منه مرافق ومنافع حتى انهم ليبرزون النحاس فى رونق الذهب والقصدير فى بهجة الفضة وان يكونوا قد قصروا فى بعض اشياء عمن تقدمهم من الامم او عاصرهم منها مثال ذلك صنعة البناء فانى ارى ان الاولين قد احرزوا قصب السبق فيها فلا يمكن للافرنج ان يجاروهم فيها وان بذلوا غاية اجتهادهم وطاقتهم اذ لا يمكن الان لدولة من دول اوربا ان تبنى شبه اهرام مصر غير ان الافرنج يعتذرون عن هذا بقولهم ان ما يفعلونه فانما يريدون به النفع لا مجرد الفخر والاقدمون انما كانوا يفعلون للتفاخر اذ لم يظهر لهم فى بناء الاهرام نفع يساوى ما انفق عليها من الاموال وما تحمل فيها من الاتعاب والمشاق ويقولون ايضا ان الملوك الاولين كانوا يسخرون رعيتهم فى عمل ما يريدونه ولا يبالون بما يقاسونه فى انفاذ امرهم وهذا لا يجوز عندنا الان ثم لابد لنا من ان نستنتج من بناء الاهرام ونحوها اشياء اخرى وهى ان بناءها لم يتم على هذه الصورة البديعة بمجرد كثرة الذين كانوا يعملون فيها او بطول الزمن او بعظم النفقات بل لابد من ان نعلم ايضا انهم كانوا بارعين فى الرسم والهندسة وجر الاثقال واصطناع الآلات حتى امكن لهم اتقان العمل وبذلك نحكم ببراعتهم على الافرنج فى هذه الفنون ايضا ومثال ما قصرت فيه الافرنج عن الامم المعاصرة لهم صنع الشيلان الكشميرية والزرابى العجمية واشياء اخرى كثيرة تصنع فى الهند والصين مما يبهر الابصار ويحير الافكار ويمكن ان يحمل

للافرنج بان يقال ان البارى عز وجل قد خص كل بلاد بمزية ما فضلت به غيرها من نحو الماء والهوآء والتراب والعشب والحيوان فبعض ما يصنع الآن في الصين متوقف على التراب وبعضه متوقف على الماء والهوآء فلا يمكن ان يؤتى بهذه الخصائص من بلادها الى بلاد اخرى ومن الغريب هنا ان الافرنج يدعون بانهم اخترعوا اشيآء كثيرة وهى كانت معروفة عند اهل الصين فهل يحسب ذلك من توارد الخاطر على الخاطر ام نقول انهم لما سمعوا بوجودها اتخذوها وانتحلوها لانفسهم وفى الجملة فان للافرنج فضلا عظيما فى تجويد الصنائع واتقان الآلات وان يكونوا قد اخذوا بعضها عن اهل الصين وبعضها عن العرب ولاسيما عرب الاندلس واعظم ما اخترعوه استخراج منافع البخار الذى مكنهم من اتخاذ البواخر وسكك الحديد وصنع الآت الحلج والنسج وغير ذلك واذا اعتبرنا العادات والكلام والاخلاق دليلا على تلك المزايا التى تقدم ذكرها كان لنا ان نقول ان الافرنج لم تزل تغلب عليهم حالة التوحش والهمجية كالزمن الذى كانوا يلبسون فيه جلود الحيوانات ويجولون فى مناكب الارض بلا صنعة ولا عمل اما العادات فانهم قد الفوا اكل الحيوانات القذرة فكل ماساغ منها فى مزاردهم فهو طاهر والانكليز ياكلون اللحم المنتن الذى تشم رائحته الخبيثة من مسافة بعيدة ويتنافسون فى اكل الجبن المدود فكلما كثر دوده عندهم غلا ثمنه ولا يخفى ان عادة الانسان فى طعامه وشرابه هى اول علائم التمدن والتظرف ويلى ذلك عادته فى لباسه ورقاده ومن قبح عاداتهم حلقهم شواربهم ولحاهم فترى الشيخ الهرم منهم كالقرد مجردا عن الهيبة والوقار كتجرده عن الشعر وما كفاهم هذا حتى شغفوا بالنساء اللآتى لهن شوارب او عنافق او عوارض فخالفوا الطبيعة فى الحالتين ولو كانوا من ذوى اللحى وراوا غيرهم على هذا الرأى الشنيع لكان اول ما يصفونه به ان يقولوا انه اقرب الى الوحش من الانسان وهناك عادات اخر كثيرة قد

تلبسوا بها تلبسا ذميا مما لا يمكن استيفاؤه فى هذا المحل لضيق المجال عنه اذ ليس المراد هنا سوى ذكر الانموذج دون الاستقرآء والاستقصاء وكذا نقول فى كلامهم واصطلاحهم فى التخاطب والتفاهم فان استقرآءه ينبغى ان يكون فى سفر على حدته وانما نقول هنا قولا مجملا وهو ان احدهم اذا اراد ان يعبر عن معنى وان يكن من اوضح المعانى وابسطها واقربها رايته قد اشط فيه وربكه وعقده بالاستطراد والحشو واللغو من الكلام حتى لا تعود تعرف له راسا من ذنب ولا شرفا من سرب ومع ذلك فانهم يقولون انهم يعلمون فى مدارسهم المعانى والبيان فاى معنى بالله لقولهم ما دامت هذه البلدة لم تفتح فانهما لم تفتح واى بيان فى قولهم سقط فلان عن ظهر دابته فاخذ عضوا مكسورا يعنى فكسر عضو من اعضائه وغير ذلك من التعبير السخيف الذى يشف عن همجيتهم وقلة ذوقهم وهذا مبحث طويل ينبغى ان يفرد له تاليف مخصوص ليعلم منه فضل اللغة العربية على جميع لغاتهم وان ما يدعيه الافرنج من التمدن فى جميع الاحوال المعاشية لاتقوم به حجة ومن عدم الذوق فتح الانكليز معرضا للمصنوعات فى هذه الايام على حين يرون جيرانهم الفرنسيس قد منوا بمحن ومصائب غلت ايديهم عن العمل ورمت براعتهم بالكساد مع ان من حقوق الجوار ان يفرح الانسان لفرح جاره ويحزن لحزنه فما معنى هذا المعرض فى هذه الايام وهو ايضا دليل على سوء الاخلاق التى تتحاشاها العرب احتراما للجوار ومراعاة للولاء والاخاء غير ان الافرنج لايفكرون الا فى منافع انفسهم فقط فلو اهمهم تهذيب اخلاقهم قدر ما يهمهم ملء اكياسهم لكان اولى فسبحان من ارمنى الناس بعقولهم

من اعجب العجب ان الانسان لايدرك حقيقة حاله وهو مع ذلك يتطلع الى معرفة احوال غيره فيترك شغله وعمله ويأخذ فى الاستقصاء عن حال

زيد وعمرو اما لكونه لايدرك حقيقة حاله فقد يتوهم احيانا انه اشق الناس اذ يرى نفسه مقيدا بخدمة ما او عمل ما ويرى بعض الناس مطلق العنان ينتقلون من مكان الى مكان ويصرفون اوقاتهم فى اللعب والمزح والقصف والبطالة فيود لو كان نظيرهم ولكن اذا سمع بان احدا منهم هلك لانهماكه فى الشهوات اولتحويله الليل نهارا والنهار ليلا اولغلبة الهوى على عقله حتى ترك طريق القصد والرشد واتبع طريق الزيغ والاسراف رجع الى الحزم ورأى ان التقيد بالعمل خير من البطالة بل حمد الله تعالى على انه ليس من تلك الزمرة وقد يخطر بباله انه كان فى الوقت الفلانى والمكان الفلانى سعيدا مغبوطا اكثر مما هو عليه حالة الذكر ضرورة ان كل انسان يستطيب الماضى ثم يرى انه كان فى ذلك الزمن قاصر المعرفة لم يكن له علم باحوال الناس وادارة الامور كما هو الآن وعند ذلك يتذكر ما كاده به زيد وعمرو فى اوقات متعددة ويحمد الله تعالى على سلامته منهما وعلى ان ذلك الكيد قد زاد فى فهمه وفطنته بحيث انه اتخذه جنة للتوقى من امثاله فاغناه مزيد العقل عما حرمه من حظ تلك الايام فان العقل فى الحقيقة كنز لصاحبه وما اخال احدا من الناس يجهل قدره ولذلك ترى كل واحد من الناس يدعى ان له منه النصيب الاكبر واذا كان يقربان غيره ازكى منه حالا وانعم عيشا واكثر نفقة واقل هما وعناء فلايكاد يقر بان ذلك لكونه اوفر منه عقلا وانما ينسبه الى بعض الحوادث والعوارض فيقول ان القدر ساعد فلانا ولم يساعدنى او ان الزمان قد فسد فلا يسعد فيه الا الكذاب والمحتال وربما يخطر بباله انه غير متمتع بالصحة التامة اذ لا يقدر على اجتناء اللذات واتباع الشهوات كما يقدر غيره ثم يرى انه يمرئه الطعام والشراب ثلاث مرات فى اليوم ويهنئه النوم عدة ساعات فى الليل وانه قادر على عمل يزكو به حاله ويطيب به عيشه وانه لو كان مريضا لكان ملازما للفراش وهكذا يبقى فكره مترددا فى معرفة احواله فلا يتجسه له

وجه منهـا الا اذا قاسها على احوال غيره وفى الواقع فان انفع شئ لمن اتعبته افكاره فى معرفة حاله ان يفكر فى حال غيره على وجه المطابقة فاذا كان وضيعا وجب عليـه ان يفكر فى من هو اوضع منه لا فى من هو ارفع وان كـان غير تام السعادة يفكر فى من هو محروم منهـا بالكلية عـلى انى اقول انه ما من احد يكون سليم العقل والبدن الا ويكون له حظ من السعـادة عظيم وان كان غير تام الصحة يفكر فى من اسقمته العلل واعلته الاسقام حتى اعجزته عن تحصيل معاشه وان كان مريضا على هذه الحالة يفكر فى من هلك فقد تقرر اذا ان الانسان لا يعرف نفسه حق المعرفة وانمـا هى وساوس تعرض له فتخيل اليه مرة انه من السعداء ومرة من الاشقياء ومع ان كل واحد من النـاس يقول بلسانه ما عليها مستريح اى على الارض فكل يحـاول فى قلبه ويتمنى فى لبه ان يكون حاصلا على الراحة التامة وهى فى عرف الاكثرين كناية عن كثرة المال والاكثار من الخـدم والحشم والخيل والديار والفرش والمتـاع واحمق الحمق من ظن ان حظه ونعيمه ولذته فى كثرة النساء ولا يخطر بباله ان هذا الاكثـار هو عين التعب لان كلا من هذه الاشياء التى يملكهـا يقضى عليه بتوجيه همه اليه وصرف فكره فيه ولا شك فى ان كـثرة الهموم والافكار سبب للتعب لا للراحـة وانمـا توجد الراحـة الحقيقية فى القناعة وفى عزف النفس عن المطامع البعيدة فمتى عرف الانسان بكفايته من حطام الدنيا فقد اسـتراح نعم ان الغنى يقدر صاحبه عـلى اتخـاذ ما يستطيبه من المـاكول والمشروب ويستكرمه من المركوب ويستنعمه من الملبوس ويستعذبه من البلاد وفى ذلك رفاهية له وتقوية لبدنه الا انك اذا قست اعمار الفقراء باعمـار الاغنياء وجدت ان الفقراء يعمرون اطول من الاغنياء لان الغنى كما انه باعث عـلى الترفه والتنعم كذلك هو باعث عـلى الاسراف والانهمـاك فى اللذات المقصرة للاعمـار وكل من تعمد الحذور واصابه منها خدر الشهوات فبشره بانه لا يلبث ان يعدم حركته

اصلا اما من لزم القناعة واشتغل بعمل ما ينفع به نفسه وقومه فهو فى الحقيقة سعيد هذا الذى ندبت اليه الكتب المنزلة وحثت عليه الحكماء والفلاسفة من قديم الزمان وهو الذى رغب فيه كل ذى عقل سليم وطبع مستقيم حتى الشعرآء الذين لا يتحاشون من التعرض للجوائز والتعريض بها يعلون هذا ويستقدونه ويحرضون عليه ومفاد ذلك كله ان الانسان لايدرى ما ينفعه وما يضره وما يسعده وما يشقيه وانما هى اوهام تلوح له فيظن انها اذا تحققت صار سعيدا ولو كشف الغطاء له عنها لما شغل بها باله ولا اضاع عليها سؤا له ومن هذا القبيل مثل الذين يتصدون لتأليف الرسائل وانشاء الخطب ونظم القصائد وهم بمعزل عن العلم فترى كلامهم يشف عن سخيف المعانى ومستهجن الالفاظ وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا فهلا عرضوا كلامهم من قبل ان ينشروه على اهل العلم ليروا ما فيه من الخطأ والخلل فيرتدعوا به عن ارتكاب مثله ام يظنون ان كل من قرأ شيا من كتب النحو والعروض صار مؤلفا وشاعرا وليس عليه ان يعرف المأنوس من الالفاظ والصحيح من المعانى من غير المانوس والصحيح ام يخالون ان كل ما يخطر ببالهم يعجب الناس او ان هذا الفن لم يضبط فى قواعد تعصمه عن التسين وتبعده عن الخلل فلوكان امثال هولاء يعرفون احوالهم ويدرون حقيقة انشائيتهم لما عرضوا انفسهم للهزء والسخرية فان غاية كل واحد من الناس ان يكتسب المدح على ما يقوله ويفعله ويدخر الثناء الجميل عليه ولو ان احدا حضر محفلا وعرف انه متى تكلم سخر السامعون منه واحتقروه افتراه كان يجسر على الكلام ام يرى السكوت اجمل به فما الفرق بين المتكلم والكاتب فارى من ذلك كله ان الحياة نفسها هى سكر للانسان يغطى الحقائق عن بصره وبصيرته فيجهل حاله وقدره ويأخذ فى ان يخبط فى الامور خبط عشواء واذا بقى الانسان بعد بلوغه على هذه الحالة فاظنك بالاولاد الذين لم يجربوا الامور ولم يعرفوا

النافع منها من الضار والصواب منها من الخطأ ولهذا كان من الواجب على من انتدبوا لتعليمهم وتربيتهم ان يعتنوا بكفهم عن الرذائل على صغر وبارشادهم الى ماينفعهم فى المستقبل بان يبينوا لهم مساوى الصبوة والشباب والكهولة والشيخوخة ومحاسنها ومحامدها ومذامها وطوارئها وعوارضها ولاسيما فيما يتعلق بصحتهم ويديم عليهم عافيتهم على انا نرى المعلمين يلزمون الاولاد ان يعرفوا قدر ما فى الارض من الجبال والآكام والآطام والانهار والعيون والجداول والبطاح والسهول المحروثة والبقاع المعطلة وغير ذلك ولا يعلمونهم شيا يؤول الى صحتهم كالنهى مثلا عن شرب الماء فى التعب والتكشف للريح وكالاضطجاع فى مكان ند والاكثار من اكل الفاكهة وارتقاء الشجر وعدم المبالاة بعواقب البرد والحر ونحو ذلك مما لابد منه وبودى لو ان بعض الاطباء يؤلف رسالة فى هذا الموضوع فتجبر الاولاد على تعلمها وحفظها كما تجبر على تعلم كتب الجغرافيا وغاية الكلام انى ارى اهمال تربية الاولاد اصلا لمعظم الشرور والفساد الملازمة للانسان حال حياته فينبغى بذل العناية التامة

فى حسن تربيتهم وتهذيبهم حين يكون بهم صلاحية

واستعداد لذلك والا فانهم متى ربوا على الفساد

ومرنوا على الطلاح فقراءة الكتب

لاتجديهم نفعا

❁ يقول جامعه وملتزم طبعه الى هنا تم جمع الفصول المختلفة المعانى ❁
❁ والمبانى ولم يكن جمعها بحسب ترتيب اعداد الجوائب ❁
❁ ومنهما ما اختصر عن الاصل اختصارا لم يخل ❁
❁ بالموضوع ويليه الجزء الثانى المشتمل ❁
❁ على الجمل السياسية ❁
❁ ان شاء الله تعالى ❁

بيان ما وقع فى هذا الجزء من الخطأ

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٣	١٠	هل	اهل
٤	١٩	الحرة	الحارة
٥	٥	ايظا	ايضا
٥	١٦	يذل	بدل
٧	٤	يعبى	يعنى
	٧	الازاج	الازعاج
	٩	راسه سنبه	راسه شى سببه
	١٠	ظاهرة	ظاهر
٨	٣٠	تبعت	تبعث
٩	٣٣	هو	هى
١٠	١	افطار	اقطار
١١	١٨	قرأتت	قرآنك
	٢١	منسقة	متسقة
	٣٣	يسمى	يذكر
١٣	٥	منه	منة
	٧	نهـا	انهـا
	١٦	جعيا	جيعا
١٥	٢٥	النقس	النفس
١٦	١	والابعلا	والابعاد
	٣	المحسوص	المحسوس
١٦	٤	بلس	بلس
	١١	وجوده	رؤيته
١٧	٢٥	وغرب	واغرب
١٩	١٥	جعل	جعلت
	١٩	المومى	الموما
٢٥	٣	الساعة	فى الساعة
٣٣	١٧	فبم	فيم
٣٨	٤	يضع	كان يصنع
	٤	ان منافع هذا	ان هذا
	١٨	براده	ايراده
٣٩	٩	حص	خص
	١٣	تنتيته	تنتيت
٤٥	١	اللشمس	للشمس
	٩	البناق	البنادق
٥٤	١٨	تُسلل	تسلسل
٥٦	٣	الناع	الشعاع
	٤	واحلاة	واحدة
٥٧	١٠	فى لايمان	فى الايمان
٥٨	١٦	تخزبت	تحزبت
٦٠	٦	الادباء	الآباء
٦٢	١٣	دعيا	داعيا
٦٥	٢١	الاحكام	للاحكام
٦٦	٥	تهمة	تهمة